حياتي في رحلاتي

أمين سلامة

حياتي في رحلاتي

تأليف
أمين سلامة

هنـــداوي

حياتي في رحلاتي

أمين سلامة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٧ ٣٠١٧ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ أمين سلامة.

المحتويات

المقدمة	٧
١- بص طائر وترزي حائر مع أم شفوق ووزير مرموق	١١
٢- تجربة قاسية في مطار نيس	٢١
٣- يوم باهر مع فؤاد وماهر	٣١
٤- لا أبدع مما كان ويكون في «كان»	٤١
٥- يوم جديد حافل بالمزيد المفيد	٥٥
٦- كوبي من ميامي يحقِّق مرامي	٦٥
٧- مدريد فخمة بمبانيها الضخمة	٧٥
٨- بلا بنادق غزوت المطاعم والفنادق	٨٧
٩- طليطلة مذهلة مُسلِّية	٩٧
١٠- زيارةٌ متحفية وسهرةٌ سينمائية	١١٣
١١- لويس الرفيق يُلازمني الطريق كصديق	١٢٩
١٢- الفلامنكو الإسباني يستحق التقدير والتهاني	١٣٩
١٣- ساعاتٌ أخيرة وتأملاتٌ قريرة	١٥١
١٤- إلى اليونان بقلبٍ فرحان عمران	١٥٧

المقدمة

قد يبدو «حياتي في رحلاتي» لأول وهلة، للقارئ العزيز، عنوانًا غامضًا، ولكنني لا أقصد به أكثر من أن أحكيَ له فيه ردَحًا من حياتي قضيتُه في أسفاري ورحلاتي.

إذن، فأنا أرْوِي لك في هذا الكتاب ما حدَث لي في كل لحظةٍ من لحظات حياتي وأنا أعيشها دقيقةً بدقيقةٍ أثناء رحلة قُمتُ بها في دولتَين كبيرتَين هما فرنسا وإسبانيا.

أقوم في كل عام برحلةٍ أعتبرها تجربةً عملية واقعية أخوضها بنفسي وتحت مسئوليتي وعلى نفقتي الخاصة لأتعلم الشيء الكثير، بل وأقصى ما أستطيع أن أتعلمه، وكي يتعلم معي غيري ممن يؤمنون مثلي بأن التجربة الشخصية درسٌ عملي مفيد، لا يقل في أهميته عن التجربة التي تُجرى داخل المعمل، مهما تكن طبيعة هذا المعمل أو رسالته في الحياة. وحتى التجربة الفاشلة مفيدة؛ إذ تدُلك على مواطن الخطأ وأسباب الفشل، وتُعلمك أن تبدأ التجربة من جديدٍ وبأسلوب يختلف عن الأسلوب السابق، إلى أن يكتب الله للتجربة النجاح الكامل.

لهذا، لا يُدهِشنَّك أيها القارئ الكريم أن تجدني، في قصة رحلاتي، لا أترك كبيرةً ولا صغيرة إلا ذكرتُها كما وقعَت وحدثَت تمامًا وبالتفصيل دون تزويقٍ ولا تنميق ولا إضافة؛ فإن خير التجارب وأنجحها وأكثرها قيمةً وفائدةً هي التي تتوخَّى الصدق في كل خطوةٍ من خطواتها. ويقول الفلاسفة: «الحقيقة أكثر تأثيرًا في النفس من الخيال.» فالكلمة الصادقة تنفُذ إلى القلب مباشرةً فتُريحه، وتُخاطب العقل على الفور فتُقنعه وتأسِره.

والرحلة تَرْحال، أو قُل خروجٌ من حياة ومكان معروفَين لديك إلى حياة ومكان مجهولَين عليك. ومنذ قديم الزمان، عرف الإنسان قيمة الرحلات، وتَغنَّى بفوائدها الشعراء، فقال أحدهم:

... ... وسافِرْ ففي الأسفار خمسُ فوائدِ
تفرُّج همٍّ واكتسابُ معيشة وحِذقٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ

هذا، والرحلة القصيرة كالرحلة الطويلة تمامًا؛ كلاهما خروج من شيء لأجل الدخول في شيءٍ آخر. والرحلة التي أنت بصدَد قراءة أحداثها ووقائعها، رحلةٌ بعيدة كل البعد؛ بعيدة عن البيت والأهل والأصدقاء، وعن الوطن الأم.

وأنا، في هذه الرحلة أُخاطب القارئ كأنه نفسي وروحي؛ فأنا أريده أن يراني كأنما هو يُرافقني في كل خطوةٍ خطوتُها في كل بلدٍ ذهبتُ إليه، وآواني وأكرمني وتلقَّاني بين أحضانه الدافئة أو غير الدافئة.

لم أحاول قَط أن أُعالج مشاهداتي أو أُضفي عليها شيئًا من الفلسفة وإلا فقدَت قيمتها، ولكنني اجتهدتُ في أن أصوِّر لك هذه المشاهدات تصويرًا دقيقًا بعيدًا كل البعد عن الإضافات أو التنميقات؛ فقد جعلتُ عيني «كاميرا» دقيقة، تلتقط وتُصوِّر، لتوضِّح وتبيِّن، فتَخْلق من هذا الكتاب ذكرياتٍ مصوَّرة بالكلمات الصادقة، التي لو نطقَت لما قالت شيئًا أقل مما قد تقوله الصورة المرسومة.

ومع ذلك، فقد توخَّيتُ أن أقارِن كلما عنَّ لي ذلك. قارنتُ بين ما رأيتُه رؤية العين، وبين ما أعرفُه في باطني من حقائقَ مُشابهة أو مُخالفة، سواء أكانت في بلدي أو في غيره من بلاد الدنيا.

أنا في هذا الكتاب «جوَّال» أكثر منِّي «سوَّاحًا»، أو «مؤرخ رحلات»؛ فلا أعطيك إحصائياتٍ أو معلوماتٍ جغرافية أو تاريخية قد يجدها القارئ — لو أراد — مدونةً في كتب الجغرافيا والتاريخ العادية، وما أكثر هذه في المكتبات! كنتُ وأنا أجول أرى وأسمع وألمس وأتكلم. كنتُ أخاطب أقوامًا من جميع الجنسيات، أريد أن أعرف شيئًا عن تفكيرهم وما يدور بخلَدهم وخيالهم وعقولهم.

كانت تستهويني الفتاة الغربية بصفةٍ خاصة؛ مِشيتها، ملبسها، حركاتها، حُريتها، زينتها، تبرُّجها، وتزمُّتها، فصوَّرتُ كل هذه الأمور الحيوية؛ لأنك لا تراها، بغير شك، في أي كتاب من كتب المكتبة العربية.

ولم ينجُ الحب، في كتابي، من المناقشات والتعليقات، فرسمتُ لك منه أكثر من صورة في أكثر من موضع وفي أكثر من وضع، ومع أكثر من فتاة من كل عُمر وقَدٍّ؛ فالحياة هي الحب، والحب هو الحياة. ومن لم يُحب لم يؤدِّ للحياة ما وجب.

كما لم يخلُ كتابي من الوصف بمختلف فنونه وألوانه؛ فالكتاب في كثير من أجزائه وصفيُّ الاتجاه. لم يترك شيئًا يستحق الوصف إلا ووصَفه. ولعلني أكون قد وُفِّقتُ في وصف الشوارع والمباني والحقول والمتاجر والمطاعم والمقاهي والطبيعة، فضلًا عن

المتاحف والقصور والمعالم التاريخية والملاهي الليلية، بكل ما فيها من مفاتن وفنون ومهارات وليدة العلم والتكنولوجيا الحديثَين، وتُعتبر بحقٍّ مفخرةً لبلدها وبهجةً للقلوب والعيون.

تنقلُك رحلتي التي يقُصُّها لك كتابي هذا، تنقلُك إلى قُطرَين عظيمَين؛ إلى فرنسا ثم إلى إسبانيا. ولعلك تُلاحِظ أن القُطر الأول أوروبي الصبغة، يمثِّل مَعقِلًا خطيرًا من معاقل الحضارة الأوروبية في العصر الحديث، في حين أن إسبانيا، وهي قطعة من أرض أوروبا، إلَّا أن أوروبيَّتها ليست خالصةً تمامًا؛ ففيها من الشرق الشيء الكثير، وذلك راجعٌ إلى تاريخها القديم؛ إذ فتحَها العرب في عهد موسى بن نصير على يد طارق بن زياد، وتوغَّلوا في أراضيها حتى حدود فرنسا، وأطلقوا عليها اسم «الأندلس»، ولا تزال بها آثار الدَّور العظيم الذي لعبه الفكر العربي والثقافة العربية في ربوع هذه البلاد ردَحًا طويلًا من الزمان يُقاس بالقرون والأجيال؛ فالعرب لم يعيشوا في فرنسا وإنما عاشوا وأقاموا في الأندلس (إسبانيا) وغزَوْها فكرًا وعقلًا وثقافةً وحضارة.

وكما يختلف الناس أشكالًا وأديانًا وعقائد، تختلف الحياة نفسها من بلدٍ إلى بلد، تبعًا للعادات والتقاليد الموروثة والمُستحدَثة؛ لذلك حاولتُ جهدي أن أصوِّر لك حياة الناس العادية اليومية، في كل مكانٍ حظيتُ برؤيته، سواء في فرنسا أو في إسبانيا.

لا أحسبُني، في هذا الكتاب، قد توخَّيتُ أكثر من أن أصحبَ القارئ معي في جولةٍ سريعة، لعلَّه يجد فيها متعةً ذهنية وفائدةً ثقافية وتسليةً روحية، تدفعُه إلى قضاء لحظات من عمره السعيد، باحثًا عن مزيد من هذا اللون من الأدب الخفيف، أدب الرحلات التسجيلية، أو قُل أدب الرؤية الصادقة الأمينة والواعية والوفيَّة نحو كاتبها ونحو قارئها، على حدٍّ سواء.

لَمَّا كان كتابي هذا هو الكتاب الثاني بعد كتابي الأول «شباب إلى الأبد» الذي وصفتُ فيه تجربةً خُضتُ غِمارها في رومانيا؛ لذا أرجو أن يحظى هذا الكتاب من إقبال القُراء الأعزَّاء بما يُشجعني على وضع كتابٍ ثالث عن «اليونان»، أرض الآلهة والإنسان.

وفَّقني الله دائمًا إلى ما فيه إثراء المكتبة العربية بأمثال هذه الكتب التي أعتقد أننا في مسيس الحاجة إليها؛ نظرًا للإقبال الشديد الذي يحتاج في الوقت الحاضر إلى قلوب وعقول الشباب المصري المُحب للأسفار والتَّرحال بُغية الكفاح والعمل والمشاهدة والتعليم، والذي أثبتَت التجربة العملية أنه لا يقل كفاءةً وبراعة ونجاحًا عن ضَريبِه من الشباب الغربي الدائب السفر والحركة والتنقل مهما تَقِل نقوده أو تَشِح موارده. إنه مجازفٌ

جريء يعتمد قليلًا على ذكائه وعلمه، وكثيرًا على قوة سواعده، بل قُل إنه يعتمد عليها كثيرًا جدًّا.

أمين سلامة

كتبت هذه المقدمة بمطعم توبيكانتو لصاحبيه ياني وديمتري بحي كالاماكي في أثينا — باليونان — بتاريخ ١ / ٨ / ١٩٧٧م.

الباب الأول

بص طائر وترزي حائر مع أم شفوق ووزير مرموق

دقَّ جرس التليفون في شقَّتي، وكنتُ أعلم مُسبقًا أن هذه المكالمة من صديقتي الوفية، تُريدني أن أستيقظ مبكرًا في الساعة الرابعة صباحًا. كانت تعلم أنني مسافرٌ في إجازتي الصيفية، كما كانت على علمٍ سابقٍ بأنه يجبُ عليَّ أن أكون بمطار القاهرة الدولي في السادسة والثلث صباحًا؛ أي قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتَين على الأقل، حسب تعليمات شركة السياحة «إير فرانس»، التي كنتُ سأطير على مَتْن إحدى طائراتها.

كان عليَّ القيام ببضعة أعمالٍ بسيطةٍ في حدِّ ذاتها ولكنها بالغة الأهمية بالنسبة لي؛ كنزع منصهرات النور (الكوبسات)، وهذا إجراءٌ وقائيٌّ لمنع حدوث حريق بالشقة أثناء غيابي، قد يُسبِّبه التيار الكهربي، وإغلاق حُجرات الشقة بالمفاتيح، وهذا أمرٌ قد يبدو تافهًا ولكنه عظيم الأهمية من الناحية الوقائية أيضًا، وقد ينساه المرء في عَجلته إذا لم يكن لديه مُتسعٌ من الوقت.

وفي الساعة الخامسة دقَّ جرس الباب، ففتحتُه، فإذا بابن أختي «أمين»، الطالب بالسنة النهائية بكلية طب جامعة القاهرة. وكان قد تطوَّع مشكورًا بنقلي أنا وحقائبي إلى المطار في سيارته الفيات ١٢٨، التي اشتراها له أبوه الطيِّب قبل أن يرحل عن الدنيا. قدَّمها له هدية لتفوُّقه في دراسته. وإنِّي لأتنبأ لهذا الشاب بمستقبلٍ باهرٍ لِمَا يتحلَّى به من خُلق دمثٍ جميل، ولإحساسه بالمسئولية بصورةٍ رائعةٍ تُبشِّر بالخير. عاونَني أمين بساعدَيه القويَّين، فحمل عنِّي بعض أمتعتي الثقيلة بروح رياضية واهتمامٍ صادق ومحبةٍ أصيلة دون تأفُّف ولا تذمُّر. وكنتُ أعلم أنه يسهر الليل أحيانًا يستذكر دروسه استعدادًا لأداء آخر امتحان له للحصول على بكالوريوس الطب.

حملَتنا السيارة في سهولةٍ ويسرٍ دون توقف، وكانت الطريق خالية تمامًا إلا من ظاهرة تستأهل التسجيل. أبصَرْنا الفتياتِ الشاباتِ واقفاتٍ عند محطات الأوتوبيس في الخامسة والنصف صباحًا أو بعدها بقليل، ساعياتٍ إلى أعمالهن في تلك الساعة المبكرة، ولكنني لم أرَ شابًّا واحدًا يذهب إلى عمله في مثل ذلك الوقت المبكر. تحيةً منِّي لكفاح الفتاة المصرية.

ما إن وصلنا إلى مطار القاهرة حتى فُوجئتُ بازدحامٍ شديد خارجه؛ سيارات خاصة وتاكسيات وحقائب مُتناثرة تَسُد الطريق، ورجال وسيدات وأطفال كلهم وقوف على قارعة الطريق. شيء يُضايق جدًّا ويثير الأعصاب والقلق معًا. تكاد لا تستطيع أن تشُقَّ طريقك إلى داخل المطار. والناس لا تبالي. لا تتحرك لتفسح لك الطريق. يا له من عدم اكتراثٍ صارخ مطلق! كان لا بد لي من استخدام كتفي في دفع الناس من أمامي. والغريب أن أحدًا منهم لم يتبرَّم من هذا ولم أسمع ما يسيء إلى سمعي أو يضايق أذني، وكأنهم يقولون: «لا عليك، هذا أمرٌ طبيعي عادي، ادفع واخبط وزق كما تشاء.» وكان البحث عن مكتب شركة الطيران «إير فرانس» صعبًا وشاقًّا، تكاد اللافتات المكتوبة لا تُظهِر لك شيئًا ولا تُرشِدك بسهولة، فكان عليَّ أن أسأل في حذَرٍ وإحدى عينَيَّ على الذي أسأله والعين الأخرى على حقائبي التي تركتُها بعيدًا عني قليلًا. لا أمان طالما أن الناس في هذه الفوضى البالغة وهذا الزحام الشديد. حقًّا، ما أسهل أن يفقد المرءُ نفسه في هذا الخِضَم المتلاطم من الكتل البشرية المكدَّسة بغير نظام! فما بالُ حقيبةٍ صغيرة متروكة فوق أرض قاعة استقبال المسافرين؟! وأخيرًا ظهر لي حمَّال تسلَّم حقائبي ونقلها إلى حيث مكاتب السياحة والإجراءات الأخرى اللازمة. تسامحَت شركة إير فرانس، وقبلَت بعض الزيادة في وزن حقائبي … الخدمة بهذه الشركة سريعة وممتازة، والتفاهم الودي واضحٌ جلي. لم يضايقني في هذا الجزء من الإجراءات إلا وقوفي لمدةٍ طويلة أمام ضابط الجوازات. كان، على غير العادة، شديد البطء في إنجاز عمله. وهذا ما لم أتعوَّده من قبلُ في رحلاتي السابقة التي سافرتُ فيها إلى كثير من بلاد الدنيا؛ إذ كانت إجراءات جواز السفر لا تستغرق أكثر من دقيقة. وعلى العموم، والشيء بالشيء يُذكَر، يُذكِّرني وقوفي الطويل هذا أمام ذلك الضابط بالوقفة الطويلة المُملة التي عانيتُ شرَّها في مطار بوخارست برومانيا في العام الماضي، والتي لم يفُتني أن أشرح تفاصيلها في الصفحات الأولى من كتابي «شباب إلى الأبد»، الذي يروي تفاصيل جولتي في ربوع مستشفيات الدكتورة العالمية آنا أصلان مكتشفة عقار هـ٣ لإعادة الشباب إلى الكبار والمسنين ذكورًا وإناثًا.

لم أشترِ شيئًا من السوق الحرة الموجودة بأرض المطار. وماذا يمكنك أن تشتريه منها سوى الروائح العطرية والسجاير؟ وهذه كلها يُمكن شراؤها بسهولة أكثر على متن الطائرة بأسعار قد تقلُّ عمَّا في تلك السوق.

توجَّهتُ إلى كافيتيريا المطار. الخدمة في هذه المرَّة أفضل بكثير منها في العام الماضي. تلبية الطلبات سريعةٌ ومنتظمة مع النظافة الواضحة في كل شيء. أخذَت منِّي النادلة «أمنية» اللطيفة المعشر والمنظر معًا، عشرين قرشًا ثمنًا لقدَح القهوة دون أي زيادة. كما لاحظتُ أنها تقوم على خدمة المسافرين بابتسامةٍ حلوة وصراحةٍ طيبة ونشاطٍ جَم. كانت تقدِّم شطائر الجبن واللحم مع المُخللات، وكان التوست وفيرًا لذيذ الطعم. هكذا كان يوحي إليَّ منظره وأنا أنظر إليه يُقدم للزبائن. كانت «أمنية»، تلك الفتاة الجميلة المثقفة والجامعية، لا تقدِّم الطلبات فحسب، بل وتنظِّف النَّضَد الطويل المستدير الذي يفصلها عن الزبائن، تساعدها في هذه المهمة الشاقة فتاةٌ أخرى لا تقلُّ عن أمنية ظُرفًا وبراعة في خدمة المسافرين. ولا شك في أن هذا الجزء من الخدمة قد تحسَّن بشكلٍ ملموس عمَّا كان عليه في مثل هذا الوقت من العام الماضي.

من الأمور الأخرى البيِّنة، ما لاحظتُه بجلاء في تحسُّن مستوى النظافة بالمطار، وقد آلَتْني هذه الظاهرة في الأعوام السابقة كلما همَمْتُ بالسفر. كان يحزُّ في نفسي تدهوُر مستوى النظافة كلما قارنتُه بمستوى النظافة التي نراها ونلمسها واضحةً جلية في أي مطارٍ آخر من مطارات معالم.

حدث وأنا أحتسي القهوة التركية في الكافيتيريا أن دفع جاري، الذي لا أعرفه بالمرَّة، ثمن قدَح القهوة التي شربتُها. دفعه خطأً؛ فقد ظنت أمنية، أنني وجاري صديقان مسافران معًا في رحلةٍ واحدة؛ إذ ظهرنا أمامها في وقتٍ واحد ومتجاورَين. ولَّما كان كل واحدٍ منا قد طلب نفس الشيء «واحد قهوة»؛ لذلك التبس عليها الأمر فحصَّلَت الثمَن من صديقي المزعوم هذا، وطبعًا لم يكن صديقي «ولا حاجة»، فلم ألاحِظ شيئًا مما جرى بينه وبين تلك النادلة. كما أنني لم أفطِن إلى الخطأ الذي تورَّطَت فيه «أمنية»، أو بمعنًى أصح، تورَّط فيه ذلك الرجل الغريب، إلا عندما تقدَّمتُ لأدفع ثمن القهوة التي شربتُها، فأخبَرتْني أمنية بأن صديقي الذي انصرف قد دفع ثمَن قهوته وقهوتي. وهذا يدُل على منتهى الأمانة؛ إذ كان بوسعها أن تأخذ مني الثمن وتضَعه في جيبها، ولكن نفسها الأبيَّة تعفُّ عن مثل ذلك العمل الحرام. مسكينٌ جاري ذاك، دفع عن طِيب خاطر أربعين قرشًا ثمنًا لفنجان قهوة مصرية بالمطار. عندئذٍ رأيت أن أطلب قدحًا آخر لكي أحسَّ بأنني دفعتُ شيئًا في مقابل ما شربتُه.

كانت مفاجأةً سارة لي عندما همَمتُ بمغادرة مكاني من فوق المقعد العالي الملاصق لنَضَد الكافتيريا، فإذا بي أرى أمامي، وجهًا لوجه، صديقي الأستاذ مصطفى دغيش، مدير شركة مصر للطيران فرع أثينا. وكان مصطفى يرتدي حُلةً ذات لونٍ رماديٍّ زاهٍ، اشتراها، على حدِّ قوله، من تايلاند في بانكوك. كان لقاؤنا حارًّا، وعلمتُ منه أنه قدِم من أثينا إلى القاهرة في مهمةٍ عاجلةٍ لن تستغرق أكثر من ساعاتٍ يعود بعدها إلى مَقرِّ عمله بمطار أثينا مديرًا لشركة مصر للطيران هناك.

تمَّت باقي الإجراءات بسرعةٍ مثيرة وسهولةٍ مدهشة حتى وجدتُ نفسي داخل الأوتوبيس الذي سوف يُقِلني إلى حيث تربضُ الطائرة ... ما كِدتُ أتخذ لنفسي مكانًا بالطائرة حتى فُوجئتُ بمن يمُد لي يده مسلِّمًا في حرارة وبشدة، قائلًا: «لعلك تتذكرني. أنا تلميذٌ سابقٌ من تلاميذك بمدارس التربية القومية.» فسألتُه: «هل أنت مسافرٌ إلى باريس أم إلى مدينة نيس مثلي؟» قال: «إلى باريس بحثًا عن عمل في فترة الإجازة الصيفية.» فشكرتُه على هذه التحية الجميلة التي تنمُّ عن حبِّ الطالب لأستاذه، وتمنَّيتُ له رحلةً موفقة، فسألَني عما إذا كان بوسعي أن أزوِّده بأسماء بعض أصدقائي بفرنسا عسى أن يساعدوه في العثور على عملٍ سريع، فاعتذرتُ له لعدم وجود عناوين أصدقائي معي في ذلك الوقت، كما أنني لا أحفظ تلك العناوين في ذاكرتي.

دخلتُ الطائرة فإذا بها عملاقٌ ضخم، مترامية الجوانب من الداخل، مقسَّمة إلى ثلاثة صفوف بطولها بينها ممرَّان، يتسع عرضها لثمانية مقاعد. بكلٍّ من الصفَّين الجانبيَّين مقعدان، والأربعة الأخرى تجري كلها في الصف الأوسط الطولي. كنا نجلس ثمانيةً ثمانية في كل صفٍّ مُستعرض. الطائرة مُريحةٌ جدًّا، والخدمة فيها ممتازةٌ رائعة. والمضيفات أرقُّ من النسيم العليل. وبهذه الطائرة مائتان وخمسون مقعدًا كانت كلها مشغولة. وكان بها تسعةٌ من المضيفين والمضيفات يقومون على خدمة هذا العدد الهائل من المسافرين.

وإذ كان مقعدي قريبًا من مدخل الطائرة، فقد فُوجئتُ بدخول وزير الصحة الدكتور الجراح إبراهيم بدران. لم أستطع أن أمنع نفسي من القيام فورًا وتلقائيًّا، وتحية الوزير العالِم بما يستحقه من تقدير وتبجيل، فسلَّم عليَّ الوزير بحرارةٍ حلوة تنمُّ عن أصالة المنبت وعراقة النجار. لم ينسَ الدكتور بدران أيام الطفولة، وكيف كنا نلعب سويًّا في أيام الإجازة الصيفية؛ فقد كنا جيرانًا ومن سكان حَي واحد هو حَي جاردن سيتي، كما كانت هناك صداقة بين أخواتي وأخواته. هذا فضلًا عن أننا كنا زملاء بمدرسةٍ واحدة هي المدرسة الإبراهيمية الثانوية. حقًّا، كم من وزيرٍ جليل ورجلٍ عظيم مشهور من

رجالات مصر في الوقت الحاضر، قد تخرَّجوا فيكِ أيتها المدرسة العريقة العظيمة، يوم أن كان ناظرها هو المرحوم الأستاذ جعفر النفراوي، أَشَد نُظَّار عصره قسوةً وصرامة، وشدةً وضراوة! كان الأستاذ النفراوي يحكم الإبراهيمية بيدٍ من فولاذ، يُقوِّم كل اعوجاج بمنتهى الشدة في غير ما هوادةٍ أو لين. كنا نلمس فيه الرجولة مجسَّمة، وكان عَلمًا فريدًا في دنيا التقويم الخلقي والتربية القويمة الصالحة لخلق جيلٍ أصيل يخدم الوطن بأمانةٍ وإخلاص.

جلسَت إلى يساري بالطائرة سيدةٌ طاعنة في السن، جاذَبتْني أطراف الحديث على الفور، فقالت: «إلى أين تسافر؟» قُلت: «إلى فرنسا.» قالت: «أنا مسافرةٌ إلى كندا لزيارة ابني المهندس الذي هاجر إليها منذ عام ١٩٦٨ واستقر هناك. لقد أَصَرَّ على أن أقوم بزيارته.» ثم سألَتني في قلقٍ واضح: «هل عندك فكرة عن كندا؟» قُلت: «نعم. عندي فكرةٌ طيبةٌ عن تلك البلاد؛ إذ سبق لي أن هاجرتُ إليها وعشتُ فيها أربع سنواتٍ طوال. إنها بلادٌ جميلة، وكل شيء فيها مُريحٌ وممتع. ولا بُد أن ابنك ينعم بخيرات تلك البلاد التي لا أول لها ولا آخر.» قالت: «تعذَّب ولدي في بادئ الأمر، وضايقوه جدًّا، ولكنهم يعاملونه الآن معاملةً حسنة لا إجحاف فيها ولا ظلم.» ثم استطردَت تقول: «أصرَّ ولدي على أن أزوره.» قُلت: «حسنًا، ولكن هل عملتِ حسابًا لبرد كندا الشديد؟» قالت: «بكل تأكيد، حقائبي مليئة بالملابس الشتوية الثقيلة. ولئن أردتَ الحق، أنا قلقةٌ أشد القلق بخصوص هذه الرحلة، وكثيرًا ما أسائل نفسي عما إذا كنتُ سأتحمل مشقاتها.» فطمأنتُها وأفهمتُها أنها مُقبلةٌ على رحلةٍ ممتعة وبلادٍ مريحة جدًّا وبالغة الثراء والرخاء بصورة ستجعلها لن تندم بحالٍ ما على أنها زارتها أو نعمَت برؤية معالمها. وفجأةً انقطع الحديث بيننا عندما أمسكَت هذه السيدة بصحيفة أخبار اليوم لتقرأ بإمعانٍ وشغفٍ أنباء القبض على زعيم عصابة جمعية التكفير والهجرة بعد حادث اغتيال المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي، ذلك الحدث الذي هزَّ مشاعر المصريين جميعًا لبشاعته وبُعده عن الإنسانية المتعارف عليها بين أفراد الشعب المصري، أحد الشعوب المتمسكة بقواعد الدين وذوات الأصول الأخلاقية العريقة، والتي لا ترضى بأية حالٍ أن تُنتهك حُرمات بيوت الناس في جُنح الليل ويُنتزَع منها رب الأسرة أمام أولاده وذويه، بقوة السلاح، ليُنقل إلى حيث لا يعلم أحد، ثم ليُقتل بالرصاص في قسوة. وهذه لغة أهل الغاب التي لا يعرفها شعب مصر الآمن الأمين. أرجو من عدالة السماء أن تحكم على هؤلاء الوحوش بالإعدام، وعلى أفراد هذه الجماعة المُلحِدة التي لا تتكلم إلا بلغة السلاح، بالسجن مدى الحياة بعد أن يُجلَدوا في ميدانٍ عام

ليكونوا عِبرةً لغيرهم من ذوي النفوس الشريرة. صَدِّقوني إن أية أحكام غير هذه لن يرضى بها أي فردٍ مصري، بل وشعوب العرب العريقة الأرومة جميعًا بغير استثناء.

ها أنا ذا أسمع قائد الطائرة يُعلن لنا عن اسمه، فيقول: «أنا دي سانت بيير، أقود طائرة من طراز «إيربص». ولعله يقصد «الأوتوبيس الطائر في الفضاء» ورحلتي رقما ١٢٢. سأطير بكم أولًا، إلى مدينة نيس في جنوب فرنسا، ثم إلى باريس العاصمة. ستستغرق رحلتي أربع ساعاتٍ كاملة.» وبعد ذلك طلب منا أن نشُد أحزمة المقاعد حول خواصرنا، كما حذَّرنا من التدخين، وخصوصًا الجالسين في المقاعد التي تبدأ من الصف التاسع وما بعده؛ ذلك لأن الصفوف الثمانية الأولى مخصَّصة لمن لا يدخِّنون؛ ومن هنا جاء مقعدي في هذه الصفوف المتقدمة، كما حظر علينا قائد الطائرة التصوير الفوتوغرافي داخل المجال الجوي المصري. وكان يُلقي تعليماته هذه في لهجةٍ هادئة تتصف بروح المحبة والثقة والاعتداد بالنفس.

كان المفروض أن تُقلِع الطائرة في الساعة الثامنة والثلث صباحًا. وإحقاقًا للحق، أغلِق باب الطائرة فعلًا في ذلك الوقت بالضبط. وأعلن قائد الطائرة، على الفور، أن الطائرة ستُقلِع في مدى خمس دقائق. كانت لا تزال رابضةً فوق أرض المطار ومحركها يدور بسرعةٍ وبلا توقف ... وما إن اقتربَت الساعة التاسعة حتى تحركَت الطائرة وارتفعَت بنا في جو السماء دون أن يشعر أي واحدٍ منا بذلك. وما كِدنا نجد أنفسنا في الجو حتى دبَّت الحياة داخل الطائرة، وبدأ الركاب ينتقلون تاركين أماكنهم كما لو كانوا في دار عرضٍ سينمائي في فترة الاستراحة. عندهم حق؛ فالطائرة فسيحةٌ جدًّا ومملوءة بمختلف الأجناس. راح الكل يتحدَّث ويتسامر. وبينما ينعم هؤلاء بهذه المتعة النادرة، كانت هناك حركة من نوع آخر يقوم بها أفراد طاقم الطائرة الذين كان عليهم خدمة الركاب جميعًا. شرعوا يُوزِّعون علينا الفوط الورقية المعطرة، ثم كُتيِّبًا يضم خرائطَ دقيقة جدًّا لكل بقعة من بقاع الدنيا، والكُتيب محفوظٌ داخل كيس أنيق من البلاستيك الشفاف، ومع هذا الكتيب قائمةٌ في ألوانٍ جذَّابة تُرشِدك إلى كل ما يمكنك أن تشتريه على متن الطائرة من مختلف ماركات العطور وأربطة العنق الحريرية السولكا، وكافة صنوف المشروبات الروحية، علاوةً على أشهر أنواع السجاير والسيجار، والأسعار، طبعًا، بالعملة الصعبة؛ بالفرنك الفرنسي، أو الدولار الأمريكي، علمًا بأن الدولار الأمريكي يُعادل خمسة فرنكات إلا ربعًا. هكذا أخبرني أحد المضيفين البالغ عددُهم تسعة تقريبًا، عندما سألتُه مستفسرًا عن ذلك.

سرعان ما أحضروا لنا طعام الإفطار، وأنا، بدون خجلٍ أو حياء، من أشدِّ المعجبين بتناول وجبات الطعام التي تُقدَّم على متون الطائرات؛ فعادةً ما يقدمون لك طعامًا لذيذًا شهيًّا. هذا ما لاحظتُه في الطائرات الأجنبية. غير أنني سأحجِم عن الكلام عما تقدِّمه شركة مصر للطيران لزبائنها الركاب؛ فإنها — حسب خبرتي فيما مضى — لا تقدِّم لهم طعامًا يُشبع جوعهم أو يُدخل البهجة على نفوسهم … لا أدري تعليلًا لذلك، ولكن مصر — بلدي الحبيب — دائمًا متقاعسة متخلِّفة، فيا أيها المسئولون، لماذا تسمحون بأن تطير عوراتنا معنا إلى خارج مصر فيراها من يجب ألَّا يراها، ويُحس بها من يجب ألا يُحس بها؟ أيها المسئولون، احرصوا على أن تجعلوا لمصر نافذةً واحدة نقيةَ الهواء ذكيةَ الأريج والرائحة، حتى ولو كانت رائحة الورد البلدي ولا أكثر.

فوجئتُ أن الطبق الرئيسي هو عجَّة البيض «أومليت»، فتضايقتُ جدًّا؛ لأن البيض مُحرَّم عليَّ بأمر الطبيب، وطلبتُ من المضيف أن يعوِّضني عن خسارتي في هذا الطبق الرئيسي، فاعتذر لي، في بادئ الأمر، قائلًا: «إننا نقدِّم لك وجبة إفطار. والبيض كما تعلم، شيءٌ رئيسي في وجبة الصباح.» ولكنه سرعان ما جذب الطبق من أمامي، وأمهَلني قليلًا، ثم ما لبث أن عاد ومعه طبقٌ آخر به قطعتان من الجبن الفرنسي المغلف بالورق الفضِّي، فشكرتُ له اهتمامه وحُسن اختياره؛ لأنني من هُواة «الجبن الفاخر»، ويا ليتَه اكتفى بهذا القدر فحسب، وإنما جاءني بعد قليلٍ بطبقٍ به ما يزيد على عشرين قطعة من هذا الجبن المغلف، وضَعه أمامي، وقال: «تفضل، يا سيدي. كلُّ هذا الجبن لك.» فأذهلَتني هذه المفاجأة، بل أذهلَني هذا الكرم الحاتمي الذي غمَرني به واحدٌ من شعب فرنسا، لا شك في أنه لم يسمع أو يعرف شيئًا عن حاتم الطائي. ومن يدري؟ فربما يكون قد قرأ عنه.

كان تصرُّف هذا المضيف حدثًا تشدَّقت به جارتي المصرية الجالسة عن يساري، وجاري الأرمني الذي عرَّفني بنفسه قائلًا: «أنا ترزي أرمني اسمي تارزيان من سكان الإسكندرية. أنا الآن في طريقي إلى لندن لزيارة ابني المقيم هناك منذ خمسة أعوام. ذهب إليها ليدرس علم الحساب الآلي (كومبيوتر)، فأتمَّ دراسته ونجح وحصل على شهادةٍ علمية ساعدَته على أن يمارس العمل، أولًا كمساعد لغيره، ثم سرعان ما استقلَّ وراح يعمل الآن لحسابه الخاص. وابنتي موجودةٌ معه الآن إذ سافرَت لزيارته منذ ثلاثة أشهر. وأنا الآن ذاهبٌ لزيارته أيضًا تاركًا باقي أفراد أسرتي بالإسكندرية. أما عن نفسي فقد تركتُ تركيا وأنا شابٌّ يافع، وهاجرتُ إلى لبنان. ومن لبنان جئتُ إلى مصر، وكانت سنِّي وقتذاك لا تتعدى الثامنة عشرة؛ لذا أعتبر نفسي مصريًّا إسكندرانيًّا.»

راحت جارتي المصرية، السيدة أديل عياد، تُصغي معي باهتمام إلى قصة جاري الأرمني. ولم تتردَّد في أن تُخبرني عن اسمها واسم ابنها الطبيب الأخصائي في أمراض القلب. قالت إن الدكتور سمير عياد حصل على دبلوماتٍ عالية من الخارج. ولولا أن أوراقه تعطَّلَت لصاحَبَني في هذه الرحلة. ثم أخرجَت من حقيبة يدها شريطًا ورقيًّا طويلًا يصوِّر ضربات القلب، كما مدَّت يدها نحوي بخطاب باللغة الإنجليزية، كتبه ولدُها الدكتور سمير كي يعرف بها أي طبيب في الخارج وبالحالة المرضية التي تُعاني منها والدتُه وأسماء العقاقير الطبية التي تتعاطاها.

مضت السيدة أديل تتكلم، قالت، إنها في السابعة والستين من عمرها. وإن سر نجاح أولادها في الطب وفي الهندسة يرجع إلى عطفها على أخيها الذي احتضنَتْه دون سائر إخوتها السبعة ودَعَته إلى أن يعيش معها؛ إذ كان يعاني من تخلُّفٍ عقلي يتطلب عنايةً خاصة وصبرًا طويلًا وجلدًا شديدًا وطولَ أناة ما كان ليقدرَ عليها أحدٌ آخر من إخوتها أو أخواتها. ولكنها أحسَّت بمحبةٍ فطرية وعطفٍ شديد على ذلك الأخ المتخلف عقليًّا، واعتَبَرت وجوده معها بركةً لها ولأولادها. أما وقد مات ذلك الأخ العزيز، فقد أصبح في مقدورها أن تُسافر دون أن تحمل همًّا. فلما علم ابنها الموجود بمدينة أدمنتون عاصمة ولاية ألبرتا بشمال كندا بخبر وفاة خاله، ألحَّ عليها في أن تزوره. ثم أخرجَت من حقيبة يدها خطابًا عليه عنوان باللغة الإنجليزية، وقالت: «هذا خطاب من زوجة ابني إلى أخيها الذي سبق أن فشل في كلية الطب بعد أن رسب مرةً في السنة الإعدادية ومرتَين في السنة الأولى، فاضطُر إلى الهجرة إلى كندا حيث درس الهندسة وحصل على شهادةٍ علمية وتزوج واقتنى سيارة. وبعد أن كان فاشلًا بلا مستقبل في مصر، غدا الآن ناجحًا موفقًا وثريًّا في كندا.» ثم استطردت تقول: «والمطلوب مني الآن هو أن أُسلِّم إليه هذا الخطاب؛ إما باليد عندما أصل إلى كندا، أو أُرسله إليه بالبريد.»

تقترب مني الآن عربة يَدٍ يدفعها اثنان، واحدٌ من كل طرف. إنهما يبيعان للركاب السجاير والسيجار والمشروبات الروحية بنفس أسعار السوق الحرة، فاشتريت خرطوشة سجاير إذ يُسعدني جدًّا أن أوزِّعها على موظفي الفندق ونُدل المطعم الذي من عادتي أن أتناول فيه طعامي. كما أن هناك خدماتٍ أخرى يُقدِّمها لك الناس في كل مكانٍ تذهب إليه، فتُعبِّر لهم علبة السجاير هذه عن شكرك، كما أنهم يقبَلونها منك وهم سعداءُ مسرورون.

تقدَّم مني فجأة الطالب الذي قدَّم نفسه إليَّ في أوتوبيس المطار، جاء يقول: «أشعر بألمٍ مُمِض في كُلْيَتي ... ساعدني أرجوك. اشرح حالتي للمضيفة عسى أن تساعدني ...

أريد كُرسيًّا منبسطًا كالفراش أستطيع أن أتمدَّد فوقه.» فاعتذر المضيفون إذ لا يعرفون شيئًا عن آلام الكُلْيَة، كما أن جميع مقاعد الطائرة مشغولة فلا يمكن تحقيق طلب المريض، ولكنَّ المضيف الفرنسي الكريم ذا الكرم الحاتمي، لم يلبث أن توجَّه إلى كُرسي المريض ودفَعه إلى الوراء قَدْر المستطاع، معتذرًا عن عدم إمكانه القيام بما هو أكثر من ذلك، فشكرتُ له تعاطفه وروحه السمحة وحُسن استعداده لخدمة ركاب الطائرة حتى ولو كانت في غير دائرة اختصاصه.

من الجميل أن من حق الركاب جميعًا أن يشربوا بالمجان ما طاب لهم من مياهٍ معدنية أو كوكاكولا، وهذه مِيزة لم أجدها في طائرات أية شركةٍ أخرى سواء أكانت مصرية أو أجنبية. غير أن صديقي الأستاذ ميخائيل شنودة وهو من هواة الرحلات إلى البلاد الأجنبية، مثلي، أخبرني ذات مرة بأنه سافر إلى المجر والنمسا بطائرات شركة ماليف Malev المجرية، فكانوا يقدِّمون لهم الشاي والقهوة والنبيذ وعصير الفاكهة والمياه المعدنية والكوكاكولا وغير ذلك، طوال الوقت، بالمجَّان أيضًا. كما أيَّد كلامي عن طائرات شركة إير فرانس؛ إذ لاحظ هذا عندما سافر إلى باريس بطائرة لتلك الشركة، وزاد على كلامي بأن مضيفي تلك الطائرة قدَّموا لهم أقراصًا كبيرة من الشيكولاتة قُطر كلٍّ منها اثنا عشر سنتيمترًا تقريبًا، وكان المضيف يدير وجهه بعيدًا عنك وهو يقدِّم لك هذه الأقراص عسى أن تأخذ أكثر من قُرصٍ واحد دون أن تستحي منه فلا تأخذ غير قُرصٍ واحد.

أرى بعض الركاب الآن نيامًا، يغُطون في النوم اللذيذ ملء جفونهم، رغم أن محركات الطائرة تُحدث أزيزًا عاليًا لا يمكن إغفاله. وحتى السيدة أديل نائمة الآن أيضًا. وإلى جوار جاري الأرمني تنام عائلةٌ بأكملها نومًا عميقًا جدًّا ملتحفين، وهم ثلاثة، البطاطين التي زوَّدَتهم بها الطائرة.

يا لها من ظاهرةٍ غريبة كل الغرابة! طاقم الطائرة بأكمله يعمل دائبًا بلا كللٍ أو تكاسل، بلا توقف، كلهم وقوف في حركةٍ لازبة دائمة، والابتسامة لا تفارق وجوههم، ذكورًا وإناثًا. يبدو أن العمل بالنسبة لهم متعةٌ بالغة يؤدُّونه بنفسٍ راضية تمام الرضى واستعداد واضح بيِّن، دون تأففٍ أو تذمر أو تبرُّم، لا المضيفات متهاونات، ولا المضيفون متواكلون، الكل هنا يعمل سواسية بلا تفرقةٍ عنصرية أو غير عنصرية، الكل راضٍ تمامًا عمَّا يعمل، لا غضاضة ولا تواكل ولا تخاذل. حقًّا ما أحلى القروش التي تتقاضاها تلك الفئة التي تعمل على ظهور الطائرات المحلِّقات بين الأرض والسماء!

أسمع قائد الطائرة يتكلم، يعلن اقتراب الطائرة لأن تهبط عند مدينة نيس أو كورت دازور بساحل فرنسا الجنوبي. إنه يطلب منا مرةً أخرى أن نربط الأحزمة حول خواصرنا، وملازمة مقاعدنا، والامتناع تمامًا عن التدخين. الصمت يُخيِّم داخل الطائرة، والكل الآن في سكونٍ مطبق. حقًّا، ما أصعب هذه اللحظة، لحظة هبوط تلك الطائرة العملاقة بكل ما فيها ومَن فيها وهي تزن مئات الأطنان، ومع ذلك تهبط كالعصفور الصغير في سهولةٍ ويُسر بفضل براعة قائدها ودقة أجهزتها المؤسسة على النظريات العلمية الرائعة! فسبحان من علَّم الإنسان ما لم يعلم! لا تَقِل لحظة الهبوط هذه صعوبةً عن لحظة الصعود. قلوبنا الآن متعلقةٌ بالله أكثر منها في أي لحظةٍ أخرى. والله المُسلِّم أولًا وأخيرًا.

وأخيرًا، هبطَت الطائرة بسلام فشكرًا لله. كان على المسافرين إلى باريس أن يبقَوا في أماكنهم بالطائرة، وعلى القاصدين نيس أن يغادروها.

نزل من الطائرة عددٌ كبير من الركاب، وكنتُ أنا واحدًا منهم. وأبرزتُ جواز سفري وانتهت هذه الخطوة الأولى الهامة، ودخلتُ صالة استلام الحقائب فلم أجد صعوبةً في العثور على حقائبي الثلاث الكبيرة، ولكن كان عليَّ أن أحجز لنفسي حُجرة في فندق، كما كان عليَّ أن استبدل الدولارات الأمريكية التي معي بفرنكاتٍ فرنسية؛ لذلك ناديتُ حمَّالًا فرنسيًّا كان يدفع أمامه عربة لحمل الأمتعة وطلبتُ منه أن يساعدني في نقل حقائبي الثلاث بشرط أن ينتظرني حتى أحجز الحجرة وأستبدل العملة، ولكنه رفض الانتظار، وأشار عليَّ بأن أتركها بجوار حائطٍ زجاجي قريب ثم أعود بعد قضاء تلك المهام، وفعلًا عملتُ بمشورة ذلك الرجل، ولم أكن أتصوَّر هول ما يُخبِّئه لي القدَر، وما ينتظرني من حزن وقلق بعد لحظات.

الباب الثاني

تجربة قاسية في مطار نيس

عُدت لآخذ حقائبي الثلاث، فكانت الطامَّة الكبرى والمصيبة العظمى عندما لم أجد حقيبةً واحدة منها حيث تركتُها بجوار ذلك الحائط الزجاجي الذي أرشدَني إليه الحمَّال الفرنسي. هنا طار صوابي وجُنَّ جنوني وتصبَّب العرق غزيرًا من وجهي، وأخذتُ أجري هنا وهناك كالمأفون. ماذا أعمل الآن؟ ولكنني ما إن أبصرتُ ذلك الحمَّال الذي أشار عليَّ بتلك المشورة السيئة، بل والنجسة، حتى أسرعتُ نحوه أسأله عن حقائبي، وكان قد رآها ورآني وأنا أضعها بجوار الحاجز الزجاجي. وكم كانت دهشتي عندما زمجر وكشَّر عن أنيابه وأنكر في إصرار أنه رآني. فرُحتُ أعوي صارخًا في وجهه متهمًا إيَّاه بأنه الوحيد الذي يعرف كل شيء عن حقائبي، وأنه يعرف أين ذهبَت واختفت، فراح ذلك الحمَّال يرطُن بالفرنسية مُدافعًا عن نفسه بما يُفهَم منه أنه لا يعلم شيئًا عني ولا يفهم شيئًا مما أقول. لا بد أنه مرَّ بعشرات من هذه المواقف ويعرف جيدًا كيف يتخلَّص منها كما تُسلُّ الشعرة من العجين. كان من الصعب عليَّ أن أحتمل هذا الموقف. أنا الآن مجردٌ من كل شيء، وبلا شيء في الدنيا، لا أملك حتى مُوسَى الحلاقة. لقد ضاع كل شيء؛ ملابسي الداخلية، والخارجية، وغيرها.

هدَّدتُ بإبلاغ الشرطة، فردَّ الرجل بما معناه: «طظ في الشرطة.» فاتجهتُ إلى مكتب الشركة حيث راح أحد الموظفين يدوِّن بيانات عن الموضوع. سألَني هل رأيت الحقائب وحملتها من فوق السير، قلتُ نعم. وعندئذٍ فهمتُ من كلامهم أن المسئولية قد انتفت عن الشركة، ولم تعُد مسئولةً عن ضياع الحقائب طالما قد وصلَت بسلام وتسلَّمتُها من فوق السير. بيد أنني أصررتُ على أنني كنتُ ضحية إرشاد الحمَّال، وأنه هو الذي ضللني عامدًا مُتعمدًا كي يُخفي الحقائب بطريقته الخاصة. كانت الفجيعة أكبر من أن تُحتمل.

لقد فقدتُ كل شيء في الساعات الأولى من رحلتي. معنى هذا أنه لا بد لي من العودة فورًا إلى مصر. وكأنني خرجتُ من بيتي الآمن في فجر يوم السبت، الموافق ٩ من يوليو سنة ١٩٧٧م، كي أعود إليه في مساء نفس ذلك اليوم، وقد جُرِّدتُ من ملابسَ كثيرة جديدة وغالية وهدايا عديدة وأشياءَ أخرى لا أول لها ولا آخر، اشتريتُها خصيصًا للرحلة كي أنعم بها على مدى ستة أسابيع متنقلًا بين فرنسا وإسبانيا وبلاد اليونان.

حقًّا ما أتعسَني في ذلك الوقت وأنا جالسٌ مبلبل الفكر، مُشتَّت الخاطر، محزون الفؤاد، فوق أريكة بمطار نيس بفرنسا، أنظر إلى الحركة الدائبة التي لا تكُف داخل المطار، وأحسُد كل إنسانٍ وجد حقائبه وخرج بها من المطار ليذهب إلى حيث وجهته خالي البال والذهن! كنتُ أجلس حيث جلستُ نهبًا للهواجس الكثيرة تفترسُني. ماذا لو أن حقائبي لن تعود وهذا هو الأرجح، ومن سوف يعوِّضني عن كل ما بداخلها؟ وكيف أستطيع تعويض المفقود والمفقود لا يعود، وإن عاد فكيف يعود في جودته وارتفاع ثمنه؟ وكيف لي أن أتذكَّر عناوين جميع أصدقائي في شتَّى أنحاء العالم، وعناوينُهم كلها مُدوَّنة في مفكرتَين كبيرتَين موجودتَين داخل إحدى الحقائب؟ ماذا سيكون شعور أولئك الأصدقاء عندما تنقطع رسائلي عنهم فجأةً وإلى الأبد؟ فلو ظنوا أنني متُّ فلا ضير ولا عتاب عليهم والموت أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. ولكن كيف أكون في عِداد الأحياء ولا أُراسلهم؟ والمراسلة إحدى هواياتي، أحبها وأجد فيها لذةً ما بعدها لذة، وأمارسها على نطاقٍ واسع منذ سنواتٍ عديدة. يا لها من خسارة فادحة! فقدان الأصدقاء الأعزاء الذين كوَّنتُهم وتآلفتُ معهم وخرجتُ بهم من جميع رحلاتي وزياراتي للعالم الخارجي. إنهم مجموعةٌ من الناس لا يُعوَّضون بحالٍ ولا يُشتَرون بمال. قومٌ قلوبهم من ذهب نضار، جُبلوا على فعل الخير ومد يد العون لو أحسُّوا بحاجتي إلى دواء أو غيره؛ فكم من مرة ساعدوني بطريقةٍ ما أو بأخرى لوجه الله تعالى لا يريدون منِّي جزاءً ولا شكورًا، بل من باب المحبة والوفاء والصداقة. إنهم أصدقاءُ بكل ما لهذه الكلمة من معانٍ، يهمُّهم أمري وتعنيهم حياتي وشئوني وسعادتي وصحتي، ويهتمون بها اهتمامًا بالغًا، كما لو أنني كنتُ أخًا لهم، أو ابنًا من أبنائهم. وداعًا، أيها الأصدقاء الأحبَّاء، والخلَّان الأوفياء. لقد مات صديقكم المصري لأنكم لن تسمعوا عنه أو منه، بعد اليوم وإلى الأبد.

أدخلوني مكتب الشركة، أو الأصح أنا الذي اقتحمتُه مُعلِنًا فجيعتي بضياع حقائبي الثلاث، بكل ما فيها، فحاول رجلٌ يرتدي الملابس المدنية أن يُهدِّئ من رَوْعي، وبدأ يسألني عن الموضوع، وراح يُقلِّب في جواز سفري وتذكرتي. ولما تأكد من سلامة كل

شيء، شرع يُدوِّن على ورقةٍ رسمية إجابتي على أسئلته. سألني عن بعض محتويات الحقائب، وهل بداخلها أي شيءٍ مميز، ثم عن حجم الحقائب وألوانها وأشكالها، ثم أعطاني كعب المحضر الرسمي الذي كتَبه وفي ذلك الكعب اسمه ورقم تليفونه، ثم طلب مني أن أتوجَّه إلى فندقي ومن هناك أستطيع السؤال عن الحقائب بالتليفون. ولَّما سألته عما إذا كان هناك أملٌ في العثور على الحقائب المفقودة قال: أغلب الظن أنها حُملَت خطأً ضمن حقائب مجموعات السُّياح، لا سيما وأنه كان على نفس الطائرة التي أقلَّتني مجموعتان من السائحين المصريين حضروا لتمضية أسبوع في مدينة نيس. ثم طلب منِّي مرةً أخرى أن أذهب إلى الفندق وأستريح هناك، كما طلب مني ألا أشغل بالي أو أقلق، فخرجتُ من عند هذا الرجل وأنا أقول لنفسي، كيف لا أقلق، بل وكيف يطالبني بأن أهدأ بالًا. ماذا عساي أفعل إذا لم يعثروا على الحقائب؟ فكلما ومضَت هذه الفكرة في بالي ومرَّت بخاطري شعرت بأنني أكاد أفقد عقلي تمامًا. لقد «باظت» رحلتي بعد ساعاتٍ قلائل من قيامي بها. وكان المفروض أن أنعم بها على مدى شهرَيْن تقريبًا، ليس في فرنسا فحسب، بل وفي كلٍّ من إسبانيا واليونان؛ حيث كان من عادتي، في كل عام، أن أقضي شهرًا كاملًا متنقلًا في ربوع اليونان الجميل.

خرجتُ من عند ذلك الرجل على أن أتوجَّه إلى الفندق الذي سأبيت فيه ليلتي، وهناك أنتظر منه مكالمةً تليفونية عن حقائبي، ولكن قلبي لم يطاوعني أن أترك المطار وتحقق فيَّ قول الشاعر المرحوم محمود غنيم:

قالوا خلت يدُه من كل ما ملكَت فقلتُ بل رأسُه من عقله خالي

جلستُ فوق أقرب أريكة داخل صالة التخليص، فحاول بعض المُخلِّصين بصالة الجمرك إقناعي بأن الأمانة متوفرة في هذه المنطقة، وأن حقائبي لا بد نُقلَت خطأً مع حقائب فريق من الزائرين السائحين وضعوا حقائبهم بقرب حقائبي، فنقلها الحمَّالون إلى الأوتوبيس الذي سيُقِلهم إلى فندقهم ظنًّا منهم أنها ضمن حقائب الفريق، وماذا يهمهم وهم يتقاضون الأجر بالحقيبة، فكلما كان عدد الحقائب أكبر كان أجرهم أكبر، كما أخبرني هؤلاء الرجال بأن المكتب سيعثر عليها حتمًا، الليلة أو غدًا على الأكثر، فشكرتُهم وحاولتُ أن أستمر في عنادي بالبقاء في المطار داخل صالة الجمارك. تملكَتْني فكرة أن وجودي إلى جوارهم وعلى مرمى أبصارهم سوف يُضاعف من اهتمامهم، ولن يهيئ لمشكلتي فرصة أن تغيب عن بالهم، ولكن الإعياء الشديد كان قد بدأ يدبُّ في

أوصالي ورأسي وينال مني كل منال، فنظرتُ إلى الساعة وحسبتُ الزمن، فوجدتُ أنه مضى عليَّ الآن اثنتا عشرة ساعة بالتمام لم أذُق فيها طعم النوم ولم أسترح من وعثاء السفر ومشاقه، بل وما زاد الطين بِلةً هو الإجهاد الذهني وبلبلة الفكر بسبب ضياع حقائبي الذي هزَّ كياني بعنف وحطَّم أعصابي. كنتُ قد صحوتُ كما ذكرتُ من قبلُ، في الساعة الرابعة صباحًا، وها هي الساعة الآن تُشير إلى أن الوقت هو الرابعة أيضًا.

شعَرتُ بأنني سأفقد توازني من شدة الإرهاق والإعياء، وأخذ رأسي يثقل شيئًا فشيئًا حتى كاد يسقط ويرتمي فوق صدري. عندئذٍ فقط، رأيتُ من الأنسب لي أن أنصرف من هذا المكان اللعين إلى الفندق لأُلقي برأسي وجسدي فوق الفِراش.

وفعلًا وبدون أدنى تردد أو تفكير وجدتُ نفسي خارج المطار أنادي تاكسيًا، فأخذني سائقٌ شاب إلى الفندق الذي اتفقَت معه موظفة المطار. ولم تمضِ دقائقُ معدودات حتى وقف التاكسي أمام الفندق، فطلب مني السائق أربعين فرنكًا؛ أي ما يعادل ستة جنيهات مصرية ونصف الجنيه، في مسافة لا يطلب فيها التاكسي المصري أكثر من عشرين قرشًا، فدفعتُ له المبلغ دون نقاش مع التعبير له عن شكري الكثير.

استقبلَتني فتاة الفندق قائلة: «أنت السيد سلامة الذي طلب من المطار أن تُحجز له حجرة؟» قُلت: نعم. وقدَّمتُ لها الإيصال الذي أخذتُه من موظفة المطار، والذي تقاضت مني عنه خمسة فرنكات نظير الاتصال التليفوني من المطار إلى الفندق الموجود بنفس المدينة. وقد أفهمَتني هذه الموظفة بأنها حجزَت لي حجرة أجرها عشرة دولارات في الليلة. غير أن فتاة الفندق أفهمَتني أن الحجرة مقابل ثلاثة عشر دولارًا ونصف الدولار. وهذا الفرق كبير لا يُستهان به. ولَّما كنتُ أريد فراشًا أرتمي فوقه بأي ثمَن، قبلتُ السعر الجديد مُكرهًا مرغمًا.

سألَتْني موظفة الفندق عن حقائبي فقلتُ لها في حسرة لا نظير لها: ليس معي حقائب لأنها ضاعت كلها في المطار، ضاعت في الفترة التي كنتُ فيها بعيدًا مشغولًا بالاتصال التليفوني بالفندق لحجز هذه الحجرة اللعينة. فتألَمت الفتاة وشغلَتها محنتي وطلبَت مني أن أشرح لها ما حدث بالتفصيل، فحكيتُ لها ما حدث بالضبط. فابتسمَت الفتاة بعد أن استمعَت بإمعان إلى قصتي، وقالت: لا تخف يا سيدي لا يستطيع شخصٌ واحد، مهما تبلغ مهارته، أن يسرق ثلاث حقائب مرةً واحدة من صالة الجمرك. ولو كان السارق لصًّا لسرق حقيبةً واحدة وأفلت بها من رجال الجمارك. أما أن يسرق ثلاث حقائبَ كبيرة كالتي تصف حجمها لي، فهذا أمرٌ غير معقول هنا في فرنسا. أغلب

الظن أنها حُملَت خطأً مع حقائبَ أخرى لأُناسٍ آخرين. وعلى العموم، هل تريدني أن أتَّصل تليفونيًّا بالرقم المُعطى لك وبالرجل المذكور اسمه على قصاصة الورق التي معك، والذي أخذ أقوالك، والمفروض أن عليه البحث عن الحقائب المفقودة؟ قُلت: أكون شاكرًا. فاتصلَت به فعلًا وجاءها الرد يقول: لم يعرف شيءٌ بعدُ عن مصير هذه الحقائب، ويجب على صاحبها أن يتذرع بالصبر. فصَعِدتُ إلى حجرتي رقم ٣٥ بالدور الثالث من الفندق المُشيَّد حديثًا. فتحَت لي فتاةُ الفندق باب الغرفة، فوجدتُها فسيحةً نظيفة ومريحة. كل شيء فيها ينمُّ عن الذوق الرفيع مع البساطة المحببة إلى النفس. خلعتُ ملابسي الخارجية، وارتميتُ على الفراش بعد أن ابتلعتُ قرصًا من «الأوبتاليدون» المعالج للصداع دون إزعاج للجهاز الهضمي، ولكن النوم أبى أن يُداعب أجفاني. وبالعكس ما إن استراح بدني فوق الفِراش الوثير حتى انتابَتْني شتى صنوف الهواجس وشَرعتُ أُفكر في غيظٍ شديدٍ في الوضع السخيف المؤسف الذي غرقتُ فيه إلى أُذني، وفي الظروف القاسية التي سأمُر بها خلال الساعات القليلة المقبلة. وكان الواقع الذي ألمسه وأعرف أنني واقعٌ فيه الآن وسيُلزمني بالعودة إلى القاهرة بعد ساعاتٍ من مغادرتي إيَّاها، يكاد يعصر قلبي ويحطم كياني. بدأ عقلي المسكين يجرد محتويات حقائبي الثلاث، حقيبةً حقيبة، فأكاد أُجَن. ملابسي الجديدة التي لم أضعها على جسمي، راحت كلها وكأنني نقلتُها على نفقتي الخاصة بالطائرة كي يتمتع بها فرنسيٌّ غريب أو على الأصح لصٌّ وضيع مجرم من أرباب السوابق ونزلاء السجون.

بعد ساعةٍ واحدة ليس غير كنتُ أرتدي ملابسي مرةً أخرى؛ قميصي وبنطلوني وهما كل ما أملك من حطام هذه الدنيا النائية عن وطني وبيت. لم أُطِق البقاء بالحجرة أكثر من ذلك. توجَّهتُ من جديد إلى موظفة الفندق وطلبتُ منها في إلحاح أن تتصل بالمطار تليفونيًّا مرةً ثانية. غير أنها، في هذه المرة، تركَتْني أخاطب المسيو فلوريتو بنفسي، فقال، وهو الرجل الذي أخذ أقوالي وكتب محضرًا بالحادث: «لقد تمكنتُ من الاتصال بالمُشرف على أحد الفريقَين الزائرَين، فأخبرني بعدم وجود حقائب غير حقائب أفراد الفريق. بقي الاتصال بالفريق الآخر، وإنني لأجد صعوبةً في الاتصال بهذا الفريق؛ لأن الموظف المسئول غير موجود في مكتبه، كما أنني أجهل اسم الفندق الذي ذهب إليه بالفريق. الأفضل ألا تتصل بي، ودعني أنا أتصل بك بمجرد وقوفي على خبر يهمك.» فكان لا بد لي، وأنا لا حول لي ولا قوة، وكالغريق أتلهَّف إلى عُودٍ من القش، كان لا بد لي من أن أشكر ذلك الرجل.

تركتُ الفندق، لأسير أول مرة في شوارع نيس، وقد أخذ الجوع يقضم أحشائي، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلني أرغب في الاستمتاع بما آكل وأتلذذ به. كنتُ أريد فقط تناول أي شيءٍ يسُد جوعي ويُمسِك عليَّ الرمق، دون شهية؛ فالشهية انعدمَت من جرَّاء ذلك الحادث … مررتُ بكافيتيريا كبيرة مُلاصقة لباب فندقي «أفينيدا»، وهذا الاسم إسباني معناه «شارع»، فجلستُ على أحد المقاعد، وكان إلى جواري رجلٌ أمريكي تجاذبتُ معه أطراف الحديث ورويتُ له مأساتي، فقال: «من الصعب أن أُدلي إليك برأيٍ صائبٍ في هذه المشكلة الغريبة، ولكن لا شك في أن أمرك مُحيِّرٌ ومؤسفٌ معًا. والأفضل أن تتفاءل فلعل حقائبك قد نُقلَت خطأً مع حقائبَ أخرى.» ثم اعتذر قائلًا: «لا بد لي من أن أنصرف؛ فأنا من سكان مونت كارلو ويجب أن ألحق بالقطار.» فشكرتُ هذا الرجل الذي استطاع بكلماته البريئة هذه أن يُوحي إليَّ بزيارة مونت كارلو هذه ولو لبضع ساعاتٍ قبل سفري عائدًا إلى القاهرة.

تناولتُ قائمة المشروبات فوجدت أن كوب النبيذ أرخص بكثير من قدَح الشاي أو القهوة، فطلبتُ كأسًا من النبيذ. إلا أن النادلة تركَتْني مدةً طويلة دون أن تُلبِّي طلبي، فاستدعيتُها مرةً أخرى وأعدتُ عليها طلبي، فخجلَت من نفسها واحمرَّ وجهها أسفًا، ولكن انتظاري طال من جديد. ولما استدعيتُها للمرة الثالثة كان خجلها أشد وأَمَر، فانطلقَت من فَورها وجاءتني بالطلب بعد ثوانٍ.

انصرفتُ من هذه الكافيتيريا أبحث عن مطعمٍ معقول، وطال سيري دون أن أعثر على أي مطعم. كانت هناك كازينوهات تُقدِّم مشروباتٍ خفيفة أو روحية والفطائر، ولكنها لا تقدم وجبات من اللحم والأرز مثلًا، فعُدتُ مرةً أخرى إلى الفندق أطلب المشورة، فوجدتُ شابًّا يجلس في مكان الفتاة الصباحية، فسألتُه عما إذا كان الفندق قد تلقَّى إشارةً تليفونية من المطار، فقال: «أنت الرجل الذي فقد حقائبه؟» قلت: نعم، أنا هو. قال: «آسف، يا سيدي، لم يتصل بي أحد من المطار.» ثم استطرد يقول: «أنا شخصيًّا، لا أعتقد أن هناك أملًا في العثور على هذه الحقائب. أعتقد واثقًا أنها ضاعت ولن تعود. لا شك في أنها مشكلةٌ كبيرة بالنسبة لك.» فحطمَت كلمات هذا الشاب البقية الباقية من معنوياتي، فسألته قائلًا: «إنني أحاول العثور على مطعم قريب، غير أنني لا أجد واحدًا بالمرة، فهل يمكنك أن تدُلني على مطعم يمكنني أن أتناول فيه قطعة من اللحم المشوي؟» قال: «اترك أول شارع على يسارك، وادخل الشارع الثاني تجد كثيرًا من المطاعم الصغيرة الجيدة.» وفعلًا وجدتُ الكثير منها لدرجة أنني حِرتُ في اختيار

أحسنها. الأسعار مرتفعة جدًّا جدًّا؛ فقد تعجب إن قلتُ لك إن شطيرة الخس في فرنسا قد تُكلفك ما لا يقل عن ثلاثة أو أربعة دولارات. وكذلك الحال مع شطيرة الطماطم، وهذه من أرخص الأطعمة التي تُقدمها المطاعم والكازينوهات، أحيانًا.

جلستُ إلى مائدةٍ صغيرة بأحد المطاعم، فجاءتني سيدةٌ في حوالي الخمسين من عمرها وسألَتني عما أريد أن آكل فقلتُ لها: أريد قطعة من اللحم المشوي ولا أكثر منها. فجاءتني بقطعة من اللحم في نصف حجم الكف ورقيقة جدًّا كالورقة. ولَمَّا حاولتُ أن آكلها اكتشفتُ أن اللحم لا يؤكل لأنه يمتُّ بصلة القرابة إلى جلد الأحذية، وقرابة من الدرجة الأولى. لم آكل شيئًا، هذا هو الواقع. ولَمَّا شكوت لها من رداءة اللحم، قالت بجرأة ووقاحة: «كيف تقول هذا، ولحمنا من أجود اللحوم؟» كلفَتني قطعة اللحم هذه اثنَين وعشرين فرنكًا؛ أي ما يعادل ثلاثة جنيهات مصرية ونصف الجنيه. أسعار رهيبة رغم أن اللحم كان بلا ملحقات ولا خُضر ولا حتى شرائح البطاطس المعروفة. كل ما كان معه لا يعدو قطعة من الخبز اللدن.

شاء الحظ أن يجلس إلى جواري ملاصقًا لي كهلٌ هندي سمح الوجه مع زوجته التي علمتُ فيما بعدُ أنها سويسرية الأصل، وكان معهما طفلهما اللطيف وهو في الخامسة من عمره. أخذنا نتحدث سويًّا، فحكيتُ له قصتي وأخبرتُه بمشكلتي، فقال: «زوجتي مضيفةٌ جوية وتعرف كل شيء عن هذه الأمور.» فراحت الزوجة تُحلِّل وتُعلل وتُبدي دهشتها من ذلك الأمر الشاذ، ورجَّحَت أن تكون الحقائب قد نُقلَت خطأ مع حقائبَ أخرى، ولا يمكن أن يَعدُوَ الأمر حدودًا أبعد من ذلك. وفجأةً تكلم ابنها الذي كان يُنصِت إلى الحديث الذي دار بيننا، بالإنجليزية طبعًا، وقال: «سأُصَلِّي الآن إلى الله، وأطلب منه أن يأتيك بالحقائب.» وفعلًا ضمَّ يديه ووضعها فوق صدره وراح يُصلِّي، فأحسستُ أن صلاته كانت صادقةً بريئة في ثقةٍ وإيمان، فتقبلتُها منه شاكرًا وانصرفتُ كما انصرفوا هم بعد أن تمنُّوا لي كل الخير.

قطعتُ الطريق عائدًا إلى الفندق، وفجأةً عثرتُ على مكتب سياحة مجاور لفندقي يُنظِّم الرحلات السياحية الداخلية بما في ذلك رؤية معالم المدينة وأشهر آثارها، فحزنتُ في نفسي إذ أحسستُ أنه كان من الممكن أن يسير كل شيء في سهولةٍ ويسر لو أن كل شيء كان على ما يرام؛ فمكتب الرحلات هذا قريبٌ جدًّا من فندقي، وبذا يمكنني القيام كل يوم برحلةٍ مختلفة أُشاهد فيها أشهر معالم البلد وما يُحيط به من ضواحٍ ومدنٍ شهيرة، ومن ذا الذي لا يعلم ولم يسمع عن بلدة موناكو ومونت كارلو ومدينة السينما «كان»؟

سألتُ الرجل عن مواعيد الرحلات، ثم أبديتُ له أسفي عن عدم إمكاني الاشتراك في أيٍّ من هذه الرحلات لأنني قد أُضطَر إلى مغادرة نيس غدًا على الأكثر نظرًا لضياع حقائبي، فارتسمَت الدهشة على وجه الرجل وسألني: كيف ضاعت؟ فشرحتُ له الموضوع كله فقال على الفور: «وهل عندك أملٌ في استرجاع حقائبك؟ إنها سُرقت يا سيدي ويجب أن تعود إلى بلدك على الفور.» ملأني هذا الرجل يأسًا قاتلًا، وبدَّد من قلبي كل أملٍ كنتُ أتعلق به، فرُحت أقول لنفسي: لا بد أن هذا الرجل يصدُقني القول. إنه أدرى ببلده وبما يمكن أن يحدُث للغريب القادم إليها. فتركتُه وعُدت إلى الفندق مُحطمًا تمامًا. فوجئتُ بوجود شابٍّ آخر يقوم بالعمل في الفندق بدلًا من السابق، فسألتُه عمَّا إذا كان قد تلقَّى مكالمة تليفونية من المطار، قال: «أأنت السيد الذي فقد حقائبه بالمطار؟» قلت: نعم، أنا هو. قال: لم يتصل بي أحدٌ بخصوصك. قُلت: إذن، فهل تتفضل بالاتصال بالمطار للسؤال؟ قال: لن تجد أحدًا بالمطار الآن. الأفضل أن تنتظر إلى الصباح. فسألتُه: هل تعتقد أن هناك أملًا في العثور على الحقائب؟ قال: لا أظن يا سيدي. إنني أرثي لحالك العاثر، ومع ذلك فليس أمامك إلا أن تنتظر إلى الغد. في هذه اللحظة دخل الفندق عائلتان مصريتان. تبيَّنتُ ذلك من لون البشرة والعيون السود، وتأكَّد لي ذلك عندما سمعتُهم يتكلمون بالعربية. طلبتُ من الرجل المصري الشاب الفارع الطول والوسيم الطلعة أن يهبَني أُذنيه كي يسمع قصتي مع المطار، ويُبيِّن لي الخطأ الذي وقعتُ فيه، وهل من سبيل إلى علاجه. التفَّت العائلتان حولي، فحكَيتُ روايتي للمرة العشرين في ذلك اليوم الأسود بحق. وأخيرًا أدلى الأستاذ ماهر، الذي كنتُ أوجِّه الكلام إليه، برأيه قائلًا: «لا أرى خطأً في تصرفاتك، وعلى العموم فقد حدث لي مرة أن فقدت حقائبي وحقائب زوجتي، ومكثنا خمسة أيام ننتظر لعلهم يعثرون عليها. والفرق الوحيد بين قصتك وقصتنا هو أن حقائبنا لم تكن قد وصلَت معنا على نفس الطائرة، ولكنك تقول إنك رأيتَ حقائبك وأمسكتَها ووضعتَها بيدَيك فوق أرض صالة الجمرك؛ لهذا أنصحك بالصبر فقد تجدها غدًا أو بعد غدٍ على الأكثر.» ثم سألني عن مصر والأحوال في مصر، ولم يكن قد سمع بحادث خطف الدكتور محمد حسين الذهبي ومقتله المروِّع، فطلب منِّي أن أصعد معهم إلى حجرتهم كي أروي لهم تفاصيل ذلك الحادث، وكم كان سرور الجميع عظيمًا لما علموا بقرارات الرئيس السادات ضد تلك العصابة المجرمة الأثيمة! كما كان سرورهم أكثر عندما علموا أن رئيس العصابة الإرهابية قد قبضَت عليه المباحثُ المصرية مختبئًا في إحدى الشقق المفروشة. أخذ بعد ذلك الأستاذ ماهر يُعرِّفني بأفراد أسرته: هذه

زوجتي، وهذا ولدي ممدوح وهو طالبٌ بمدرسة الفرير بمصر الجديدة. وهذه ابنتي إيناس بالصف الأول الإعدادي. وهذا هو الأستاذ فؤاد شقيق حَرمي، وتلك زوجته. وهذه الرضيع ابنتُهما التي لم تبلُغ بعدُ الشهر التاسع من عمرها، أنا وفؤاد نعمل سويًّا في تجارة الأدوات الصحية ومحلاتنا بالفجالة. وقد جئنا إلى هنا للنزهة، ولكننا سنُسافر بعد يومَين إلى نابولي بإيطاليا كي نعقد صفقاتٍ تجارية تمشيًا مع سياسة الانفتاح التي تنتهجها مصر الآن.

تركت الأسرتَين وأنا معجبٌ بما تتحليان به من صراحةٍ وصدق ونقاء طوية. أعجبوني جميعًا؛ فقد شعَرتُ لأول مرة بقلبي ينفتح لهذه المجموعة من الناس.

عندما قاربَت الساعة الثانية عشرة ليلًا، رغبتُ في الانصراف فاستأذنتُ لأصعد إلى حجرتي. وقبل أن أنصرف قال لي الأستاذ ماهر: لا يهمك طالما معك الكعوب الثلاثة التي تحمل أرقام حقائبك. تجدها مثبتةً على صدر تذكرتك؛ فبواسطة هذه الكعوب تستطيع أن تُقاضي شركة إير فرانس في مصر، وتُطالبها بالتعويض الشامل عن كل شيء بداخل الحقائب. فهدَّأت هذه الفكرة الأخيرة من رَوْعي. غير أنني لم أكن واثقًا من بقاء هذه الكعوب بالتذكرة؛ إذ تذكَّرتُ أن الرجل الذي أخذ أقوالي صباح اليوم سألني عن التذكرة وأخذها منِّي، وسلَّمها لفتاةٍ تعمل معه في المكتب، ثم أعادها إليَّ بعد الانتهاء من أخذ أقوالي، فخشيتُ أن يكون ذلك الرجل قد خدعني بهذه الحركة، ونزع الكعوب الثلاثة التي هي مستندي القوي أمام القضاء؛ لذلك، بمجرد صعودي إلى حجرتي، أخرجتُ التذكرة من داخل حقيبة اليد الصغيرة التي كنتُ أمسِك بها. وكم كان عذابي أليمًا عندما ألفيتُ أن الكعوب نُزعَت ولا وجود لها بالمرة! وكان موضع نزعها واضحًا على صدر التذكرة بالثقوب التي كادت تُشوِّه منظر التذكرة وتمزِّقها. عندئذٍ تولَّدت عندي هواجسُ جديدة؛ فحتى هذا الرجل الذي يعمل لدى إير فرانس، والذي كنتُ أحسبه مُهتمًّا بمأساتي، حتى هذا الرجل سلبني حقِّي في التقاضي لأخذ التعويض اللازم، لو أنني، معاذ الله، لم أستردَّ حقائبي.

على أية حال، حاولت أن أنام الليل فلم أستطع إطلاقًا؛ إذ استعصى عليَّ النوم وأبى الاقتراب من أجفاني. كنتُ بحاجةٍ ماسةٍ إلى النوم كي أستطيع في الصباح أن أُجابه المعركتَين اللتَين تنتظرانني؛ معركة استرداد الحقائب، وهي معركةٌ غير مضمونة العواقب أو النتائج. ومعركة استرداد الكعوب التي انتزعَتْها الموظفة من على صدر تذكرتي ... وحتى هذه لم أكن على يقين من نجاحي فيها أيضًا.

ليس بمقدوري أن أصف لك العناء البالغ الذي عانيتُه طوال الليل وأنا أتقلب على «هراسٍ به يُعلى فراشي ويُقشبُ» تُراودني الأفكار السوداء والإحساس بأن ذلك الرجل قد غدَر بي كل هذا الغَدر، واستغلَّ بلبلة أفكاري فأوحى إلى موظفته بأن تنزع الكعوب، تُرى ماذا فعلتُ لأهل فرنسا حتى تمتد إليَّ أيديهم بهذا الأذى المُبرِّح؟!

حمدتُ الله أن انبلج الصباح ولاحت تباشير النور، فقمتُ من على فراشي مُكدود الجسد مُحطم الأعصاب مُعذب الفكر موجوع الرأس من آلام الصداع الرهيب، وليد الجوع وعدم النوم طوال يومٍ ونصف يومٍ بغير انقطاع.

في الساعة التاسعة حدث شيءٌ لم أكن لأتوقعه بالمرة. دقَّ جرس التليفون في حجرتي، فحسبتُها موظفة الفندق تسألني عمَّا إذا كنتُ أريد طعام الإفطار في ذلك الوقت. ولكنني فوجئتُ بفتاة تقول: «هنا إير فرانس، بالمطار. وجدنا حقائبك الثلاث وهي موجودةٌ بفندق بلازا. هل تريدنا أن نرسلها لك على نفقتنا، وفي هذه الحالة لن تصلك الحقائب قبل الساعة الحادية عشرة، أم تريدنا أن نرسلها لك فورًا وتدفع أنت أجر التاكسي؟» سمعتُ هذا الكلام وأنا لا أصدق أُذني. ولمَّا أيقنتُ أنني مستيقظٌ متيقِّظ ولستُ نائمًا، بكيتُ من شدة الفرح وقلتُ لها: «بل أرسليها في الحال على نفقتي الخاصة.»

حُملَت حقائبي خطأً مع حقائب فريقٍ مصري جاء لقضاء أسبوعَين في أوروبا. وبعد عشر دقائقَ أخطَرَتني موظفة الفندق بأن الحقائب موجودةٌ في البهو، فنزلتُ مسرعًا ونفحتُ السائق أجرته وبقشيشًا لا بأس به.

حملتُ حقائبي إلى حجرتي وأنا لا أكاد أصدِّق حدوث هذه المعجزة بهذا الشكل السريع. ولن أخفي عليك أنني ركعتُ أصلِّي لله شاكرًا ممتنًّا على هذا الفضل العظيم.

الباب الثالث

يوم باهر مع فؤاد وماهر

تناولتُ الإفطار البسيط الذي جاءتني به الموظفة المسئولة عن تنظيف حجرتي؛ شايًا وقطعة زبد صغيرة وملء ملعقتَي شاي من المربى وقطعة خبز، وهذا ما يسمُّونه في أوروبا «الإفطار القارِّي». أما البلد الأوروبي الوحيد الذي لا يعمل بهذا النظام السخيف فهو بريطانيا؛ فالإفطار البريطاني قد يُغنيك بجودته وكمياته الهائلة عن تناول وجبة الغداء. حقًّا لبريطانيا تقاليدها العريقة الجميلة، ومن علاماتها المميزة اهتمامها بوجبة الإفطار اهتمامًا بالغًا يُثير الإعجاب والدهشة.

رأيتُ أن أصعد إلى حيث يُقيم الأستاذ ماهر وعائلته الكريمة كي أزفَّ إليهم مجيء حقائبي، ففرحوا جميعًا وسُرُّوا له أيما سرور كما لو كانت حقائبهم. وإذ وجدتُهم يستعدون للخروج، سألتُهم عن وجهتهم، فقالوا: «سنسافر الآن إلى مونت كارلو بالقطار.» قُلت: هل تسمحون لي بمصاحبتكم؛ لأنني ما زلتُ مهزوزًا من أحداث أمس، وأبتغي شيئًا من «الونس»؟ فرحَّبوا بي جميعًا، وأبدَوا سرورهم لذلك.

لم نجد صعوبة أو مشقَّة في الوصول إلى محطة القطار إذ كانت قريبةً من الفندق. المحطة جميلةٌ بديعة التنسيق وفسيحة، تغُص بالناس من جميع الأجناس. ورغم هذا فلا تُحسُّ أبدًا بأنك تائه أو ضائع بين كل تلك الجموع الغفيرة. كل شيءٍ مكتوبٌ واضح. وبالمحطة متاجرُ صغيرة، لكنها تنطق بالذوق والجمال.

وصلنا إلى رصيف القطار بعد أن هبطنا سلَّمًا يؤدي إلى نفقٍ فسيح ضخم تحت الأرض. ومشينا داخل ممراتٍ طويلة في غاية النظافة. جلسنا فوق أريكةٍ مريحة ننتظر مجيء القطار. وبينما أنا أنتظر القطار جرَّني الحديث مع عائلة تتكون من أم وأب وولدَين، عرفتُ أنهم جميعًا من ألمانيا. وإنك لتلمس فيهم الرقة والدعة وحلاوة الروح.

الرجل الألماني هذا، يُجيد الإنجليزية ويتكلمها أحيانًا بطلاقة، وهو لا ينفر من الأغراب، بل يستمع إليهم، ويردُّ عليهم بجدية واهتمام.

كان القطار طويلًا مزدحمًا، ولكننا، جميعًا، وجدنا أماكن للجلوس. جلس قبالتي في القطار زنجي يحمل كميةً ضخمة من العاديَّات المصنوعة من سن الفيل وعقودًا وأساور، كلها من صنع الصومال. وددتُ أن أشتري منه سورًا عاجيًّا، فطلب أولًا ثلاثين فرنكًا، ولكنه قَبِل أن يبيعني إيَّاه بعشرة فرنكات. كل شيء في القطار سبق استخدامه مئات المرات على هذا الخط الهام، ينقل الناس إلى أشهر المدن الفرنسية المعروفة في كافة أنحاء الدنيا، بجمالها وروعتها وثرائها.

كان بالقطار ستائر من القماش الفاخر بلونٍ أصفر فاقع. كانت زاهيةً نظيفة خالية من أي قَطْع أو تمزُّق أو ما يُشوِّه منظرها الجميل الجذاب. وكانت تبدو مكوية لتوِّها. أما القطار نفسه فينساب بخفة وهدوء فوق القضبان لا يُحدِث جلبةً ولا صخبًا، ولا ضوضاء كأنما هو يجري فوق عَجلات من المطاط. كما أن مقاعده مريحةٌ ومكسُوَّة بالجلد الأصفر المحشُو بالإسفَنج الصناعي.

وصلنا إلى مونت كارلو في سرعةٍ عجيبة، فرُحنا نجوس خلال شوارع المدينة سيرًا على الأقدام. كانت العمارات الشاهقة الارتفاع تملأ ربوع المدينة ولا غرابة في ذلك، إلا أن معظمها كان يقوم شامخًا فوق جبلٍ عظيم الارتفاع.

المدينة زاخرةٌ بحمَّامات السباحة المكشوفة والمزوَّدة بأفخر المطاعم التي تُقدم للرواد أجود الأطعمة وأشهاها، وألذها نكهةً ومذاقًا ومنظرًا.

وبهذه المدينة أعدادٌ هائلة من اللنشات واليخوت تقف ساكنة داخل خلجانٍ معزولة عن البحر الرئيسي بحواجز أقامها الإنسان لهذا الغرض. لا ترى هذه اليخوت أصحابها وليس عليها أية حراسة. وهي من مختلف الأحجام وشتَّى الأشكال، منها الكبير الضخم والمتوسط والصغير، ورغم هذا فإنها تقف معًا على قَدَم المساواة في صفوفٍ مُتراصَّة داخل ما يُمكن أن يُطلق عليه «بوغاز».

يحضُر أصحاب هذه اليخوت إليها في سياراتهم الجميلة فيتركونها على رصيف البحر أمام يخوتهم ثم يصعد كلٌّ منهم إلى يخته، وفي الحال تبدأ الأسرة في إعداد مائدة الطعام على سطح اليخت في الهواء الطلق. وقد لاحظتُ أن معظم هذه اليخوت مزوَّدة بتليفونات وأجهزة تليفزيون. كما زُوِّدَت اليخوت الكبيرة الحجم بقاربٍ من المطاط لا يُستخدم إلا وقت الخطر إذا اندلعَت النيران، لسببٍ ما، في اليخت.

كل شيء حولي له لونه الخاص اللامع والبراق. من المُحال أن تجد هنا شيئًا بلا لون. ومع ذلك، فالألوان كلها متجانسةٌ متناسقة، لا نشاز بينها ولا نفور، فترتاح إلى مرآها العين، وتبتهج بها النفس؛ فالأوروبيون مولَعون ولعًا شديدًا بالألوان، وهم يستخدمونها بلباقة وفن وحُسن تصرُّف.

راح الأستاذ ماهر يلتقط فيلمًا سينمائيًّا لعائلته وعائلة الأستاذ فؤاد. ولم ينسَ بحالٍ ما أن يُسجِّل المناظر الخلابة الممتدة حوالَيه. راقَني وأثار إعجابي أن أسرة الأستاذ ماهر أسرةٌ مصرية جُبل أفرادها الأربعة على الحب والسلام والتفاهم وإنكار الذات، وهذا راجع، ولا شك، إلى زوجته السيدة نادية؛ فهي امرأةٌ هادئة تشعُّ عيناها بكل ما ينمُّ عن صفاء السريرة ونقاء القلب. حتى ابتسامتها تبعَث على الطمأنينة وحب الحياة لأجل الحياة الحلوة. ولا يمكن إغفال دَور الأستاذ ماهر؛ فهو ولا شك رجلٌ ماهرٌ بحق، اسمًا على مُسمًّى، ومُطَّلِع ومثقَّف، يفهم الأمور خير فهم، واسع الخبرة بشئون الحياة، دائم الاتصال بالعالم الخارجي بحكم عمله، سافر إلى كل بقعة في أوروبا حيث زاول فيها عملًا وما برح يزاول أعمالًا في بعضٍ منها، وإن كان قد وجد ضالته المنشودة في نابولي بإيطاليا.

لم يبدأ الأستاذ ماهر حياته تاجرًا وإنما كان ضابطًا بالجمارك بمطار القاهرة، ثم استُدعي للخدمة العسكرية، واشترك في حرب ٦٧ المقيتة، وأُصيب بشظية في قدمه، أطارت منها إصبعَين. ومع ذلك تراه يمشي معك دون أن يشكو أو يُظهِر لأحدٍ أنه يتألم أو يعاني. وقد أفهمَني أن قدمه المصابة تُتعبه في السير ويُرهقها المشي الطويل، ولكنه يتحمل كل شيء بجَلَد في سبيل إسعاد زوجته وأولاده. وهذا، في حدِّ ذاته، يُعطي القارئ فكرة عن خُلق هذا الشاب المصري الوسيم الوجه واللون معًا، ذي العينَين الواسعتَين والحديث الحلو اللبِق، والطباع الهادئة، الذي قلما يغضب أو يثور أو يفقد أعصابه.

لم أرَ في حياتي مجموعةً هائلة من السيارات الغريبة الأشكال والصنع والموديلات، كالتي رأيتُها في مونت كارلو هذه. المدينة تَعِج بالسيارات الكثيرة الواقفة في الطرقات، والتي تجري بسرعة البرق كأنها في سباق، والتي تسير الهوينَى لا تلوى على شيء، ويبدو أن أصحابها يريدون التمتع بالمناظر الخلابة لتلك المدينة العجيبة. العربات كلها مديدة الطول معظمها مكشوف من أعلى «كابروليه»، لو ألقيتَ نظرةً إلى داخلها لفتنَتك روعة الصناعة وفخامة الجلود على المقاعد الوثيرة المريحة والتي تجعل القيادة متعةً بحق. وباختصار، تُعتبر السيارات التي شاهدتُها في مونت كارلو، بالنسبة للمصري، شيئًا غير مألوف؛ لأنها لم تستعمل عندنا ولم تصل إلى بلدنا، وربما لن نستوردها إذ هي باهظة الثمن جدًّا، وأغلبها سيارات سِباق ليست للنزهة ولا للتنقلات.

ذكرتُ لك طرفًا عن العمارات السامقة الشاهقة ولكني أقف الآن أمام عمارة ضخمة تقوم فوق الجبل ويبلغ ارتفاعها ثلاثين طابقًا. المبنى مفخرة لفن المعمار الذي رُوعي فيه إبراز الإعجاز الهندسي والقوة البشرية والعقل المفكر الجبار.

أصف لك الآن عمارةً أخرى هي بلدٌ أكثر منها مبنًى. ذلك المبنى هو فندق «لويس مونت كارلو». كان علينا، لكي نصل من طرفه الأيمن إلى طرفه الأيسر، أو بالعكس، أن نسير مسافةً لا تقلُّ بحالٍ ما عن الكيلومتر، بلا مبالغة. المبنى نفسه مكوَّن من خمسة طوابق، ولكنه مُستفحِل في انبساط عرضًا فوق الأرض، وكأنهم تعمَّدوا بناءه بالعرض لا بالطول.

ومن أهم الأماكن التي زُرناها وأُعجبنا بها كل الإعجاب، كازينو مونت كارلو للقمار، مبنًى ضخمٌ وفاخرٌ جدًّا. قاعة الاستقبال الواقعة في صدر المبنى ترفعُها عن الأرض أعمدةٌ من المرمر الحُر الثمين.

السقف كله مُزيَّن بزخارف قيل لي إنها من الذهب الخالص. وبهذه القاعة مقاعدُ وثيرة جميلة بعضها مستدير تمامًا على شكل دائرة كاملة، مغطَّاة بالجلد الثمين الأحمر الفاخر والجذاب. وإني لأجد من الأصح أن أقول إنني داخل قصر مُنيف يتكون من طابقَين ولكنه فسيح الأرجاء عديد الحُجرات والقاعات. إنه لا يقل فخامة عن قصر عابدين أيام مجده القديم وسِنيه الذهبية الغابرة التي اندثَرَت تمامًا في عصر الاشتراكية الذي نعيشه الآن ونؤمن به إيمانًا عميقًا. أرى الحوائط كلها زخارف ونقوش، ولكنها هادئةٌ وجذابة لا تملأ حوائط الكازينو فحسب، بل والسقف العظيم الذي تتوسَّطه طاقةٌ ضخمة من البلور الكريستال الملوَّن تسمح للنور الإلهي غير الصناعي بأن يتسلل بأضوائه الطبيعية إلى داخل ذلك القصر. وليت أصحاب هذا الكازينو الذائع الصيت قد اكتفَوا بالنور الإلهي ولكنهم أضاءوه أيضًا بعشرات الثريَّات التي تتدلى من السقوف العالية في كل ركن من أركان القاعة الفسيحة. غير أن النور المنبعث من هذه الثريَّات لم يكن باهرًا يؤذي العين، ولا مزعجًا أو زائدًا على الحد، بل كان هادئًا لا تُحس بوجوده إلا إذا وقعَت عيناك عليه. لم تكن هناك ثريَّا واحدة مطفأة الأنوار في تلك القاعة، بل كلها مضيئة كأنما هي تستعد لحفل عُرس.

بالرغم من أن الدخول إلى هذا الكازينو العظيم كان بالمجان، إلا أنه كان ممنوعًا على الصغار من الذكور والإناث أن يدخلوه. وحتى الأطفال الرضَّع كان يشملهم هذا المنع أيضًا.

لم يخلُ هذا الكازينو من قاعةٍ فسيحة تُستعمل للعروض السينمائية والمسرحية، وتُقام فيها حفلاتٌ راقصة لأشهر فِرَق الباليه والأوبرا في العالم كله.

لَمَّا كان هذا الكازينو مشهورًا بجميع صنوف ألعاب المَيسِر وشتَّى صور القمار؛ لذا كانت بداخله عشرات القاعات الفسيحة لمزاولة هذه اللعَب التي حرَّمها الشرع. وأحمد الله أنهم لم يسمحوا لنا نحن الزائرين بالدخول لمشاهدة قاعات القمار هذه. أفهمونا أن هذا ممنوع منعًا باتًّا. بيد أنه كان هناك بالطابق الأرضي قاعةٌ لعموم الزوار مليئة بعشرات الماكينات التي يستطيع الزائرون أن يمارسوا القمار الخفيف بها، في نطاقٍ ضيق جدًّا.

دخلتُ أنا ورفاقي إلى هذه القاعة، فقال الأستاذ ماهر: سألعب بفرنكٍ واحد، يا راح، يا جاب. ولكن الأستاذ ماهر، والحمد لله، لم يخسر سوى ثلاثة فرنكات هي كل ما غامر به. لقد ابتلعَتْهم الماكينة اللعينة في لمح البصر. لفت نظرنا جميعًا رجلٌ واحد يقف أمام إحدى هذه الماكينات دون أن يكلَّ أو يمل. كان يُلقي فرنكاته داخل ثقب الماكينة دون جدوى، ولكن لم تلبث هذه الماكينة أن قذفَت إليه بكمياتٍ هائلة من مئات الفرنكات. كان هذا في نظري كسبًا مثيرًا يكفي ويزيد، ولكن سرعان ما استأنف الرجل اللعب من جديد، أغراه ذلك المبلغ الضخم، ولكن كل تلك الفرنكات ذهبَت ثانيةً إلى الماكينة واحدًا بعد آخر، وخسر الرجل كل ما كسبه. حقًّا، إنه جنون القمار.

خرجنا من كازينو مونت كارلو هذا، ورُحنا نتمشَّى خلال الحدائق الفيحاء المحيطة بذلك الكازينو العظيم. جلس الأستاذ ماهر وحرمه وأولاده بعيدًا عنَّا. كنتُ أراهم وهم يسجِّلون صورهم في فيلم سينمائي عائلي، يريدون أن يستكملوه بأي شيءٍ من تلك المناظر الثمينة، فانتحيتُ أنا والأستاذ فؤاد وحرمه السيدة سوزان وطفلتُهما الحلوة ذات الشهور التسعة. لم أسمعها تصرخ أو تُرهِق والدَيها وكأنها تنام على فراشها الوثير في أمان الله.

رأينا أنواعًا مختلفة من الأشجار والأزهار، راحت الأستاذ سوزان، المهندسة الزراعية، تُسمِّيها لنا وتُحدِّثنا عنها وعن خصائصها.

لم يسبق لي أن حادثتُك عن الأستاذ فؤاد. إنه صورةٌ طِبْق الأصل من الممثل الهزْلي المعروف جورج سيدهم. عيناه تشعَّان طيبة وصدقًا وأمانة. سألتُه: أراك سعيدًا جدًّا مع زوجتك سوزان، فهل تزوَّجتَها عن حُب؟ قال: نعم. قُلت: هل سوزان من أقاربك أم هي جارةٌ لك؟ قال: لا هذا ولا ذاك. قُلت: إذن فكيف التقيتما وتحابتما؟ قال: كان ذلك يوم أن رُقِّيتُ إلى الدرجة السادسة في عملي بوزارة العدل؛ حيث أعمل كخبيرٍ كهربائي لدى المحاكم المصرية. في ذلك اليوم، دخلتُ عند رئيسي في العمل أُخبره بالترقية

فهنَّأني وقال: «عقبال العروسة.» ثم وجَّه كلامه إلى سيدةٍ كانت قبالته في مكتبه وقال لها: «ما عندكيش عروسة للأخ فؤاد؟» قالت السيدة وهي تبتسم: «عندي، بس ينوي والعروسة موجودة.» فقال فؤاد: «النية موجودة بس شدِّي حيلك.» ويقول فؤاد: كنتُ أحسبُ أن الأمر لن يخرج عن نطاق الكلام والمجاملات، إلا أنني فوجئتُ بعد أيامٍ قلائل، بالسيدة الغريبة تحضُر إلى الوزارة ومعها فتاةٌ شابة في عمر الورد، لم تذكُر لي شيئًا عنها أكثر من أنها خِريجة كلية الزراعة، ولكنني، والحق يُقال، أُعجبتُ بهذه الفتاة أي إعجاب. كان إعجابًا من أول نظرة، أو قل: حُبًّا من أول نظرة. سمِّه كما تشاء. ومن فرْط إعجابي بتلك الفتاة طلبتُ أن أزور والدَيها. وفعلًا زرتُهما. وبعد أن اتفقتُ مع والدَيها على الزواج، توقف كل شيء؛ إذ مات أبي في حادث سيارة. فاضطربَت أحوالي المالية، وانشغلتُ لـ «شوشتي» في إدارة أعمال أبي التي توقفَت تمامًا. وبعد ثلاث سنوات تحسَّنَت ظروفي المالية، وفكَّرتُ في أن أعود إلى سوزان أطلب يدها من والدَيها، ولكنهم رفضوا، بحجة أن سوزان مخطوبة ولا يمكن فسخ خطبتها، ولكن الله أراد أن أتزوجها، وكانت سوزان تميل إليَّ وتُؤثِرني على غيري. قُلت: ألم يحدُث، يا أستاذ فؤاد، أن التقيتَ بها طوال السنوات الثلاث التي انقطعتَ فيها متفرغًا للقيام بأعمال والدك المُعَطلة؟ قال: لم ألتقِ بها ولا مرةً واحدة، ولكن إعجابي بشخصية والدها جعلني أومن بأن سوزان هي خير إنسانةٍ يمكنني أن أتزوجها، وأنا واثقٌ من أنها ستكون خير زوجةٍ يمكنني أن أحظى بها في هذه الدنيا كلها. قُلت: وهل صدَق حدْسُك؟ قال: لقد صدق تمامًا، لدرجة أن أخي عادلًا تزوج أختها، وكلانا سعيدٌ كل السعادة.

غير أنه سرعان ما بدأ الأستاذ فؤاد يشكو لي من سوزان، فقال: هناك أمور تافهةٌ تُضايقني من سوزان. تصوَّر، مثلًا أنني أعود آخر النهار في التاسعة مساءً فلا أجد خبزًا في البيت، فأُضطر إلى الخروج ثانيةً لشرائه ... أليس هذا شيئًا يُضايق رجلًا يكدَح ويتعب طوال النهار؟ قالت سوزان: أنت تظلمني، يا فؤاد. كيف تُريد مني أن آتيك بالخبز وليس بالبيت خادمة تساعدني وطفلتنا رضيع، والخبَّار بعيد عن البيت، ومشاغل البيت والمطبخ كثيرةٌ متنوعة لا تنقطع. كيف تُريدني أن أخرج بطفلةٍ رضيع في زمهرير الشتاء لأشتري الخبز؟ هل من الصعب عليك أن تمرَّ على الخباز وأنت في طريقك إلى البيت، فتشتري لنا الخبز؟ ثم شَرعَت سوزان، بدورها، تشكو من الساعات الطوال التي تمكثُها وحيدةً في الدار بلا ونيس ولا جليس، فقالت: يخرج فؤاد من البيت في التاسعة صباحًا فلا يعود إلا في التاسعة مساءً. وطبعًا أحِسُّ بالوحدة والوحشة والضيق. فقال

فؤاد: إنكِ لا تُشجعينني أبدًا على العمل ولا تشُدِّين من أزري، أرى أنكِ لستِ طموحةً بالمرة. ألا أبذل كل هذا الجهد من أجل لقمة العيش والحياة الرغيدة، يا سوزان؟ كم يضايقني عدم طموحك بالمرة، يا سوزان!

في هذه اللحظة، أقبلَت إيناس تقول: هيَّا بنا. سنذهب إلى أحد المطاعم لنتناول غداءنا. فقمنا جميعًا، واتجهنا شطر موضع المطاعم، وكان من حُسن حظِّنا أن اخترنا مطعم «لا لويزياد». المطعم كله في العراء بحذاء الشاطئ الجميل، فكيف لا يكون المطعم نفسه جميل المنظر بديع التنسيق. أما الطعام فحدِّث عنه ولا حرج؛ كان لذيذًا شهيًّا وطازجًا ساخنًا، علاوة على كونه جيد الطهي. وكان النادل أيضًا ظريفًا جدًّا بشوشًا خدومًا هادئًا وراقيًا، بالغ الأدب في معاملته، وسريعًا في تلبية الطلبات رغم ازدحام المطعم بالزبائن. تراه يؤدي عمله باستعدادٍ لطيف ورضًى واضح بيِّن.

ما إن ظهَرَت تباشير العصر حتى راحت الموسيقى تصدَح في جميع الكازينوهات التي بطول الشاطئ.

الناس جميعًا في نشوةٍ وسعادةٍ ومرح؛ بعضهم في صحبة وخلوة. الحب يلعب دوره هنا في حرية ما بعدها حرية؛ فالعشاق في تلاقٍ ومحبة وهناء وسعادة.

غادرنا المطعم وخرجنا للنزهة في شوارع المدينة، ولكن المتاجر كلها كانت مغلقةً في عطلة يوم الأحد، يوم الراحة المقدس في البلاد الغربية قاطبة؛ حيث تُنسى الأتراح والأحزان ويعمد الناس إلى البهجة والمرح والسرور. وتُحتِّم بعض البلاد على جميع رعاياها أن يرفعوا الأعلام مرفرفةً على منازلهم في ذلك اليوم، فترى الرايات تخفق والزينات تعُم البلد، فيُشعِرك هذا بالبهجة حتى ولو كانت حقائبك قد ضاعت في المطار.

الحديث ذو شجون يجرُّ بعضه بعضًا؛ فقد تصادف أن كان أحد أصدقائي في دولة المجر وأراد يوم أحد أن يذهب بالأوتوبيس إلى النمسا، فذهب إلى بلدٍ يُسمَّى «شوبرون» على حدود النمسا في صباح ذلك اليوم، فبهره أن رأى البلد كله في فرح، والأعلام الكبيرة ترفرف على كل منزل وكل حانوت، والموسيقى تصدح في جميع المتنزهات. وقد خرج الأهالي من بيوتهم في ذلك اليوم إلى المتنزهات والخلوات؛ بعضهم يتناول غداءه في المطاعم، بينما أحضر البعض الآخر طعامه معه يتناوله في المتنزهات، فوق مفارش من البلاستيك، أو في المقاهي والكازينوهات، أو في العراء. المدينة كلها أفراح، والشوارع كلها سيدات ورجال وأولاد في أزهى ملابسهم. حتى ضابط الجوازات على الحدود كان يختم الجوازات وهو يضحك ويقول بعض كلماتٍ لم يفهم الفريق منها شيئًا؛ إذ كانت بلغةٍ غريبةٍ لا هي إنجليزية ولا فرنسية ولا ألمانية.

بعد أن تركنا المطعم في مونت كارلو أبصرنا خليطًا من الناس غاية في الغرابة، مناظر الناس وأشكالهم تختلف عمَّا تألفه عيوننا. كل فتاة لها طرازها وذوقها، الحرية مطلقةٌ بين الأحباء؛ بعضهم يتبادلون القبلات في نهَم بالشوارع والمقاهي والمطاعم دون حرج ولا استحياء ولا أدنى محاسبة، والكلاب هنا في سعادةٍ بالغة «ملظلظة» ومعتنًى بها كالبشر تمامًا، وما أكثرها في فرنسا! وكم يطيب للفرنسيين أن يخرجوا للنزهة ومعهم الكلاب من شتَّى الأنواع والأحجام وأغربها أيضًا! فبعضها صغير الحجم جدًّا حتى تكاد لا تراه فتطؤه بسهولة بقدمَيْك وأنت سائر دون أن تفطن له، وبعضها ضخمٌ هائل إلى حدٍّ يفوق التصور، كما أنهم يصحبون الكلاب إلى المقاهي. ومما يسعد المرأة أن تُبدي إعجابك بكلبها، فتأخذ في تقبيله، وأحيانًا من فمه، وتربِّت على ظهره وتضع خده على خدها وتضُمه إلى صدرها في حرارةٍ وشوقٍ حتى ليتمنى بعض الرائين أن يكون كلبًا! ويمكنك أن تدرك من امتلاء أبدان الكلاب، مدى الرفاهية التي يتمتع بها شعب فرنسا العظيم.

هناك كثيرٌ من القادمين من الصومال الفرنسي يمُرُّون على المقاهي بغير انقطاع يبيعون التماثيل المصنوعة من العاج والعقود والأساور المُطعَّمة بسن الفيل، كما يبيعون أحيانًا الملابس المطرَّزة على الطريقة الصومالية، وهي تشبه القفاطين التي يرتديها البرابرة عندنا، الذين يعملون في قاعات الطعام بالفنادق. والإقبال على شراء هذه البضائع قليل، ولكني لاحظتُ أن هؤلاء السود مؤدَّبون جدًّا في غير ما لجاجة، ولا يُزعجون الشعب الفرنسي. كما أنهم يتكلمون الفرنسية بطلاقة. وكثيرًا ما يَقْبلون أي ثمنٍ معقول يُعرض عليهم مقابل ما يريد الزبون شراءه، وينسَون تمامًا الثمن الذي طلبوه منك أولًا. وهم أبعدُ ما يكونون عن القذارة. ومنظرهم، وإن بدا مُخيفًا أحيانًا من جرَّاء لون بشرتهم الشديدة السواد، إلا أنك تُحِس بأنك آمنٌ بينهم وأمامهم.

حقًّا ما أشيك الفتاة الباريسية! فالأزياء هنا لا حصر لها؛ كل فتاة ترتدي زيًّا مختلفًا بشكل قلَّما ترتديه فتاةٌ أخرى. كما أن نظافة الفتاة الفرنسية أمرٌ يدعو إلى الإعجاب والتقدير. أما بساطة الملبس فتلعب دورها الخطير؛ فالأناقة صارخةٌ مع البساطة الواضحة والألوان المتجانسة المتآلفة والماكياج الهادئ المتقن المثير. وربما كان هذا هو سِر كثرة زيارة البريطانيين لفرنسا؛ إذ لديهم قولٌ مأثور يعرفونه جميعًا، يقول:

“The Parisian girl can dress herself well enough to turn a man’s head”.

ومعناه: «تستطيع الفتاة الباريسية أن تتزيَّا بطريقة تدير رأس الرجل.»

تلتصق الفتاة الباريسية بحبيبها فلا تطرف بعينَيها إلى شخصٍ آخر أو إلى أي شيءٍ آخر حولها، عيناها عليه هو فقط، وكأن الدنيا قد تركَّزَت وتمركزَت فيه وحده، وفي عينَيه، إن مشي سارت خلفه وتبعَتْه كظله أو كخادمه الأمين، الرجل هو الذي يتكلم، أما الفتاة فكل همِّها أن تُصغيَ إلى حبيبها المفدَّى، يُحادثها وهو مشغولٌ فيها وكَلِف بها، ينسى الدنيا كلها بمن فيها وما فيها.

لاحظتُ أن المرأة الفرنسية الكهلة تتكلم في الطريق العام وفي داخل المقاهي والمطاعم بصوتٍ عالٍ فيُصغي إليها الجميع وكأنهم يريدون سماع ما تقول؛ هذه ظاهرة لاحظتُها كثيرًا هناك.

وهناك ظاهرةٌ أخرى تستحق التسجيل؛ كثير جدًّا من السيدات والآنسات الفرنسيات يركبن الدراجات البخارية في براعةٍ تامة، فترى العشرات بل المئات منهن ينطلقن كالسهم المارق وسط السيارات والأوتوبيسات دون خوفٍ ولا وجل. يا لها من فكرة رائعة تساعد كثيرًا على حل أزمة المواصلات وتصون للفتاة كرامتها وأنوثتها من عبث العابثين والتعليقات البذيئة للمتسكعين! وتترك الراكبة دراجتها البخارية فوق الطوار حيث حدَّدوه لها. إنهن لا يربطنها بسلسلةٍ ولا بقفل خوف السرقة؛ فليس هناك من يسرق الدراجات البخارية. والعجيب الجدير بالذكر أن الفتاة الفرنسية تقود دراجتها البخارية بشجاعةٍ لا مثيل لها، ومهارة فائقة تستَحِق عليها التصفيق. وتستطيع أية فتاة سائحة — لو أرادت — أن تستأجر دراجةً بخارية تزور بها بعض الأماكن النائية كي تتمكن من التوغل فيها وزيارة كل أحيائها ومشاهدة جميع معالمها.

عُدنا من مونت كارلو إلى نيس مرة أخرى وقد أحسَسْنا بأننا أمضينا يومًا ممتعًا حقًّا. كانت الرحلة مريحةً جدًّا لم نصادف فيها أية مشقةٍ أو تعب، كل شيء كان سهلًا يسيرًا؛ مواعيد القطارات مضبوطة، والأماكن موفورة، والسعادة تتجلى في كل شيء حولك. ما لم تبدعه الطبيعة، أبدعته يد الإنسان بالزينة والألوان والإعداد الجميل.

عُدت إلى الفندق، واستلقيتُ على فراشي طلبًا للراحة بعد عناء السير الطويل ومتاعب اليوم السابق البدنية والذهنية والفكرية والنفسية.

لم تنَم أجفاني أكثر من ساعة، ثم أخذتُ حمامًا دافئًا. كل شيء في الحمام الملحق بحجرتي ينمُّ عن الذوق الرفيع ودقة الصنع وجودة الصنف؛ الصنابير لامعةٌ غريبة الأشكال. الماء الساخن يجري في أي لحظة ليل نهار، ويأتيك في الحال بمجرد فتح الصنبور الخاص به. حظيتُ بدُشٍّ ممتع حقًّا، أنعشَني وأزال عن بدني كل تعبٍ وإرهاق.

خرجتُ بعد ذلك بُغية الترويح عن النفس ورؤية نيس ليلًا. الناس كلهم في الشوارع. والمقاهي الفسيحة مملوءةٌ كلها بالجالسين. الكل ينعم بجو نيس الرائع. حقًّا ما أطيب الطقس في هذه البلدة الهادئة في هذا الوقت من السنة! الطقس هنا معتدلٌ جاف خالٍ من كل أثَر للرطوبة. والهواء نقيٌّ جدًّا ومنعش. لا توجد هنا أتربة بالمرة، لا في الجو ولا في الشوارع أو الأزقة.

التقى بي الأستاذ ماهر وحرمه وأولاده. شاهدوني جالسًا في أحد المقاهي الكبيرة أُسطِّر خواطري وملاحظاتي فجلسوا معي. فهمتُ منهم أنهم سيسافرون في الغد إلى روما، وأنهم قد خصصوا صباح الغد للتسويق؛ فالسيدة نادية تريد شراء فستانٍ شيك، كما أن إيناس بحاجة إلى حذاء؛ لأن الحذاء الذي بقدمَيها، والذي اشترته من متجر بالقاهرة قبيل سفرها مباشرة، قد انفصل نعله عن وجهه. وبهذه المناسبة كان لا بد لي من التعليق على صناعة الأحذية التي أخذَت تتدهور في مصر رغم غُلوِّ أثمانها غلوًّا فاحشًا، وعلى الغش التجاري الذي راح يتفشَّى بين طبقات الصُّناع والتُّجار وكأن ضمائرهم قد ماتت. يريد معظمهم أن يستولي على كل ما في وِفاضك دون أن يُعطيك شيئًا يستحق أي مبلغ. وأكبر دليل على ذلك، الحذاء الذي انشَق بين يوم وليلة بالضبط، فيا ليت المسئولين يهتمُّون بهذا كما اهتموا بالخضر والفاكهة وضربوا على أيدي الجشِعين.

أحسَسْنا بالجوع من جمال الطقس والجو البديع المحيط بنا، والهواء النقي الذي استنشقناه. طلبنا من النادل أن يأتي لكلٍّ منَّا بشطيرةٍ واحدة، فأحضر لنا شطائر لذيذة الطعم، فعلًا، ولكنه تقاضى عشرة فرنكات عن الشطيرة الواحدة المحشوَّة بالجبن الرومي وقليل من شرائح اللحم الرقيقة؛ أي ما يعادل ١٨٥ قرشًا مصريًّا. حقًّا، ما أغلى أسعارَكِ يا فرنسا! ارتفاعٌ مهول في أسعار كل شيء، المأكل والملبس، والفنادق وأجور التاكسيات. شيءٌ رهيب، بل ومخيف، بالنسبة للمصري لو أنه راح يحسب ما يدفعه بالفرنكات بما يقابله بالعملة المصرية؛ فقدَح القهوة ثمنه ٧٥ قرشًا وكذلك قدح الشاي. زجاجة الليمونادة ثمنها ١٨٥ قرشًا من الصنف العادي جدًّا. أما الخمور فأسعارها أرخص من أسعار الكوكاكولا وغيرها من المشروبات الغازية، وهكذا أسعار المأكولات جميعًا.

الباب الرابع

لا أبدع مما كان ويكون في «كان»

في صباح اليوم التالي، وهو يوم الإثنين الموافق ١١ من يوليو سنة ١٩٧٧، رأيتُ أن أفيد من مكتب الرحلات القريب من فندقي، فندق «أفينيدا»، فتوجَّهتُ إليه وحجزتُ تذكرةً دفعتُ فيها ثلاثين فرنكًا؛ أي ما يعادل خمسة ونصفًا من الجنيهات المصرية. وذلك لزيارة مدينة السينما المشهورة «كان»، التي طالما سمعنا عنها كلما أقيم بها مهرجانٌ عالمي للسينما والأفلام العالمية.

كان من المفروض أن تبدأ الرحلة إلى كان في الساعة الثانية إلا ربعًا بعد الظهر، غير أن الأوتوبيس تأخَّر خمسًا وأربعين دقيقة. الحافلة مكيَّفة الهواء وجوها مناسبٌ مقبول مُهدئ للأعصاب، على عكس حافلات رومانيا التي كانت بلا تكييف، ومعظم نوافذها لا تنفتح حتى كِدتُ أختنق وأنا بها في العام الماضي، في يوم كان الحرُّ فيه شديدًا لا يُطاق.

إننا الآن نخترق أحد شوارع نيس الرئيسية، وهو الشارع الذي به فندقي واسمه «جين ميديسين»، إنه زاخرٌ بالمحلات التجارية الرائعة الفخمة. فن عرض البضائع هنا لا يُعلى عليه في أي بلدٍ أو مكانٍ آخر. قد تجد نظيره في سويسرا مثلًا، وليس في مصر التي لم يصل هذا الفن فيها إلى ما يجذب الأنظار، وهو فيها متخلفٌ كثيرًا عما في نيس.

الشوارع هنا فسيحةٌ، وما أكثر الفنادق التي تزخر بها المدينة! فلا يمكن حصرها. أما أسعارها فمرتفعةٌ جدًّا. إنني أدفع في حجرتي المتواضعة أربعة عشر دولارًا في الليلة الواحدة. ويُعتبر هذا السعر متواضعًا جدًّا في عالم الفنادق هنا.

أرى الآن فندق «ميريديان» المُشيَّد في مدينة نيس. إنه متواضع الارتفاع، لا يصل بحالٍ ما إلى ارتفاع ميريديان القاهرة. قد يصل ارتفاعه إلى عشرة طوابق فحسب. وأمامه حديقةٌ عامة كبيرة جميلة الشكل رائعة مملوءة بالزوار والرواد. استدار الأوتوبيس

الآن وخرج بنا إلى شاطئ البحر، فنسير الآن بحذاء الكورنيش، ولكن شتَّان بين هذا الكورنيش الذي أراه، وكورنيش النيل عندنا والذي هو كورنيش ميِّت تمامًا. تُوجد على طول كورنيش نيس الأرائك والمقاعد الزرقاء اللون واللامعة، والناس يجلسون عليها ما طاب لهم أن يجلسوا وفي أي وقت يشاءون. الكورنيش طويل جدًّا، والمقاعد متقاربة، لا يبعُد الواحد منها عن الآخر أكثر من حَفْنة من السنتيمترات. والحقيقة أنه آيةٌ في النظافة، والناس بجواره يُخطئهم الحصر، ومع ذلك لا يمكنك أن تعثر على قُصاصة ورق مُلقاة على الأرض في أية بقعة من الكورنيش. حقًّا ما أكثر الناس الذين يسبحون في المياه الزرقاء الصافية المترامية الحدود بحذاء الكورنيش!

شارع الكورنيش هذا، وهو على الأصَح «الريفييرا الفرنسية»، لا يقل عَرضُه عن أربعين مترًا للسيارات، وأما الطوار الممتد بطول البحر فعَرضُه ١٥ مترًا أو يزيد، وكله مغطًّى بالبلاط الأحمر الجميل. وعلى الجانب الآخر من شارع الكورنيش تقف متراصةً آلافُ المنازل والفنادق الضخمة المشيَّدة كلها على أحدث طرازٍ وأجمل ذوق في تناسقٍ فريد يريح العين والقلب.

أسمع الآن صوت المرشدة الملازمة لنا في السيارة تخبِرنا بأننا سنتوجه الآن لزيارة مدينة «كان» العظيمة وبلدة «فالوريس» عاصمة صناعة الفخَّار والخزَف في فرنسا كلها؛ حيث تعرض أفخم ما تُنتِجه فرنسا في هذه الصناعة.

لا يمكنك أن تتخيل أو تتصور اهتمام الشعب الفرنسي بالأشجار والخضرة ونباتات الزينة. كل شيءٍ تقع عليه عينك جذَّاب فاتن جميل.

السيارة الآن منطلقةٌ بجوار مطار نيس، الذي يُعتبر ثالث مطار في فرنسا؛ فالمطار الأول هو مطار شارل ديجول، ومن بعده يأتي مطار أورلي الفسيح.

بعد أن تركنا المطار بمسافةٍ قصيرة، وجدنا أنفسنا نخترق قريةً يُشتهر أهلها بشغفهم بالصيد. وهي علاوةً على ذلك مصيفٌ جذَّاب يفد إليه المصطافون في كل عام ينعمون فيه بالهدوء والاستكانة والهواء النقي المنعش والمياه الباردة الصافية. كل شيء في هذه القرية جميلٌ نظيف ساحر. ها أنا ذا أرى المصطافين وهم جالسون على الشاطئ تحت المظلات، بينما البحر مليءٌ برءوس من نزلوا يستحمون أو يسبحون أو يركبون الأطواف ذات الألوان الزاهية.

مضى نصف ساعة حتى الآن وما فتِئَت السيارة تجري بحذاء الشاطئ. وكما يقول المثل: «الحلو لا يكتمل.» فعَيْب البلاجات هنا أنها خالية من الرمال الناعمة كالتي تجدها

قُرب شواطئنا بالإسكندرية. البلاجات هنا مكسوَّةٌ بالزلط والحصباء، وما البلاج الذي أراه الآن سوى جزء صغير من شاطئ كورت دازور العظيم. إنه غاصٌّ بالمصطافين في ملابس البحر، ومواقف السيارات المحاذية للشاطئ بكامل طوله، تَعِجُّ كلها بالسيارات.

نحن نقترب الآن من مصبِّ نهر «لولو» كما قالت لنا المرشدة، غير أنني أُبصر أمامي مبنًى غريب الشكل جدًّا، مُعدًّا للسكنى، بناه مهندسه على صورة أهرام وأطلق عليه اسم «مارينا». والعجيب أنه جعل لكل شقةٍ فيه شُرفةً عريضة تؤدي إلى فِناءٍ خاص بها. والمبنى في حدِّ ذاته آية في الجمال والذوق والرفيع، ويوحي لأول وهلة بتقدم فن المعمار، وبأن مُهندسه واسع الخيال، على درايةٍ كبيرة بقواعد فنه يتلاعب بها كيفما شاء.

أرى الشاطئ الآن أمامي مكشوفًا يمتد مترامِيًا بمحاذاة الشارع تمامًا، أو أن الشارع هو الذي يمتد بحذاء الشاطئ دون أي حواجزَ تفصل بينهما، فتستطيع الحافلة التي نركبها أن تجري بعرض الطريق حتى تنزل إلى المياه مباشرةً وتغوص فيه، لا حواجز ولا مطبات أو عراقيل. وهذا الشاطئ مترامي الأطراف لا تبدو له نهاية، ويزدحم بالمصطافين في بعض أجزائه، بينما يخلو منهم تمامًا في أجزاءٍ أخرى. حقًّا، ما أسعَدَني وأنا أرى شاطئ الريفييرا المهول والرائع، يمتد منسابًا أمام عيني، وتلك الآلاف المؤلفة من السيارات البالغة الطول والرابضة في أمان بجوار الشاطئ البادي أمام ناظري، لا ينتهي ولن ينتهي!

ظهر الآن أمامي ميناءٌ فسيحٌ ضخم زاخر بالسفن من مختلف الأحجام وبأعداد تَعجِز العين عن حصرها أو إحصائها، ولا يتسنَّى للمرء أن يُلمَّ بكل ما أمامه أو يُدركه أو يتصوره، فهو شيءٌ يخلب الأفئدة ويُحيِّر الألباب.

بعد ذلك دخلنا بلدة «أنتيبا» ومعناها «البلدة المقابلة». وهي من أشهر بلاد التصدير في فرنسا. وجميلة جدًّا. بها قلعةٌ ضخمة تقف بجوار متحف يضم بقايا بعض الآثار الرومانية ومجموعة ضخمة من لوحات الرسام العالمي «بيكاسو».

ميدان ديجول ببلدة أنتيبا هذه، متوسط الاتساع متواضع الحجم، تتوسَّطه حديقةٌ عامة يجلس فوق أرائكها العشَّاق من الشباب، فضلًا عن العجائز من الرجال والنساء.

لا بد لك من أن تلاحظ لمسات الجمال في كل مكان بطول ذلك الطريق العظيم؛ فها أنا ذا أُشاهد الآن أجمل بلاج على شاطئ الريفييرا، دون أدنى شَك؛ فكله مكسوٌّ بالرمال الدقيقة الناعمة. الأجساد هنا متلاصقة بشكل يُثير الإعجاب، كما أن روعة الألوان تُضيف الكثير إلى رُواء هذا الشاطئ وبهائه. ما أسعد الناس في بلاج «لاساليس» الذي

نمرق أمامه! أرى به فنارًا يُطلُّ على البحر. الشاطئ يكاد لا ينتهي أبدًا، بينما اليخوت والقوارب تحمل أصحابها وتتهادى بهم على صفحة الماء، تهادِيَ الغِيد الحسان في تراخٍ ودلال. يُهرع الفرنسيون إلى البحر أينما وجدوا إليه سبيلًا، مرتدين أجمل المايوهات وأبسط الشورتات، وكلهم حفاة الأقدام، تكاد تكون أجسامهم عارية أو شبه عارية، وبذا تبدو الفتيات هناك فاتناتٍ ساحرات كأنما قد عُبئ الجمال كله في مايوه يتبختر على البلاج فتنةً للناظرين.

شاهدت في الطريق فيلَّا وندسور، تلك السيدة التي أحبَّها ملك إنجلترا حبًّا شديدًا لدرجة أنه ترك العرش العظيم الخالد كي يتزوَّجها. كما شاهدتُ فيلَّا أوناسيس، أغنى أغنياء اليونان خاصة، والدنيا عامة. نمُرُّ الآن بفندق «دي كاب» المخصص للملوك والأمراء ومشاهير الممثلين والممثلات العالميين. إنه مدينةٌ قائمة بذاتها. تجد به كل شيء يدور بخلَدك ويمكنك أن تُفكر فيه أو يمُر بخيالك. فيه ملاعب للتنس والجولف، وبارات وكباريهات وسينمات ... إلخ إلخ.

حقًّا، لقد عوَّضَني الله عن حزني واكتئابي في أول يوم لي في نيس عندما ضاعت حقائبي، عوَّضَني بعدها بأعظم أوقات المتعة والبهجة والمرح؛ فترى عيناي الآن بقعة من أجمل بقاع شاطئ الريفييرا العجيب حيث تتحرك المياه هادئةً رقراقة، بينما ينهل المحبون والعشاق كئوس الحب مترعةً بلا رقيب ولا حسيب؛ فحتى القانون لا يمكنه أن يصل إليهم. أما البلاج المُلحَق فمفتوح أمام المصطافين بلا عوائق؛ فها هم يسبحون أمامي في هدوء وارتياح. حقًّا، ما أجمل البقعة التي أراها الآن وتستمتع بها عيناي ويخفق لمرآها قلبي! إنه شيءٌ فوق الخيال وفي منتهى الحُسن والرواء؛ فهنا السفن واليخوت تحيط بها المياه الزرقاء والرمال الذهبية الصفراء والصخور المُوحِشة السوداء. ومن عجَب، أن المكان كله ينطق بالنظافة الفائقة التي يمكن التنَدر بها ويصحُّ الإعلان عنها والتنويه بها أبد الدهر!

الساعة الآن تُشرف على الثالثة والنصف بعد الظهر ومع ذلك ما زالت السيارة تجري بنا بمحاذاة شارع الكورنيش العجيب، ها هو البحر اللازوَرْدي اللامع والدائم الحركة والجميل الزرقة، لا يكفُّ عن التموُّج على يسارنا، وها هي المنازل والحدائق والفنادق تقوم شامخة الرأس عاليةً جبارة متعة للعين وشاهدةً على روعة الفن المعماري النادر، تقف ثابتةً راسخة على يميننا. يا له من شيءٍ هائل حقًّا، لا أول له ولا آخر! شيء ينمُّ عن النظام الدقيق الغريب، والعجيب الحبيب. هذا فضلًا عن النظافة التي تفوق

الوصف، والألوان الزاهية التي لا تروق العينَ فحسب، بل وتُرضيها وتُبهجها وتتصيدها فلا تجد لها فكاكًا ولا مهربًا.

تركنا شارع البحر تمامًا كأنما قد اختفى بعصًا سحرية، لنجد أنفسنا داخل مدينةٍ غاصَّة بالمَتَاجر والناس. شوارعها ضيقةٌ إلى حدٍّ ما، لا يتسع الشارع منها لأكثر من سيارتَين في وقتٍ واحد؛ سيارة ذاهبة والأخرى عائدة.

وقفنا عند بلدة فالوريس الذائعة للصيت بصناعة الأواني الفخَّارية والخزَفية، لنرى المعرض الكبير الذي يُعرض فيه أعظم ما أنتَج العقل البشري من تلك الأواني التي تُشتهر بها بلدة فالوريس. ها أنا ذا أرى المَتاجر تزخر فعلًا بالكثير من تلك الأواني من مختلف الأحجام والأشكال المتباينة المتفاوتة، والألوان العديدة البديعة، والأنواع الكثيرة المختلفة.

أفهمَتْنا المرشدة أن متحف بيكاسو يقع في ذلك البلد النائي، كما يُوجد به مدرسةٌ كبيرة وكنيسةٌ هامة وتمثالٌ ضخم لهذا الرسام العالمي يتوسط ميدانًا صغيرًا من ميادين هذه البلدة ذات الشوارع الضيقة جدًّا.

نسير الآن في الشارع الذي به متاجر الخزف والموزايك الغاصة بتلك الأواني المختلفة الألوان والمزركشة بفنونٍ عديدة يصعُب حصرُها أو تصوُّرها. حقًّا، ما أشبه تلك الشوارع الضيقة التي تملأ هذه البلدة بالشوارع الضيقة الموجودة في الصاغة وخان الخليلي عندنا في مصر!

تركنا السيارة لنقوم بجولةٍ سريعة في سوق الأواني الخزفية. الصناعة لا بأس بها وتنمُّ عن الدقة المتناهية والبراعة الفائقة. المصنوعات مكدَّسة أكوامًا أكوامًا. تتدرَّج تلك الأواني من الصغير الدقيق جدًّا، إلى الكبير الضخم. بيد أنها تدل، جميعًا، على دقةٍ خارقة ومهارة فائقة في صنع تلك الأواني والتحف الخزَفية. لم تكن الأسعار مرتفعةً جدًّا، ولكنها في الوقت ذاته لم تكن معتدلة بحالٍ ما. كانت الأصناف العادية المعدومة الفن هي وحدها الرخيصة. وبالطبع، ما كان لأحدٍ منا أن يشتريها حتى ولو أعطِيَت لنا بالمجان. لم أشترِ أي شيءٍ خزفيٍّ سوى بجعةٍ جميلة مذهبة اللون، ألحِق بذيلها مقياس حرارة ليبيِّن درجة حرارة الطقس. إنها قطعةٌ جميلة بحق، وقد أسعدني اقتناؤها. دفعتُ فيها عشرين فرنكًا، وإني لأعتقد أن هذا سعرٌ مقبول، بالقياس إلى قطعةٍ خزفية قد تتحطم في طريق العودة لسببٍ ما أو لآخر.

استأنفَت الحافلة سَيْرها بعد أن قضى كلٌّ منَّا حاجته، واشترى ما أعجبه من سوق الخزف ذاك المليء بالعجَب العُجاب من ذلك الفن اللطيف الجذَّاب.

نمرُّ الآن في شوارع تنمُّ عن ضاحيةٍ بالغة الرقي لا ضجيج ولا ضوضاء؛ خضرة ناضرة وزهور يانعة ومنازل صغيرة أشبه بالفيلَّات، كلها متلاصقةٌ متناسقة، وها هي المرشدة تقول لنا إن سكان هذه المنطقة كلهم من الأمراء ومن أرقى الطبقات الفرنسية. وفجأةً ظهر البحر مرةً أخرى بلونه اللازَوَرْدي، وبظهوره وصلنا إلى مدينة «كان» المنشودة، والتي تُعتبر في شهرتها وأهميتها ثاني مدينة على شاطئ الريفييرا، بعد «نيس».

غدت «كان» مدينة عالمية. وكان قد اكتشفها لورد بروم الإنجليزي في عام ١٩٧٤م؛ ولذا يؤمُّها في كل عامٍ عددٌ كبير جدًّا من الإنجليز. وتُعتبر الآن مشتًى عالميًّا لِمَا تتمتَّع به من جوٍّ دافئ جاف شتاءً، كما تُعتبر مصيفًا أيضًا، يضم كازينوهاتٍ ذوات شهرة عالمية، وتُقام بها في كل عام أعياد السينما ومهرجاناتها المشهورة. أبصرنا على شواطئ «كان» بواخر صيد وكثيرًا من اليخوت الجميلة الضخمة. وربما كان كازينو «بالم بيتش» هو أشهر الكازينوهات الأربعة القائمة على الشاطئ هناك. كما تُشتهر مدينة «كان» بفنادقها المعتبرة من أفخم وأعظم فنادق العالم قاطبة.

والأمر الذي يدهش له زائر مدينة «كان»، أن شوارعها ضيقةٌ ومزدحمة بالسيارات المتراصة على جانبَي كل طريق. عاد بنا الأوتوبيس الآن إلى شارع الكورنيش، وها أنا ذا أرى البحر من جديد والمصطافين مستلقين على الشاطئ في أعدادٍ كبيرة، هنا وهناك بغير ترتيبٍ ولا نظام، بل في فوضى محببة إلى النفس. هذا على الجانب الأيسر حيث الشاطئ. أما الجانب الأيمن فتقوم عليه فنادقُ في غاية الروعة والجمال والفخامة. يعود الكورنيش الآن إلى اتساعه السابق الذي سبق شرحه. الناس هنا في حشودٍ بالغة لا يُصَدقها العقل، من أين تأتي كل تلك الجموع؟ فكافة المقاعد، وما أكثرها! مزدحمةٌ بالجالسين ذكورًا وإناثًا، من جميع الأجناس والأعمار.

كازينوهات القمار متناثرةٌ وعديدة في مدينة «كان»، وبعضها يتمتع بشهرة عالمية.

تركونا الآن في جولة حرة بين ربوع «كان» فذهبت أنا شخصيًّا إلى الميناء البحري الجميل الحافل بآلاف السفن والمراكب واليخوت. شوارع المدينة غاصةٌ بالناس ولا سيما السائحون والزائرون من شتَّى أنحاء العالم. يتحلى الناس هنا، كما يبدو، برُوح حلوة. جميع المحلات تتنافس على خدمتك بالمعاملة الحسنة. كل شيء حولك هنا جميل، يُوحي بالثراء الفاحش والبذخ الخيالي. حقًّا، ما أجمل أن نرى الأثرياء يحوِّلون الحياة هنا إلى نعيمٍ مقيمٍ فوق الأرض! مظلات البحر الرائعة الألوان تملأ شرفات المنازل الفاخرة. آسف؛ إذ تقع عيني، لأول مرة، على منزل قديم تعرَّت حوائطه الخارجية من الرداء

الملوَّن، ومع ذلك أرى أسفله لافتةً كبيرة كُتِب عليها «شركة سياحة ريس». ويُطِل هذا المنزل على ميدانٍ من أجمل الميادين. أما كيف أفلت هذا البيتُ القبيح المنظر من العقاب، فلست أدري، ولا المرشدة تدري.

لاحظتُ أنه يندُر أن ترى بمدينة «كان» بيتًا لا تكثر فيه الشرفات العريضة الواسعة. إنها شبيهةٌ بالمنازل في مصر. ومع ذلك رأيتُ القلَّة القليلة من أصحابها أو سكانها يجلسون في هذه الشرفات الواسعة. أغلب الظن أنهم لا يستخدمونها إلا ليلًا؛ إذ يذهب قُطان هذه المنازل نهارًا إلى الشاطئ المترامي الأطراف يسبحون ويلعبون ويمرحون ويأكلون في نهمٍ ظاهر. الشمس لم تذهب بعدُ إلى خِدْر أمها، وإنها لقويةٌ ساطعة تدخل من النافذة الزجاجية التي أجلس إلى جوارها في الأوتوبيس، فتكاد تحرق رأسي وعنقي. إنها شمسٌ شديدة الحرارة لا تقل عن شمس مصر الحارقة في شهرَي يوليو وأغسطس، ولكنها لا تصل بأية حالٍ من الأحوال إلى حرِّ شهر يونيو الماضي الذي كاد يحرقُنا ويُزهق أرواحنا، والذي غزانا دون رحمة ولا هوادة وكأنه نارُ الله الموقَدة قد سُلِّطَت علينا.

يُخيل إليَّ أننا الآن في طريق العودة إلى نيس، ولكننا نعود من طريقٍ أخرى؛ فإن شركات السياحة هنا تبذل قصارى جهدها لخدمة زبائنها، تريدهم أن يرَوْا أكثر من الكثير، حتى المرشدات والمرشدين الذين تُخصِّصهم هذه الشركات لمرافقة الزائرين الأجانب، يُجيدون أكثر من ثلاث لغاتٍ إجادةً تامة؛ فالمرشدة التي معنا، مثلًا، امرأةٌ كهلة، ربما كانت في الخمسين من عمرها، تتحدث بالفرنسية ثم تُترجِم ما تقوله إلى الإنجليزية ثم إلى الإيطالية؛ إذ كان معنا في السيارة عائلةٌ إيطالية لا تتكلم غير لغتها. وقد لفَت نظري أن هذه المرشدة تُتقِن اللغات الثلاث إتقانًا غريبًا.

أرى الآن قطعة من الأرض الفسيحة خُصِّصَت لتكون مدرسة لتدريب المولَعين بفن ركوب الخيل. حقًّا ما أروعَ منظر الحصان! وما أجملَه من حيوان! هو مطية الأمراء والفرسان منذ قديم الزمان.

تتكون الأسرة الإيطالية الجالسة خلفي من أربعة أفراد يُحدِثون جلبة بأصواتهم العالية دون مراعاة لمن في السيارة. لا أحد غيرهم من رُكَّاب الحافلة يفتح فاه بكلمةٍ واحدة؛ فالكل جالسٌ في صمتٍ يشاهد ويتأمل، ولكن الأسرة الإيطالية لا تكفُّ عن الكلام الذي ينمُّ عن الشجاعة أكثر منه عن الثرثرة العادية … هكذا هم الإيطاليون دائمًا، شعبٌ مزعج في كل شيء أينما كانوا وحيثما وُجدوا. إنني أنعى حظي إذ جاء مقعدي أمام مقاعدهم. إنها لمأساةٌ حقًّا أن تظل مدة خمس ساعات أو ست، تحيط بك الأصوات

المزعجة التي هي أشبه ما تكون بالنُّباح أو العُواء؛ فأمامي، مثلًا، عائلة يابانية؛ رجل وزوجته وابنته وابنه، هي نموذج للأدب الجم. لا يستطيع الأطفال أن يتحركوا من أماكنهم أو حتى يتكلموا معًا أو مع والدَيهم.

معي في السيارة عددٌ لا بأس به من الأمريكيين، شاء حظِّي أن تحدثتُ إلى أربعةٍ منهم ونحن في انتظار وصول الأوتوبيس إلى نيس، فسألتُهم بقولي: «هل يُوجد في أمريكا قاموس أمريكي-إنجليزي؟» فدهِش أربعتُهم من هذا السؤال وقالت واحدةٌ منهم: «أتعتقد أن الاختلاف بين الإنجليزية والأمريكية يستوجب قاموسًا قائمًا بذاته؟» قُلت: هذا مجرد سؤال. إذ لو وُجِد مثل هذا القاموس لوددتُ أن أشتريَه ليُعاونَني في ترجمة المؤلفات الأمريكية التي كثيرًا ما تستخدم لغةً لا يُوجد لها نظيرٌ في المعاجم الإنجليزية.

على فكرة، مدينة «كان» ليست مدينةً صغيرة كما قد تتخيل أو يتبادر إلى ذهنك، وإنما هي مدينةٌ عظيمة الاتساع يكثُر امتدادها في جميع الجهات تضُم ألوفًا من البيوت الشبيهة بالفيلَّات. كما أن بها العمارات ذوات الارتفاع الشاهق والمتعددة الطوابق. ولا يخلو الأمر من وجود حقولٍ خضراءَ عظيمة الامتداد مليئة بالأشجار الباسقة والمتوسطة الأحجام. تسير الحافلة بنا الآن بمحاذاة نهر اسمه نهر «الفار» الصغير جدًّا، ويشبه فعلًا «ذيل الفأر»، ولكنه ولا شك، أعرض منه قليلًا. ليست مياه نهر الفار هذا نقيةً ولا صافية، بل عكرةٌ مليئة بشتى المواد الغريبة والعالقة.

تخترق بنا السيارة، الآن، المدينة من وسطها لا من طرفها الذي يجري مُحاذيًا الشاطئ البديع الذي سبق لي أن وصفتُه لك. يُشبه الشارع الذي تمضي فيه السيارة، شارع رمسيس بالقاهرة من حيث الاتساع، ولكنه طويلٌ طويلٌ يقسم المدينة كما يُخيَّل إليَّ إلى قسمين؛ بمعنى أن الشارع لا يقل طوله عن شارع كورنيش البحر، ولكنه يخترق المدينة من الداخل فيشطرها شطرَيْن.

قائدو السيارات هنا معتدلون جدًّا في القيادة. لم ألاحظ منهم أي تهورٍ أو سرعةٍ جنونية بعيدة الاتزان والرزانة، أو العبث الخطر، كالتي تراها مثلًا في شوارع باريس نفسها أو شوارع أثينا أو في كندا عندما يمتد الشارع امتدادًا لا نهاية له.

يهتم الفرنسيون اهتمامًا بالغًا باقتناء أصص الزرع والزهور في شُرفات منازلهم، ويُعنَون بها عنايةً فائقة تُضفي الجمال على واجهات البيوت، وتجعلها أبهى منظرًا ومتعةً للعين بصفةٍ عامة.

وأخيرًا عُدنا إلى نيس مرةً أخرى والأوتوبيس يقوم بتوصيل الركاب كل واحدٍ إلى حيث يُوجد فندقه. أسمع المرشدة تُودِّعنا راجيةً أن نكون قد استمتعنا برحلتنا هذه التي

زرنا فيها مدينة «كان» العظيمة. لم تسألنا نفحةً أو بقشيشًا، لقد أدت واجبها على خير وجه، كما قاد السائق الماهر الحافلة بمنتهى الحكمة والرويَّة والبراعة، وعاد بنا جميعًا سالمين إلى أماكن إقامتنا، فاستوجب هذا الشكر منا جميعًا.

الشيء بالشيء يُذكر، لقد زار صديقي الأستاذ شنودة باريس، وأرى من الأوفق أن أعمل مقارنةً بين الرحلة التي قامت بها إحدى شركات السياحة في باريس والرحلة التي قامت بها شركة السياحة هذه في نيس. وإليك ما وصفه لي الأستاذ شنودة بالحرف الواحد تقريبًا؛ إذ قال لي:

«ذهبتُ في إحدى رحلاتي، إلى باريس، ونزلتُ في فندق متروبول، أحد فنادق الدرجة الأولى، برقم ٦ شارع فيكتور هوجو بمنطقة الشانزليزيه، وعلى بُعد دقيقتَين سيرًا على الأقدام من قوس نصر «شارع ديجول»، عرض علينا أحد موظفي الاستقبال بذلك الفندق أن نُشاهد أشهر معالم باريس بسيارة شركةٍ سياحية لقاء ٢٥ فرنكًا للشخص الواحد، وفعلًا حجز حوالي عشرين عضوًا من فريقنا البالغ اثنين وثلاثين عضوًا، تذاكر في شركة سيتي راما City rama؛ أي شركة مناظر المدينة، لرحلة حول باريس تستغرق ثلاث ساعات، فأرسلَت الشركة سيارتَين «ميكروباس» إلى فندقنا لتحملنا إلى محطة أوتوبيسات تلك الشركة.

أوتوبيس شركة سيتي راما جوانبه كلها وسقفه من الزجاج ليُسهِّل على ركابه رؤية معالم المدينة بوضوح. وهو من طابقَين، وليس به مرشدٌ أو مرشدة بل يعطيك الكُمساري مسماعًا مثل مسماع الطبيب تمامًا تضعه في أذنَيك وتوُصل طرفَه الذي على شكل «فيشة» ببريزة في ذراع مقعدك. وفي نهاية ذراع المقعد عشرة أزرار صغيرة تشبه أزرار البيانو ولكنها صغيرة جدًّا، كُتِب على كل منها اسم لغة؛ الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والهولندية والروسية والسويدية واليابانية والبرتغالية. تضغط على زر اللغة التي تريد أن تسمع الشرح بها.

تقف السيارة أمام كل مَعْلمٍ شهير في باريس، فتسمع وصفًا دقيقًا له ولتاريخه ومؤسسه وكل ما يتصل به من معلوماتٍ يريد معرفتَها عشَّاق الرحلات.

تبدأ الرحلة من شارع ريفولي فتمرُّ بك على ميدان الكونكورد حيث تقف قليلًا ريثما تقارن ما تراه بما تسمعه من المسماع الملتصق بأُذنَيك، ثم ميدان توبير (وتقف) ثم اللوفر (وتقف) ثم كاروسيل، فالجسر الجديد (بون نيف)، فجزيرة المدينة، فكنيسة نوتردام، فتاون هول، فميدان الفوسج، فالباستيل، فجزيرة سانت لويس على الضفة اليسرى لنهر

السين، فميدان سانت جوليان دي بوفر، فجامعة السوربون، فالحي اللاتيني، فالبانثيون، فقصر وحدائق لوكسمبورج، فميدان سانت جرمان دي بريه، فغرفة القناصل، فالإنفاليد، فبرج إيفل، فقصر شايوه، فقوس النصر، فالشانزليزيه، فجران باليه (القصر العظيم)، فقصر الإليزيه، فكنيسة القديسة مادلين، فالمونمارتر، فكنيسة القلب المقدس، فالأوبرا، فشارع دي لابيه، فقصر فندوم، فالعودة إلى شارع ريفولي.

تقف السيارة مدة حوالي دقيقة أمام كلٍّ من هذه المعالم. حقًّا إنها لرحلةٌ ممتعةٌ دُرنا فيها حول باريس في ثلاث ساعات. وبعد ساعتَين من بدء الرحلة توقفَت السيارة أمام سوقٍ كبيرة وأمهلَنا السائق مدة ربع ساعة.

دخلنا السوق المستديرة تمامًا، فسرنا في ممرٍّ ضيق على جانبيه حوانيتُ صغيرة جدًّا بها كل ما يغري السائحين، علاوةً على المرطبات والمثلجات والحلويات والفطائر (الجاتوه)، ويدور هذا المَمَر حول السوق لنخرج من نفس الباب الذي دخلنا منه.

اشترى كلٌّ منا ما طاب له، وكانت الأسعار أكثر من المرتفعة، ومع ذلك فلا بد من أن يشتري المرء تذكارًا من باريس. وأنا شخصيًّا اشتريتُ بعض زجاجات العطور لزوجتي وبناتي وبعض دبابيس يتدلَّى منها تمثالٌ صغير لبرج إيفل، واشتريت «إيشارب» لزوجتي غريب الشكل من الأوجانزا به رسوم من القطيفة بنفس اللون الهادئ جدًّا، وعلى ما أذكر دفعتُ خمسين فرنكًا؛ أي حوالي ثمانية جنيهات مصرية.

الغريب أن زوجتي ظلت مدة الساعات الثلاث نائمة تمامًا لم ترَ شيئًا ولم تسمع شيئًا.

ولما عادت بنا السيارة إلى شارع ريفولي لم تُوصلنا إلى أماكن إقامتنا، بل تركتنا نتوه في شوارع باريس.»

كذلك قام الأستاذ شنودة في اليوم التالي برحلةٍ نهريةٍ أرى أن أذكُر تفاصيلها على لسانه قَدْر المستطاع كما وصفها لي؛ فيقول:

«خرجنا في صباح اليوم التالي لرحلةٍ نسير على أقدامنا لنرى برج إيفل ونحن واقفون إلى جواره، وعندما وصلنا إليه ويقع جنوبي نهر السين، إذا برجل يوزع علينا إعلانات لشركةٍ سياحيةٍ نهرية، فرأى بعضنا أن نقوم بها. وفعلًا هبطنا سُلمًا طويلًا حتى وصلنا إلى نهر السين، فاشترينا تذاكر الرحلة نظير ٢٥ فرنكًا أيضًا؛ أي حوالي أربعة جنيهات مصرية لكل فرد، وانتظرنا حتى جاء الأوتوبيس النهري. إنه يشبه الأوتوبيس النهري الموجود بنهر النيل بالقاهرة إلا أنه أطول منه كثيرًا جدًّا وعلى مستوًى آخر.

جلسنا أمام موائد سطحها من البلور وتحته خريطة أمام كل مقعد عليها كل المعالم التي سنَمُر أمامها.

سائق الأوتوبيس النهري يرتدي حُلة ربَّان باخرة وقبَّعة ربان. أما المرشدة فترتدي جونلة كُحلية وجاكتة كُحلية لضابطٍ بحري وقبعة لضابطٍ بحري وقبَّعة بحرية أيضًا. وتقف في مقدم الأوتوبيس النهري ممسكةً بمكبِّر صوت. تشرح تاريخ كل مَعلم يمر به ذلك القارب البخاري باللغة الفرنسية ثم بالإنجليزية في صوتٍ أشبه بالغناء منه بالشرح؛ إذ من كثرة إعادتها لذلك الشرح طوال الشهور، بل والسنين، حفظَتْه عن ظهر قلب، وصار عندها كالأنشودة.

سار بنا الأوتوبيس النهري في نهر السين متجهًا شرقًا أولًا والمرشدة تشرح لنا تاريخ المعالم التي على كلتا ضفَّتَي نهر السين حتى وصل إلى سان برنار ودار حول جزيرة بوسط النهر، وعاد أدراجه غربًا وشمالي تلك الجزيرة؛ حيث تُوجد بعض المعالم الشهيرة، وأغلبها قصور وحصون ومتاحف لا أذكر أسماءها، ومَرَّ بموقفه واستمر في سيره غربًا إلى جسر ميرابو؛ حيث دار حول جزيرةٍ أخرى، وعاد متجهًا شرقًا إلى محطته التي ركبنا منها بجوار برج إيفل.

عندما همَمْنا بمغادرة الأوتوبيس النهري إلى البر، وضعَت المرشدة في طريقنا صينية وطلبَت منا أن نضع فيها شيئًا للسائق، فدفع كلٌّ منا حوالي فرنك. والغريب أن زوجتي ظلت مدة الساعتَين اللتَين استغرقَتْهما هذه الرحلة نائمة أيضًا.

بعد ذلك صَعِدنا السُّلم إلى الشارع وسِرنا إلى فندقنا ونحن نتفرَّج على ما في معارض المتاجر من بضائع.»

بعد انتهاء الرحلة إلى مدينة «كان» عُدت إلى الفندق في تمام الساعة السادسة والنصف مساءً فنمت قليلًا ثم أخذتُ حمامًا دافئًا، وخرجتُ أبحث عن مطعم أتناول فيه عَشَائي.

لم أجد صعوبةً في العثور على مطعمٍ راقني بنوع خاص لأنه يُقدم لك أربعة أصناف تختارها من أربعة قوائم؛ إما مقابل ١٢ فرنكًا أو مقابل ١٧ فرنكًا. كان هذا السعر مناسبًا لي. وما كِدتُ أستوي على مقعدي حتى أقبلَت سيدةٌ أمريكية فجلسَت قبالتي إلى نفس المائدة، وكانت ممتلئةً حيوية ونشاطًا فلم أصدِّق أنها في الستين؛ إذ حسبتُها في الأربعين لا غير. ولَمَّا تحدَّثنا معًا، قالت: إنني أزور نيس هذه في كل عام فأقضي بها شهرَيْن. أطوف بأنحائها وأجول في أرجائها. أشاهد في كل يوم منطقة. ومن فضل الله ونعمه عليَّ أنه يمكنني أن أركب جميع القطارات الموجودة في أوروبا كلها

دون أن أدفع سنتيمًا واحدًا؛ لأن معي «كارنيه» يُخوِّل لي هذا الحق المطلق، دفعتُ فيه ٣٦٠ دولارًا في أمريكا؛ لذلك تجدني مرغمةً على ركوب القطارات كي أفيد منه إلى أقصى حدٍّ وإلا أكُن قد أضعتُ سُدًى ذلك المبلغ الكبير الذي دفعتُه فيه. وسرعان ما فتحَت حقيبة يدها وأخرجَت الكارنيه وقدَّمَته إليَّ كي أراه. إنه بلونٍ بمبي ومكسُو بغِلافٍ من البلاستيك يقيه البِلى والاتساخ، ثم استطردت تقول: إنني أعتبر نفسي محظوظةً إذ أقوم برحلة هذا العام على نفقة الجهة التي أعمل بها؛ لأنني الموظفة الوحيدة التي بلغَت سن الستين في هذا الشهر بالذات. إن كل موظف أو موظفة يبلغ الستين في شهر يوليو، من حقِّه القيام بهذه الرحلة دون أن يدفع سنتيمًا واحدًا؛ فجهة العمل هي التي تشتري لك التذكرة وتقدِّمها لك هديةً نظير خدماتك لها.

يا لها من فكرة سليمة! ليتنا نحذو حَذْوها في مصر، ولتكن التذكرة لقضاء شهر بلبنان أو الجزائر بدلًا من أوروبا وأمريكا، تمشيًا مع ما نحن فيه من تقشفٍ قد لا يمنعنا تكريم آبائنا وأمهاتنا متى بلغوا سن التقاعد في شهورٍ معينةٍ ويصحُّ لنا أن نُسمِّيها شهور الحظ والسعادة، أو في ليلة القدر أو في شهر رمضان أو في ٦ من أكتوبر أو في أية مناسبةٍ أخرى، والمناسبات عندنا كثيرة والحمد لله. ويصحُّ أن تختار كل جهة عمل المناسبة التي تروقها، وبذا نستخدم كل المناسبات.

قالت جليستي «دولوريس» إنها مُدرِّسة فنونٍ جميلة ويؤلمها ويحُزُّ في نفسها أنها لم تتعلم العزف على أي آلةٍ موسيقية، ولو أنها تعتبر نفسها غاوية «سمع»؛ لأنها تعشق الموسيقى وتُجيد فن الاستماع إليها. قالت: كان من عادتي أن أجيء إلى هذا المكان مع زوجي، ولكنه مات منذ عشر سنين، فقلتُ لنفسي: فلأُجربنَّ السفر بمفردي، فإن وفِّقتُ قمتُ بالرحلة وحدي في كلِّ عام. وأعتقد أنني نجحتُ فعلًا، وبذا سأستمر في المجيء إلى هنا كل سنة حتى أموت.

حدث بعد أن تناولنا وجبة العشاء وكنتُ قد طلبتُ لنفسي عين الأطباق التي طلبَتْها دولوريس لنفسها مع اختلافٍ واحدٍ بسيط، وهو أنها طلبَت قطعة من لحم الضأن المشوي بينما طلبتُ أنا ربع دجاجة، فدفعَت دولوريس اثنَي عشر فرنكًا ليس غير أخذَتْها منها النادلة وهي راضيةٌ دون أي اعتراض، فمدَدتُ يدي للنادلة بمبلغ مماثل فصاحت تقول: ينقص من حسابك خمسة فرنكات. فما كان منِّي إلا أن دفعتُ لها الفرنكات الخمسة صاغرًا. لم أكن أعلم أن لحم الدجاج، في فرنسا، أغلى ثمنًا من لحم الضأن؛ أي على عكس الوضع في جميع أنحاء العالم.

تركتُ المطعم حانقًا من هذه التفرقة في المعاملة، ولكني أعتقد أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأً من جانبي في سوء التقدير، والله أعلم.

سرتُ من المطعم إلى مقهًى شاهق لا يبعُد عن فندقي غير مسافةٍ معقولة، ورُحت أرشف الشاي وأنا أتأمل الجالسين حينًا والمارِّين حينًا آخر. أشكال وألوان تدعو إلى العجب. كل فتاةٍ تُمثِّل، في حدِّ ذاتها، دنيا كاملة. هناك الشقراء والحمراء والسوداء. وهناك العارية قليلًا، والمكسوة تمامًا. وهناك الغارقة إلى أُذنَيها في الماكياج، والمجردة منه تمامًا. بَيْد أنني لاحظتُ أن فتياتٍ كثيرات فاتنات كُن يسرن حافيات الأقدام بلا أحذية. غير أن السعادة ترتسم على وجوهن. ظاهرةٌ غريبة قد لا نراها كثيرًا ولكنها منتشرة في فرنسا. تُرى، هل السبب هو الإحجام عن لبس الحذاء الذي قد يصل ثمَنه أحيانًا إلى مئات الفرنكات، أم أنها عقيدة وعودة تدريجية إلى الأيام الخوالي، للبدائية والتحرر من تعقيدات التحضر والمدينة؟

الباب الخامس

يوم جديد حافل بالمزيد المفيد

حرَصْتُ في صباح يوم الثلاثاء على التوجه إلى مكتب السياحة لأقوم برحلةٍ جديدة، فنصحني الموظف المسئول هناك بأن أذهب لزيارة محراب دي روزير وكنيسة القديس بولس والقرى المختلفة التي تقوم بها هذه الأماكن الأثرية الجميلة.

لا يمكنني أن أحكي لك كيف قضيتُ فترة الصباح إلى حين يأتي موعد قيام الأوتوبيس الذي سيقوم بهذه الرحلة الجديدة في الساعة الثانية إلا ربعًا بعد الظهر. غير أنني أخذتُ أطوف هنا وهناك أُمتِّع عيوني برؤية مختلف البضائع المعروضة بكمياتٍ هائلة، وقد خُفضَت أسعارها خصيصًا للسائحين؛ إذ هذا موسمهم.

من عادة الفرنسيين أن يُخرجوا بضائعهم أحيانًا إلى حيث الطوار، ويكتفوا بالإعلان عن سعرها، وعلى المشتري أن ينتقي لنفسه ما يشتهي ثم يدخل المتجر ويدفع ثمَن ما انتقاه. حتى بائع الصحف، يضع الجرائد اليومية والمجلات فوق نَضَدٍ منخفض، ويضع إلى جوارها صندوقًا صغيرًا يشبه «الحُق». وكل شخص يريد جريدة أو مجلة ما عليه إلا أن يأخذها ويُلقي بثمنها داخل الصندوق، فيظل الصندوق يضم الفرنكات إلى أن يحضُر صاحبه فيحمله بما فيه. الأمانة متوفرةٌ جدًّا، بل فرض ودين في تلك البلاد. وربما كان سِر تقدُّمها وإتقان مصنوعاتها أن أحدًا ما لا يفكِّر في الغِش أو السرقة، بل يُعطي كل ذي حقٍّ وكل شيء حقه. لم أشاهد واحدًا قَط أخذ صحيفة ولم يدفع ثمنَها، كما أنني لم أشاهد أحدًا يقترب من صندوق النقود، في حين أن أي لصٍّ يستطيع أن يحمل الصندوق كله بمحتوياته من النقود، دون أن يراه أحد.

تجدُر المقارنة هنا بما لاحظتُه من فَرْط الأمانة في المجر؛ فالأوتوبيس هناك بدون كمساري، وكل فرد يشتري كارنيهًا به عشر تذاكر من أية محطة. وعندما يصعد إلى الأوتوبيس ينزع تذكرةً من الكارنيه، ويثقبها داخل شق في عمود عند باب الأوتوبيس.

هذه الأمانة المفرطة في فرنسا قد تُيسِّر على بائع الصحف ذاك أن يعمل في مكانٍ آخر ينال منه رزقًا، ثم يعود في آخر النهار ليجد نصيبه من تجارة الصحف والمجلات. وبذا يتسنَّى للرجل أن يزيد من دخله عما لو قصَره على بيع الصحف؛ وبالتالي يرفع من مستوى معيشته.

بدأَت رحلة بعد الظهر. لم تتأخر السيارة في هذه المرة، بل جاءت في ميعادها تمامًا. ركبنا السيارة وتحرَّكْنا، ولكنها طافت ببعض أحياء المدينة تجمع السائحين من أماكنَ متفرقة.

أرى الآن المزيد من شوارع نيس، وهي ضيقةٌ فعلًا، ورغم هذا، مسموح للسيارات بأن تقف على جانبَي الطريق بناءً على علامات وحدودٍ رسمها قلم المرور. لم تقع عيني في كل شوارع نيس على أي شيءٍ يتنافى مع الآداب العامة؛ الناس إما في أعمالهم منهمكون، وإما في سيرهم جادُّون. وإن شائعة الإباحية المُفرِطة التي نسمع عن وجودها في أوروبا، وفي فرنسا بالذات، تكاد تكون معدومة، بل هي شائعةٌ كاذبة مُغرضة باهتة، لا سند لها بالمرة.

منظر الأوتوبيس في نيس محترم جدًّا؛ فهو سليمٌ تمامًا من الداخل والخارج، ليس به أي خدشٍ أو كسر ولا ألواح زجاجية محطمة أو ستائر مهلهلة، ولا نوافذ مهشمة أو نُزع شريطها المطاطي المحيط بها، ولا مقاعد ممزَّقة الجِلْد. ولا عمود تستند إليه فيتأرجح بك داخلها لضياع المسامير التي تُثبِّته بأرضية الحافلة، بل كل ما فيها سليم كأنما قد خَرجَت لتوِّها من المصنع. وأما الركَّاب فجميعهم جالسون، وهناك بعض المقاعد الخالية.

أرى أمامي الآن نافورةً جميلة المنظر تنطلق منها المياه متدفقةً إلى أعلى في أشكالٍ بديعة. وتحيط بالنافورة مجموعةٌ بديعة من التماثيل الفنية الرائعة؛ فهذا رجلٌ ممسكٌ بثورٍ هائل، وذاك آخرُ يركب جوادًا أصيلًا متناسق الأعضاء، وتلك سيدةٌ تركب دلفينًا ضخمًا. وإني لأرى الصبيةَ وأمهاتِهم يجلسون على حافة النافورة يضحكون ويمرحون دون أن يعبَث أحد بالمياه، ودون أن تمتد يد طفل إلى أي التماثيل رغم كونها قريبةً في متناول اليد.

البنك الأهلي الباريسي مبنًى متواضعٌ جدًّا يتألف من ثلاثة طوابق. نوافذه القديمة الطراز مطليةٌ كلها باللون الأخضر بينما المبنى نفسه مطلي باللون الأحمر.

نظام حفر الشوارع في فرنسا يضمن الأمان للناس ولا سيما المشاة منهم؛ فأية حُفرة حتى ولو كان طولها مترًا واحدًا وعرضُها نصف متر، مثلًا، تُحاط في الحال من جميع الجوانب بسياج من الحديد يُعلق عليه فانوسٌ أحمر ليلًا لغرض التنبيه.

أصص الزرع الأخضر متناثرةٌ هنا وهناك يقيمونها أحيانًا فوق حافة الطوار. وقد يكون الأصيص صندوقًا طوله مترٌ واحد وعرضه حوالي ثُلث المتر. وتُوضع هذه الأصص واحدًا بجوار الآخر في صفوفٍ طويلة مع ترك مسافاتٍ معقولة تسمح بعبور المشاة واختراقهم لها.

وصلَت السيارة الآن إلى كورنيش البحر، ولاحظتُ أنها تسير في نفس الطريق الذي قطعناه بالأمس في رحلتنا إلى مدينة «كان» العظيمة.

المشرفة تتكلم في الميكروفون متمنيةً لنا رحلةً طيبة ممتعة إلى بلدة القديس بولس وإلى محراب دي روزير.

تخترق السيارة الآن شوارعَ ضيقة تمامًا، ورغم أن سيارتنا من حجم الأوتوبيس، إلا أنها تخترق هذه الشوارع الضيقة دون أدنى مشقَّة. وقد لاحظتُ النظافة المتناهية في هذه الشوارع الجانبية الضيقة لدرجة أنها يصحُّ أن تكون مثالًا يُحتذى به. وأدركت أننا نصعد جبلًا؛ إذ رأيتُ فجأةً أن المدينة كلها بمستوى أدنى من مستوى بصري وكلها مترامية الأطراف.

هاك وصفًا لأول مكان قمنا بزيارته وهو ذلك المحراب الذي قام بتزيينه ورسم زخارفه ونقوشه الرسام «ماتيس». وجديرٌ بالملاحظة أنه محظورٌ على الزائرين استعمال آلات التصوير داخل هذا المحراب. دخلتُ بهوًا متوسط الاتساع على حوائطه رسوم باللون الأسود — كروكي — على بلاط من القيشاني اللامع الصقيل. وبالداخل مكانٌ خاص بالكاهن يقوم فيه بالطقوس الدينية. مقاعد الكنيسة محدودة جدًّا تقلُّ عن العشرين مقعدًا. وملحق بالقاعة ممَرٌّ عليه لوحاتٌ محاطة بإطارات من الخشب، ومرسومة بالفحم. هذا المحراب الكنَسي في غاية البساطة والجمال معًا. لم يستغرق الوقوف على محتوياته أكثر من عشر دقائق. ولقد لفت نظري وجود صليبٍ كبير فوق سطح المحراب من الخارج. وهذا الصليب المصنوع من الحديد الثقيل الغليظ غريب الشكل والتصميم، يتدلَّى من نهايته السفلى ناقوسٌ متوسط الحجم. وهذا الصليب مُحلًّى بالأهِلة، به ثمانية أهلَّة تكوِّن أشكالًا هندسية بديعة. هذه هي أول مرة أرى فيها قطعةً فنية جميلة كهذه، سواء من الداخل أو من الخارج. حقًّا لقد أبدع الفنان عندما جمع بين الصليب والهلال في شكلٍ هندسي رائع.

كان سير الأوتوبيس بعد ذلك وئيدًا. وبعد فترة، طلبَت منا المرشدة أن ننزل لكي نشرب من صنبور يُقال إن الذي يشرب منه يسترد شبابه وصحته، فشربنا منه كلنا.

والغريب أنني لم أجد صنبور الماء مُحاطًا بأسوار أو حوله زحامًا وأناسًا يتكالبون أو يتصارعون، بل كان الماء يتدفق من صنبورَين رقراقًا صافيًا ونظيفًا باردًا كأنما قد أُحيطَت أنابيبه بقِطَع من الثلج. لم أجد ما يمنعني من أن أشرب كسائر الركاب؛ إذ كان الظمأ قد استبدَّ بي وأخذ منِّي كل مأخذ، علاوة على الصداع الذي كان يشجُّ رأسي؛ لذا ابتلعتُ مع الماء قرصًا من الأسبرو. كان بجوار صنبورَي الماء هذَين بعض المحال التجارية تبيع مصنوعات الخزف كتلك التي رأينا المئات منها في رحلة الأمس. غير أن أسعارها كانت أرخصَ كثيرًا من أسعار تلك.

دخلنا بعد ذلك معرضًا للفن السيريالزم كله تماثيل تُعطي أشكالًا لا يمكن تحديد مغزاها أو فهم معناها الذي ربما كان في بطن صانعها.

يضُم هذا المعرض أعمال الرسام بول كلي Paul Klee المولود في عام ١٨٧٩م، في الثامن عشر من شهر ديسمبر بمدينة ميونيخ، بالقرب من برن. وعَمِل في سنة ١٨٩٨م مع الفنانَين كنير Knirr وستوك Stuck، ثم سافر بعد ذلك إلى إيطاليا وإلى باريس، وعرض إنتاجه في كلٍّ منهما، فضلًا عن برن وميونيخ. وكان أول عَرْض له في أمريكا سنة ١٩٢٤م، ثم سافر إلى إيطاليا في عام ١٩٢٦م، وإلى فرنسا في سنة ١٩٢٧م، وإلى بريطانيا عام ١٩٢٨م، ثم مات في سنة ١٩٤٠م، في التاسع والعشرين من شهر يونيو.

بهذا المتحف آلاف اللوحات المصوَّرة بالألوان الزيتية والمائية والباستل وألوان أقلام الحبر. وقد عُلِّقَت على الحوائط لوحاتٌ ضخمة قد يصل اتساع الواحدة منها أربعة أمتار طولًا مع العَرْض المناسب. وقد تضمُّ اللوحة الواحدة حيواناتٍ وأسماكًا ورجالًا ونساءً وأطفالًا وبهلواناتٍ أيضًا.

تحيط بالمتحف حديقةٌ تتناثر فيها التماثيل الضخمة المصنوعة من الجبس، أشكالها غامضة، ولكنها تحتوي على فنٍّ ما، أصيل ولا شك.

دفعتُ ثمانية فرنكات أجرًا لدخول هذا المتحف؛ أي ما يقرب من دولارَين. ولا أظن أنني رأيتُ ما يستأهل أن أدفع فيه كل ذلك المبلغ. ورغم هذا، أعتقد أن الفن لا يمكن أن يُقدَّر بمال؛ فإن الفنان يرى الدنيا في صورة تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التي نراها نحن فيها. أما كيف يراها، فيتمثل فيما يُقدِّمه لنا من لوحات وتماثيل، نَعجِز جميعًا عن الإتيان بمثلها ولا شك.

هناك ساحةٌ فسيحة الأرجاء تمتدُّ إلى مسافاتٍ بعيدة في العَراء، وُضعَت فيها تماثيلُ غريبة الأشكال، تُمثِّل الإنسان، ولا أحد غير الإنسان. التماثيل كلها نحيلةٌ رفيعة في عود البوص، فترى جسم الشخص وساعدَيه وساقَيه. مرة في وضع يقف «زنهار» منتصب

القامة مستقيمها وقد ألصق ساعدَيه إلى جانبَيه، وضم ساقَيه وقدمَيه بشدةٍ بالغة، فيبدو أشبه ما يكون بالمومياء. وتراه مرةً أخرى وهو يخطو بقدمه إلى الأمام منحنيًا قليلًا إلى الأمام أيضًا.

وأكثر ما بهَرني هناك هو طريقة عرض اللوحات والتماثيل. كل شيءٍ في نظامٍ دقيق وذوقٍ رقيق وفنٍّ رفيع. قاعات العرض فسيحة جدًّا؛ لا تراكُم ولا تزاحُم، ولا تلاصُق ولا تشتُّت للجمال.

شاهدتُ في إحدى القاعات تمثالًا جميلًا بحق، منحوتًا من خشب غريب النوع. وكان هذا التمثال للسيد المسيح مصلوبًا. بدت لي تلك القاعة كأنها محرابٌ صغير، عُلِّقَت على جدرانه بعض اللوحات تُمثل كل لوحةٍ منها مرحلةً من مراحل العذاب الذي مرَّ به السيد المسيح وهو يمضي إلى الموضع المسمى جلجوثا الذي صُلب فيه. تُصوِّر هذه اللوحات الاثنتَي عشرة مرةً التي تعثَّر فيها السيد المسيح وهو يحمل الصليب الخشبي الثقيل. كان بالداخل أيضًا بعض المقاعد المصنوع هيكلها من الخشب، بينما صُنع موضع الجلوس فيها من القشِّ الرخيص، فغدَت شبيهة بالمقاعد التي نراها كثيرًا في بعض المقاهي البلدية الموجودة ببعض الأحياء البلدية بالقاهرة.

سألَتْني سيدة متوسطة العمر عن اللوحات المُعَلقة وطلبَت منِّي أن أُفسِّر لها المراحل التي مرَّ بها السيد المسيح في طريقه إلى الصلب، فعَجزتُ عن شرح ذلك لها بالفرنسية. ولما سألتُها عما إذا كانت تتكلم الإنجليزية قالت إن ولدها يتكلم الإنجليزية، وفعلًا رُحنا نتكلم أنا وهو، ولكني عجزتُ عن إمدادها بالمعلومات التي طلبَتْها لأن اللوحات كانت غامضة جدًّا. وإذ أدهشني إلمام ابنها باللغة الإنجليزية وهو لم يبلغ العاشرة من عمره بعدُ، قلتُ لها: هل تَعَلَّم هذا الصبي الإنجليزية في المدرسة؟ قالت: تعَلمَها في أستراليا التي سافر إليها مرارًا. ولما استفسرتُ منها عما إذا كانت فرنسية الأصل، قالت: نعم، أنا فرنسية المنبت، ولكني أُقيم في بلجيكا بلد زوجي.

خرجنا من المتحف وركبنا السيارة. وبعد قليل تركناها لنزور قريةً صغيرة تُدعى «سان بول سرفانس». دخلنا الأزقة غير المستوية السطح؛ إذ يرتفع سطحها إلى أعلى تدريجيًّا كالمرتقى. وأرض هذه الأزقة مُغطاة بالبلاط وبكراتٍ كبيرة الحجم من الزلط. كانت هذه القرية، بحاراتها وأزقتها وما يُحيط بها من الجانبَين من محالَّ تبيع العاديات والمصوغات والحلي، تشبه إلى حدٍّ كبير حي الصاغة وخان الخليلي عندنا، بالقرب من الأزهر وسيدنا الحسين، والأسعار بها مرتفعةٌ جدًّا؛ لذا لم يكن الإقبال على الشراء كبيرًا

... وحتى الأمريكيون أنفسهم لم يُقْبِلوا كثيرًا على الشراء. أكبر الظن أن حمل الأواني الخزفية بالطائرات قد يُعرِّضها للكسر والتلَف فضلًا عن ثقل وزنها؛ ولهذا السبب لا يُقْبِل السائحون كثيرًا على اقتناء هذه التحف رغم ما تنمُّ عنه من فنٍّ رفيع وصناعةٍ دقيقة تقرب من حدِّ الإعجاز من حيث الجودة والذوق والتنوع.

مضى الوقت المحدَّد لنا لزيارة تلك القرية، فعدنا أدراجنا إلى الأوتوبيس. سارت معي المرشدة الفرنسية، وهي فتاةٌ في عمر الزهر قد لا تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها ... سألتني عن جنسيتي، فلما أخبرتها بأنني مصري، قالت على الفور: الطقس عندكم حارٌّ الآن، أليس كذلك؟ قُلت: صدقتِ. فسألَتني عمَّا إذا كانت هذه القرية قد أعجبَتْني، فقلتُ لها: بعض الشيء ولكني لم أشترِ شيئًا بالمرة. قالت: ولماذا؟ ألم تعجبك المعروضات؟ قُلت: بلى، ولكني رأيتُ مثيلاتها بالأمس في قرية الخزف، وأنا لا أجازف بشراء شيءٍ ثقيل الوزن أولًا، وقابل للكسر ثانيًا. قالت: عندك حَق.

مرَرْنا، ونحن في طريق عودتنا، بقريةٍ جميلة جدًّا، اسمها «لاكول» خرج منها كاتبٌ يُدعى «يوجين سو» وضع كتابًا شهيرًا عنوانه «لغز باريس». كرَّمه أهل قريته بأن أقاموا له تمثالًا نصفيًّا من البُرنز، اعتزازًا وافتخارًا بأنه من أبنائها. رأيتُ تمثال ذلك الكاتب والنُّصُب المقام عليه، وتألمتُ في نفسي لأن شاعرنا العظيم أحمد شوقي المُلقَّب بأمير الشعراء، والذي لم يسلبه أحد إمارة الشعر حتى الآن، لم يجد التكريم والتبجيل إلا في عهد الرئيس السادات، نصير الفنون والآداب بشتَّى أنواعها. متى، يا تُرى، أرى تمثالًا ضخمًا لشوقي، في حرم جامعة القاهرة بالقرب من كلية الآداب، وآخر مُقامًا في أحد الميادين الهامة بالقاهرة، وليكن ميدان الجيزة مثلًا، وهو أقرب الميادين إلى بيته «كرمة ابن هانئ». يجب أن يرى أبناؤنا هذا التمثال ويسألوا آباءهم عن اسم صاحبه وأهميته والدور الذي لعبه فأقامت له مصر نُصبًا وتمثالًا. ينقصنا أيضًا تمثال للمرحوم عبد الحليم عبد الله، الكاتب الروائي الذي أتذكَّر أنه مات عقب مشاجرةٍ قامت بينه وبين سائق تاكسي حاول أن يُغالطه الحساب، فانفعل ذلك الكاتب وارتفع ضغط دمه وما لبث أن مات من شدة الانفعال الذي لم يتحمله قلبه الضعيف. وأين تمثال طه حسين والعقاد والمازني ممن أثْرَوا الأدب العربي والفكر العربي، وعلَّمُوا أجيالًا وأجيالًا، وستظل أعمالهم مشاعلَ وهَّاجة لعشرات من الأجيال المقبلة؟

كانت الرحلة موفقةً والحمد لله، رأيتُ فيها قِطاعًا جديدًا من الشعب الفرنسي، ألا وهو القطاع الريفي البسيط أو الساذج.

ذهبتُ في الثامنة مساءً إلى نفس المطعم الذي تناولتُ فيه طعام العشاء بالأمس، فأجلسني النادل إلى مائدةٍ قريبة من باربارا وجين، الفتاتَين الأمريكيتَين القادمتَين إلى نيس للسياحة، فتجاذبنا أطراف الحديث، فاتفق رأْيُنا على أن هذه البلاد جديرةٌ بالاحترام والتقدير؛ إذ يهنأ فيها السائح بالكثير وينعم بخيرات فرنسا الوفيرة. ذكرَت لي هاتان الفتاتان أنهما تعملان بالتمريض، وأنهما استأجرتا دراجةً بخارية لكي تجوسا بها إلى أقصى ما يمكنهما؛ إذ تريدان أن تشاهدا أكثر وأكثر. فقلتُ لهما: أما أنا فلا أستطيع أن أقود سيارة أو دراجةً بخارية في بلد لا أعرفه ولا أعرف شوارعه وقوانين المرور فيه، فابتسمتا. وفجأةً لبست جين على رأسها خوذةً حديدية للوقاية واستأذنتا في الانصراف، وجين تقول: نحن نتبادل القيادة، وقد جاء دوري الآن.

تركت المطعم وقُمت بجولةٍ سيرًا على الأقدام. لم أجد متعةً كبيرة في السير مسافاتٍ طويلة. السير مُتعبٌ والراحة منشودة ومرغوب فيها، فدخلتُ مقهًى، وما أكثر المقاهي في فرنسا، وما أكثر بذخها وحُسن المعاملة فيها! لم أجد لي مكانًا شاغرًا إلا بجوار فتاتَين بارعتَي الجمال، عرفتُ فيما بعد أن إحداهما تُدعى «إلزا» والأخرى «بريجيت». كانتا تتكلمان باللغة الألمانية، فحسبتُهما ألمانيتَين، ولكنهما قالتا إنهما نمساويتان؛ إحداهما طالبة طب والأخرى طالبة بكلية الآداب. غير أنهما يتكلمان الإنجليزية بطلاقةٍ ويُسر. أخذَت بريجيت تشكو من بيت الشباب الذي تُقيم فيه. كان في رأيها غير مريح على الإطلاق، وكادت تبكي من العذاب الذي تعانيه. أما زميلتها إلزا، فأبدَت ارتياحها من المكان الذي تُقيم فيه. سُرَّت الفتاتان أيما سرور عندما عرفتا أنني زُرتُ بلادهما في إحدى إجازاتي الصيفية؛ قالت بريجيت: «أتذكر أنني قرأتُ شيئًا عن تاريخ بلادكم في الكتب المدرسية. وأرجو أن أتمكن من زيارتها بعد عام أو اثنَين على الأكثر. بيد أننا نسمع عن عدم الأمان في شوارع القاهرة.» قُلت: الخطر موجودٌ في كل أنحاء الدنيا. أية فتاة تسير وحدها بعد منتصف الليل تُعرِّض نفسها للخطر، حتى في بلادكم، أليس كذلك؟ فهزَّت الفتاتان رأسَيْهما بالموافقة على ما قُلتُه.

انصرفَت الفتاتان مسرعتَين خشية ألا يُسمح لهما بدخول بيت الشباب؛ إذ آخر موعد لعودة الفتيات هو الحادية عشرة مساءً بالضبط.

مكثتُ وحدي بعد ذلك، وجلس إلى جواري مجموعة من الفتية والفتيات، كلهم في سن الشباب، لا يتجاوز أكبرهم العشرين من عمره؛ أي إنهم جميعًا في سن المراهقة. رأيتُ النادل يأتيهم بأقداح ضخمة جدًّا مملوءة بالبيرة، فيعبُّونها عبًّا، فيأتيهم بغيرها

من نفس ذلك الحجم الغريب، فيفعلون نفس الشيء. كانت الفتيات تشربن بشراهةٍ مذهلة. لم يُوحِ مظهر أولئك الجماعة بالثراء حتى ينفقوا هكذا بسخاء في فرنسا بالذات، وهي أغلى بلاد أوروبا قاطبةً بعد سويسرا تقريبًا. لقد عبَّ كل واحدٍ منهم ما لا يقل عن أربعة أقداح أو على الأصح أربعة كيزان؛ فالقدح منها في حجم الكوز الكبير. وعلاوةً على حجمها الكبير كانت ثقيلة الوزن. ولولا أنني رأيتُها بعينَي رأسي لما كنت أتصوَّر أو أصدِّق أن قِداحًا بذلك الحجم والوزن يمكن أن تُوجد إطلاقًا في أية بقعة من بقاع الدنيا. كانت هذه الأقداح جميلة الشكل تبدو مصنوعة من البلور الكريستال أو من الزجاج السميك النقي، لا بد أنْ كان حملها مرهقًا أيضًا لليد والأنامل البشرية، ولا سيما أنامل الفتيات الرقيقة الواهنة. كان الله في عون النادل المتمرِّن على «وزن الريشة».

جلسَت فتاةٌ أمريكية المظهر على مسافةٍ قريبةٍ من أولئك الشبان. بقيَت وحدها مدةً ما. وفجأةً انتصبَت واقفةً وسحبَت مقعدًا وانضمَّت إلى مجموعة السكارى هؤلاء، الذين سارعوا بأن طلبوا لها قَدحًا من البيرة، ما كاد النادل يضعه أمامها حتى شرعَت تعبُّ كما يعبُّ مضيفوها وبطريقتهم النهمة. لقد قبلوها وسطهم دون غضاضة. كفى أنها أمريكيةٌ وكفى أنها لا تمانع في أن تُجاريهم في لهوهم ومرحهم وعبثهم.

ظهر لنا فجأة شابٌّ أمريكي يكسبُ عيشه من العزف على قيثارةٍ كبيرة كان يُعلقها على كتفَيه. كان يعزف ويغني. لم يكن صوته جميلًا وكذلك عزفه. راح ذلك المسكين يعزف ويعزف، أولًا للفرنسيين الجالسين في المقهى دون أن يُلقي أحد إليه بالًا، فاقترب من مجموعة الشباب الأمريكي والمستهتر والسادر في غيِّه، الغارق في شرابه، إلا أنهم تركوه يعزف لنفسه دون أن يلتفتوا إليه. كانوا مشغولين عنه بالشراب المستمر والضحك والثرثرة. كنت أُراقب العازف الشاب وهو يُحملق في الأقداح العملاقة وهي تأتي مملوءةً لتعود بعد قليل خاويةً ويتكرر مجيئها ورجوعها. راقبتُه وهو ينظر إليها مليًّا في حسرة وتَعَطش، ولكنه كان رابط الجأش. لم يَكل ذلك الشاب ولم يتوقف بل استمر يعزف ويعزف، ويُغني ويُغني، وكأنه يعتقد أنه مُبدع العزف والطرب في الدنيا بأَسْرها. رثيتُ لحال ذلك الشاب المكافح النظيف، الفنان، والموسيقار بل والموسيقي الذي شغل نفسه، وهو في سن الشباب، بما هو أرقى وأسمى وأنفع من العبث واللهو والسكر والعربدة، فنفحتُه شيئًا ضئيلًا من نقودي المحدودة. لقد شعَرتُ بمأساة هذا الشاب المراهق، بل بمشكلة أهل الفن عمومًا، ولكني ما إن أعطيتُه قطعة النقود تلك، حتى رأيتُ غيري من الناس ينفحونه أيضًا، وكأنهم أحسُّوا مثلي بمأساة هذا الشاب المكافح أمام غلاء الحياة

الفاحش. ماذا تكون حال هذا الشاب عندما يعود إلى حيث ينام دون أن يكسب قوت يومه وأجر فراشه؟ تُرى ماذا تكون حاله وماذا ينتهي إليه مصيره؟ استراح قلبي عندما أيقنتُ أن هذا الشاب سوف يُمكِنه أن يشتري لنفسه شطيرة، في هذه الليلة، قبل أن يهجع أو ينام.

هممت بأن أترك المقهى، وعند ذلك كسرتُ كوب ماء بحركةٍ لا إرادية، فانحنى النادل يجمع بعناية قطع الزجاج التي تناثرت فوق الأرض. قلتُ له في لهجة تنمُّ عن الأسف: هل يمكنني أن أدفع ثمن هذا الكوب المكسور؟ فنظر إليَّ وقال: لا، يا سيدي. الكوب رحل. وسآتيك بغيره حالًا. فشكرتُه وانصرفتُ إلى حال سبيلي. وإذ كنتُ متعبًا مرهقًا، آثرتُ أن آوي إلى فِراشي بسرعة. وفعلًا، ما كاد السرير يضمُّني حتى استسلمَت أجفاني للنوم اللذيذ.

الباب السادس

كوبي من ميامي يحقِّق مرامي

في صباح الأربعاء حزمتُ جميع أمتعتي استعدادًا للسفر إلى إسبانيا. طلبتُ من موظفة الفندق أن تتصل بشركة الطيران «إير فرانس» لتأكيد حجز مكانٍ لي على مَتْن طائراتهم المسافرة إلى إسبانيا في ذلك اليوم، ولكن موظفة الشركة قالت إنني تأخرتُ كثيرًا عن ميعاد تأكيد الحجز وقد شُغلَت جميع الأماكن فليس لي مكان على الطائرة. غير أنها، بعد عذابٍ ونقاش ورجاء وتوسُّل، قبلَت وهي تنصحني بألا أقع في هذا الخطأ مرةً أخرى: يجب تأكيد الحجز قبل موعد السفر بمدة ٧٢ ساعة على الأقل. فشكرتُها.

كان عليَّ أن أقضي الصباح متجولًا خلال نيس لآخر مرة؛ فربما لا أراها بعد ذلك طول حياتي، ومن يدري؟ فقد أجيء إليها مرةً ثانية؛ فمثلًا، لا بد لي من أن أعود إليها في السابع والعشرين من هذا الشهر، فأبيتَ فيها ليلةً واحدة، أطير بعدها إلى أثينا باليونان، ولكني لا أعتبر هذه زيارة، بل مجرَّد محطة نوم لا أكثر ولا أقل.

عُدتُ إلى فندق أفينيدا في الساعة الواحدة لأحمل حقائبي وأنصرف، ولكن الموظفة نصحَتْني بأن أعود في الساعة الثانية بعد الظهر. كان أمامي ساعةٌ كاملة قضيتُها في جولةٍ بتلك المدينة. دخلتُ شوارعَ لم يسبق لي أن مشيتُ فيها. المتاجر كلها في مرتبةٍ واحدة من الرُّقي والذوق. لا يُوجد بينها متجرٌ واحد «نشاز» أو تبدو عليه أمارات الضعف المادي أو الذوق أو من ناحية الجمال والجاذبية.

كنت بمدخل الفندق في الساعة الثانية تمامًا حيث قابلَتني الموظفة بابتسامة، واستدعت لي تاكسيًا بالتليفون، على الفور، فجاء بعد دقائقَ معدودات. لم آخذ معي كل حقائبي، بل تركتُ حقيبةً واحدة أمانة بالفندق إلى أن أعود في السابع والعشرين من هذا الشهر الجاري.

لم يطلب السائق منِّي أكثر من ثلاثين فرنكًا دفعتُها له شاكرًا، وطلبتُ من أحد الشيَّالين أن يحمل حقائبي إلى حيث مكتب شركة إير فرانس، ففعل وطلب منِّي أربعة فرنكات. والنظام البديع الذي لفَت نظري هنا أنه مكتوبٌ بحروفٍ مطرَّزة على الجانب الأيسر العلوي من حُلة الشيال، عبارة «الحقيبة فرنكان». لاحظتُ هذا في المطارات وفي محطات السكك الحديدية، فيا ليتنا نأخذ بهذا النظام في مصر فنرحم المسافرين من جشع الشيالين وتعنُّتهم. إلى هنا وكل شيء يتمُّ بخير والحمد لله. إلا أنه عندما قدَّمتُ تذكرتي لموظفة الشركة ووضعتُ حقيبتي على الميزان، صاحت فيَّ تقول: عندك وزن زائد، عندك ١٥ كيلو زيادة على الوزن المسموح به، قد أتسامح في خمسةٍ منها، ولا بد من دفع أجر نقل العشرة الأخرى. وعبثًا حاولتُ إفهام تلك الموظفة بأن نقودي قد لا تساعدني على الدفع؛ إذ أصرَّت بشدة على الدفع، وحوَّلَتني بحركةٍ عصبيةٍ إلى الصرَّاف الذي طالبني بمائة فرنك، فانزعجتُ وأخبرتُه بأنه ليس معي سوى خمسين فرنكًا، فقال: إذن، فلن تسافر. فتَّشتُ في جيوبي فعثرت على عشرة فرنكاتٍ أخرى قدمتها له، فقال: عشرة لا تكفي. بحثتُ مرةً ثانية فوجدتُ عشرة فرنكاتٍ أخرى قدَّمتُها له صاغرًا وأنا أقول بانزعاج: هذا هو كل ما معي. عندئذٍ بدأ يُحرِّر الإيصال اللازم وأرفَقه بالتذكرة. وفجأةً اكتشفت أنني نسيتُ جواز السفر لدى الموظفة الأولى التي عند الميزان، فرجعتُ إليها بسرعة ولكني لم أجده عندها، وكان موضوعًا داخل كيس من البلاستيك هو والمفكِّرة التي أُدوِّن بها هذه المذكرات، فأخذتُ أجري كالمجنون من شبَّاكها إلى شبَّاك الصراف. أبحث هنا وهناك علَّني أجده ولكن دون جدوى. اختفى الكيس وبه جواز السفر والمذكِّرات. يا للمصيبة العظمى! هذه محنةٌ أدْهَى وأمَرُّ من محنة الحقائب. أظلمَت الدنيا في عيني وصارت أضيق من سَم الخِياط (الإبرة)، وضقتُ ذرعًا بالحياة ... فستقوم الطائرة بعد دقائقَ وأنا الآن بلا جواز سفر. أمامي الآن مشكلة لن أستطيع حلها ولا بشِقِّ النفس أو حتى طلوع العين؛ فلن أتمكن من السفر إلى إسبانيا أو إلى أي بلدٍ آخر، حتى بلدي مصر. بدأتُ أصرخ كالمأفون. سألتُ الموظفة عمَّا إذا كانت قد رأت الكيس النايلون. كنتُ أشعر في قرارة نفسي بأنها لم تمسَّه، لا هي ولا الصراف. غير أن أملي وروحي تعلقا بهما. تذكَّرتُ الحمَّال، فقلت في نفسي: ربما أكون قد تركت الكيس بمحتوياته فوق عربته الخشبية. رُحتُ أبحث عن الحمَّالين فلم أجد أحدًا منهم قريبًا عدا واحدًا لم يكن هو الذي حمل حقائبي. كان موقفي يدعو إلى الرثاء. اقترب مني أحد رجال الشرطة فاستنجدتُ به وأفهمتُه مشكلتي. فلم يرفع رأسه إلى وجهي،

ولكنه مشى معي مرةً أخرى من عند الموظفة إلى حيث نافذة الصرَّاف، فما إن رآني الصراف حتى صاح قائلًا: أنا لم آخذ منك شيئًا إلا النقود. قُلت: هذا صحيح، أنا لا أشك فيك، ولكن عساي أن أكون قد تركتُ جواز سفري سهوًا أمام نافذتك. وفي هذه اللحظة بالذات، حدث ما لم يكن في الحسبان، جاءت موظفة الشركة، من تلقاء نفسها، وفي يدها الكيس الذي به جواز السفر والمذكِّرات، وقالت: هاك الكيس. قالت هذا في غضب، فخطفتُ الكيس من يدها دون أن أسألها أين وجدَته ولا كيف وجدَته. لم يكن يعنيني كيف عثَرَت عليه. المهم أنني عثرتُ عليه بمحتوياته. كانت هذه لحظةً عصبية أخرى تعرَّضتُ لها. دعني أصارحك بأنها هزَّت كياني هزةً شديدةَ لم أُفِق منها، ولا حتى وأنا أكتب هذه السطور فوق ظهر الطائرة التي ستصل بي بعد ساعة وأربعين دقيقة إلى مدريد عاصمة إسبانيا؛ حيث أبدأ جولةً جديدة من رحلتي في قُطر من أشهر أقطار الدنيا جمالًا وسِحرًا وفتنة.

كانت الطائرة، في هذه المرة، أصغر حجمًا في تلك التي أقلَّتني من القاهرة إلى نيس. أنا الآن على متن طائرة من طراز «كارافيل»، تحمل ٨٦ راكبًا، بوسطها من الداخل ممَرٌّ واحد يفصل بين ثلاثة مقاعد على الجانب الأيمن ومقعدين على الجانب الأيسر.

كل شيء داخل الطائرة لونه «بمبي» صارخ. أما الستائر التي تفصل بين الدرجتَين الأولى والثانية وطاقم الطائرة، فكلها باللون البنفسجي. وزَّعَت علينا المضيفة الجوية أكياسًا بديعة الشكل من البلاستيك بداخلها «مكسرات» لذيذة الطعم جدًّا. يقوم الآن مضيفٌ جوي له شاربٌ كبير أصفر ولكنه جميلٌ منسق يتفق مع وجهه الباسم الضحوك. إنه يوزِّع على الركَّاب المشروبات التي يطلبونها سواء أكانت غازية أم روحية. لاحظتُ الآن أن للمضيف حاجبَين أصفَرَي اللون جدًّا. كل شيء في رأس هذا الرجل أصفر اللون بصورةٍ ملفتة للنظر.

تجلس إلى جواري الآن سيدةٌ إسبانية الأصل، لم أستطع التحدث معها لأنها لا تتكلم الإنجليزية ولا الفرنسية، ولا لوم عليها؛ فأنا أيضًا لا أتكلم الإسبانية. تجلس عن يميني سيدةٌ إسبانية أخرى ومعها ابنتها. لاحظتُ، وقد تكون هذه ملاحظةً خاطئة، أن للإسبان وجوهًا نحيلةً وأنوفًا طويلة، مدبَّبة الطرف أو مستديرة استدارةً خفيفة. أما لون البشرة فقمحي كلون بشرة المصريين تمامًا. سألتُ المضيف عن نوع العملة الشائعة في إسبانيا، فقال: البيزيتاس، وتُختصر إلى بيزيتا. ولما سألتُه عن قيمة الدولار بالبيزيتا اعتذر بأنه لا يعرف، فسألتُ السيدة الجالسة إلى جواري، وكنتُ أحسبها إسبانية، لعلها

تدُلني. وجدَت صعوبةً في فهم سؤالي ثم قالت أخيرًا إن الدولار يساوي ٣٦ بيزيتا. وبعد قليل فهمتُ أنها من كولومبيا بجنوب أمريكا، وليست من سكان إسبانيا. اشترك معنا الراكب الثالث الجالس بجوار مقعدَينا، وكان أمريكيًّا. سألتُه عن قيمة الدولار بالبيزيتا، فقال إنه لا يعرف القيمة بالضبط، ولكنه يُرجِّح أن الثمن قد يصل إلى مائة بيزيتا. وهنا التبس الأمر عليَّ تمامًا، ورأيتُ أن أنتظر لحين تحويل العملة من المصرف الموجود داخل المطار.

قدَّم لي مضيف الطائرة كوبًا من البيرة، ولكني قبل أن أشربه سألتُه عما إذا كانت المشروبات على حسابنا أو على حسابهم، فقال: كل شيء هنا، يا سيدي بالمجان. غير أن جاري الأمريكي طلب كأسًا من الويسكي فأخذ منه المضيف ثلاثة فرنكاتٍ فرنسية.

لم تقدِّم لنا الطائرة وجبة غداء، وهذا نادرًا ما يحدث. لقد أكلَت علينا شركة الطيران وجبةً ضرورية كنتُ في مسيس الحاجة إليها.

انتهزتُ فرصة اقتراب المضيفة منِّي وطلبتُ منها كيسًا من المكسرات كالذي سبق أن قدموه لنا ففاجأتني بأن أحضرَت لي كيسَين، فشكرتُها من كل قلبي؛ إذ كان الجوع يقضم أحشائي.

أخرجَت جارتي الكولومبية جهازًا حاسبًا (كومبيوتر) صغيرًا في حجم الكفِّ، وراحت تُجري عليه بعض العمليات الحسابية. استطعتُ أن أفهم منها أن ذلك الجهاز يعمل بالكهرباء، ولكنه يعمل الآن بالبطاريات، وأنه ما من شخصٍ في أمريكا لا يحمل جهازًا حاسبًا مثل الذي معها. كان جهازًا من ماركة «شارب». وكانت البطاريات به صغيرة جدًّا وغريبة الشكل قد لا تُوجد في أسواقنا المصرية.

يبدو جليًّا أن عالم التكنولوجيا سوف يكتسح العالم كله، وأن الآلات ستحلُّ محل البشر في يومٍ من الأيام. ويا لها من كارثة عندما تعمُّ البطالة المجنونة الشرسة جميع بلاد الدنيا! عندئذٍ ينقلب الناس إلى وحوشٍ كاسرةٍ ولصوص وقتلةٍ مجرمين. ومن يدري؟ ربما يجد الإنسان لنفسه باب رزقٍ جديدًا، ليس معروفًا لنا الآن.

أقبلَت على جارتي فتاةٌ على قَدْرٍ عظيم جدًّا من الجمال وتحدثَت إليها، فلم تلبث جارتي الكولومبية هذه أن فتحَت حقيبتَها وأخرجَت منها ورقةً مالية أعطَتها للفتاة، فسألتُ جارتي: هل أنتِ ماما وهذه ابنتك؟ ونطقتُ كلمة «ابنتك» بالإنجليزية، ففهمَت جارتي قصدي وقالت: لا، إنها «أميكا». تعني «صديقة». أمكنَني أن أفهم هذه الكلمة الإسبانية لأنها مشتقَّة من الكلمة اللاتينية «أميكا» للمؤنث و«أميكوس» للمذكر. كما أن

اللغة الإنجليزية أخذَت هذه الكلمة وصاغت منها كلماتٍ أخرى تُفيد معنى «الصداقة والأخوة». عنَّ لي أن أسأل جارتي عن اسمها فقالت «روزيا» ولعلَّها تقصد كلمة «روز» أو «روزا» بمعنى «وردة» بلغتنا نحن.

يتنقل جميع الركاب على ظهر الطائرة ويتكلمون وتَم الاختلاط والتعارف. معظم المسافرين أصدقاء أو أقارب أو عائلاتٌ مترابطة العلاقات بين أفرادها.

قائد الطائرة يُعلن اقتراب هبوطها في مطار مدريد. أخذَت الطائرة تهتز بشدة بين آنٍ وآخر. لاحظتُ الرعب يرتسم على وجه جارتي الكولومبية، فراحت تُصَلِّي. ولعل الله قد استجاب لصلاتها ودُعائها. ولئن أردتَ ألحق، فاسمح لي بأن أقول لك: ما أضعفَ الإنسان وهو في الفضاء، مُعلَّق بين الأرض والسماء، يطير بأجنحة لا يتحكَّم هو فيها، ويقوده عقل ليس عقله، وعيون ليست عيونه، بل يقوده إنسانٌ آخر مثله لو أخطأ لقتل عشرات الناس بلا ذنب اقترفوه ولا جريرة تورَّطوا فيها! قد لا تشعر بهذا الإحساس إلا وأنت في جوف طائرة تشُق طريقها وسط الهواء.

هبطَت الطائرة بسلام والحمد لله، فخرجنا منها في هدوءٍ تام. ومشينا قليلًا حتى بلغنا مبنى المطار. مطار مدريد ضخمٌ وفسيح وهائل. لم تكن الحركة به شديدة، ولكنه يدُل على عظمة إسبانيا متمثلة في مطاراتها المترامية الأطراف. سارت الأمور داخل المطار في سهولةٍ ويسر، وسيولةٍ عجيبة ونظامٍ رائع. قابلَني بعد مكتب الجوازات، مصرف المطار فحوَّلَت بعض ما معي من نقد أجنبي. أعطاني المصرف ٨٥ بيزيتا مقابل كل دولار. أي بسعر يقل ١٥ بيزيتا عن السعر الذي ذكره الأمريكي. وبعد مسيرة خطواتٍ قليلة، وجدتُ الموظف الذي يقوم بحجز الأماكن في الفنادق. وجدتُ كل هذه الخطوات الهامة ماثلةً أمامي قبل وصولي إلى مكان التقاط حقائبي. أرَتْني موظفة الفنادق ثلاثةً منها مصوَّرة من الخارج ومن الداخل، فوقع اختياري على فندقٍ فاخر، فاتصلَت به الموظفة فوجدَت لي فيه حجرة سعرها ٨٠٥ بيزيتا في الليلة الواحدة؛ أي ما يعادل عشرة دولارات تقريبًا. وكان هذا من فنادق الدرجة الثالثة في إسبانيا. قالت الموظفة: تستطيع أن تذهب مع هذا الشاب الواقف إلى جوارك هنا، فهو ذاهبٌ إلى نفس الفندق، ويمكنكما أن تتقاسما أجرة التاكسي. فأعجبَتْني هذه الفكرة خصوصًا وأنني لاحظتُ أن ذلك الشاب يتكلم الإسبانية بطلاقةٍ مذهلة. أغلب الظن أنها لغته الأصلية. مشى هذا الرجل إلى جواري أولًا، ثم أخذ يتلكأ ويتباطأ، مما جعلني أفهم أنه يخشى صحبتي لأنه لا يعرفني، فرأيتُ أن أشُقَّ طريقي بنفسي. كانت الموظفة قد نصحَتْنا بأن نأخذ الأوتوبيس

الأصفر حتى موقفه النهائي ثم نأخذ بعد ذلك تاكسيًا. وما إن خرجتُ من باب المطار حتى وجدتُ «جون بيرميس» يتفاوض مع أحد الحمَّالين، ولكن الحمال عندما أبصرني ترك جون واتجه نحوي، فاعتذرتُ له بأنني أُفضِّل أن أحمل حقائبي بنفسي إلى حيث يقف الأوتوبيس الأصفر. ورحتُ أتلفَّت يمنةً ويسرةً بحثًا عن ذلك الأتوبيس الأصفر فلم أجد له أثَرًا. تحدَّثتُ مع جون بالإنجليزية، فأفهمني أن الحمال يريد ٣٥٠ بيزيتاس كي ينقله وحده إلى الفندق بالتاكسي. ويريد الآن ٧٠٠ بيزيتاس كي ينقلنا كلَينا. ثم غمز لي بعينه يُناشدني ألا أقبل، وفعلًا رفضتُ تمامًا. سِرتُ وراء جون وعلى مسافةٍ منه، ليست بالقريبة، كما أنها ليست بالبعيدة. رأيتُ الأوتوبيس الأصفر، فتحاملتُ على نفسي وحملتُ حقائبي إلى هناك. وضعتُ الحقائب في مخزن السيارة الخلفي وصَعِدت، كما صَعِد معي جون بعد أن دفع كلٌّ منا ٣٥ بيزيتاس، فانطلق بنا الأوتوبيس داخل أنفاقٍ طويلةٍ ضخمة، وقطع مسافاتٍ طويلة داخل شوارعَ فسيحةٍ مارقًا وسط منازلَ ضخمةٍ كالطود. وأخيرًا دخل بنا في نفقٍ هائل تحت الأرض ثم وقف في موقفه النهائي حيث خرجنا، فوجدنا عددًا لا يُحصى من التاكسيات ينتظر ركاب الأوتوبيس القادمين من المطار، فركبنا واحدًا منها. وكان جون قد استفسر من سائق الأوتوبيس عن نظام التاكسي في إسبانيا. قال لي جون: ندفع ١٠ بيزيتاس عن كل حقيبة، ١٥ بيزيتاس عن كل فرد نظير ركوب التاكسي، ثم ندفع بعد ذلك ما يحسبه العدَّاد. اتفقنا على أن ندفع الأجر مناصفةً فيما بيننا. لم تكن المسافة قصيرة من موقف الأوتوبيس الأصفر إلى مكان فندق «ريزيدينسيا». وإذ شعَرنا بأن الفندق بعيدٌ عن وسط البلد. رأينا من الأوفَق أن نُلقيَ نظرةً على الفندق أولًا ونستفهم من موظف الاستقبال. أكَّد لنا الموظف — كما أطلَعنا على الخريطة — أننا نبعُد عن البلد مسافة تستغرق عشرين دقيقة، على الأقل، سيرًا على الأقدام، فسألته: هل تعرف فندقًا يقع في وسط البلد؟ قال: أعرف واحدًا. ثم اتصل تليفونيًّا بذلك الفندق، فأخبره الموظف هناك بأنه لا يُوجد حاليًا سوى حُجرة واحدة بسعر ٨٣٠ بيزيتاس، فوافقتُ في الحال، وحزنَني أنني سأنفصل عن جون إذ كنت أودُّ أن أفيد من إلمامه بالإسبانية كي يُسهل لي متاعبي وتحركاتي، ولكن جون أوصاني بأن أتصل به تليفونيًّا من الفندق الذي سأصل إليه لو أنني وجدتُه نظيفًا ولائقًا ومريحًا. كما أشار عليَّ بأن أحجز له حجرة بذلك الفندق من الغد، فوعدتُه بذلك.

سار بي التاكسي مدةً طويلة مخترقًا شوارع قد تضيق جدًّا جدًّا، إلى شوارع أخرى قد تتسع جدًّا جدًّا. وأخيرًا وصلنا إلى شارع جوزي أنطونيو حيث يقع الفندق. وعلى بُعد

عشرين مترًا من مدخل الفندق، أنزلني السائق، وطلب مني ٢١٥ بيزيتاس، علاوةً على المائة بيزيتاس التي أخذها من جون نظير نقله إلى الفندق الأول معي.

كان الفندق في الدورَين الثالث والرابع من مبنًى يُطِلُّ على الشارع العمومي، فراح السكان يتأففون وهم يرَوْن حقائبي أمام باب المصعد. كان هذا تعطيلًا لهم. استعملتُ الذوق أولًا ثم ثانيًا، ولكني اكتشفتُ أن الذوق لا ينفع، وسيتركني في مكاني إلى ما شاء الله ولا يدعُني أصعد إلى حيث يُوجد الفندق، فحسمتُ الأمر وصَعِدتُ أنا وحقائبي تاركًا السكان وقوفًا. استقبلَني موظف الفندق. كان إلمامه بالإنجليزية طفيفًا. أرشدَني إلى حجرة، ادَّعى أن سريرها لشخصَين مع أنه في عرفي لا يتسع إلا لشخصٍ واحد ليس غير، فأمر مساعده بأن يُرِيَني حجرةً أخرى فرأيتُ هناك سريرًا ضيقًا تمامًا، فآمنتُ بأن الرجل يصدُقني القول. كان أجر الحجرتَين واحدًا، فآثرتُ أن آخذ الحجرة ذات الفِراش الواسع.

طلبتُ من موظف الاستقبال بهذا الفندق أن يتصل بفندق صديقي، أو على الأصح زميلي جون، ففعل، ولكن للأسف لم يكن جون هناك إذ خرج لشئونه، فتركتُ له رسالةً مع الموظف المسئول.

خرجتُ لأول مرة إلى الشارع أستكشف المدينة فعثَرتُ على كافيتيريا تُقدِّم المشروبات الخفيفة كما تُقدِّم الطعام أيضًا. خُيِّل إليَّ أن أسعارها باهظة. وإذ وجدتُ نفسي وجهًا لوجه أمام النادل، تحدَّثتُ إليه بالإنجليزية، فردَّ عليَّ بالفرنسية، فحمدتُ الله على أنني وجدتُ أحدًا يعرف لغةً غير الإسبانية، فقلت له: أنا جائعٌ، هل الطعام عندكم غالي السعر؟ قال: لا. فخشيتُ أن أصدِّق كلامه ثم أقع في المحظور فأندم، فقلت له: أُفضِّل أن أتناول الآن شرابًا. جئني بأي شيء. فإذا به يأتيني بزجاجةٍ كاملة من النبيذ الأحمر. فسألتُه قبل أن يفتحها: كم تساوي؟ قال: ٣٥ بيزيتاس. فعرفتُ أن هذا سعرٌ مناسب ومعقول جدًّا لمثل هذه الزجاجة الكبيرة الحجم. فتح الرجل الزجاجة وصبَّ لي منها ملء قدَح صغير، وأفهمني أنه يمكنني أن أُعُبَّ من الزجاجة ما يطيب لي، ووضع إلى جوار الكأس قصاصةً صغيرة من الورق مدونًا بها الثمن، التقطتُها فوجدتُ السعر المكتوب هو السعر الذي قاله لي تمامًا: ٣٥ بيزيتاس. غير أن النادل ما لبث أن عاد وأخذ الزجاجة من أمامي ودخل بها الكافيتيريا. نسيتُ أن أذكُر لك أنني أجلس في المقاعد التي تطلُّ على الطريق العام. وبعد أن فرغتُ من الكأس الأولى سألتُه إن كان في مقدوري أن أتناول كأسًا أخرى من زجاجتي التي فتحتها منذ دقائق ثم حملتها بعيدًا، قال: طبعًا،

طبعًا. وجاءني بالزجاجة فعلًا وصبَّ لي منها ملء الكأس وانصرف ثم عاد إليَّ ووضع بجوار الكأس قصاصة الورق بالثمَن. عندئذٍ فقط أدركتُ الخطأ، وفهمتُ أن ثمَن الكأس الواحد ٣٥ بيزيتاس وليس ثمَن الزجاجة الكاملة.

جلس إلى جواري شابٌّ إسباني مع حبيبته الفاتنة. وكانت شمس النهار تُشرِق ساطعةً قوية رائعة بينما ساعتي تُشير إلى التاسعة والنصف مساءً فخشيت أن يكون هناك فرق في الوقت بين فرنسا وإسبانيا، فسألتُ ذلك الشاب عن الساعة فأجابني بأنها التاسعة والنصف مساءً أي مثل ساعتي تمامًا، وأراني ساعته، فسألتُه عن فندقٍ رخيص، فوصف لي واحدًا لا يبعُد كثيرًا عن فندق ماجستيك الذي نزلتُ بهن، فعوَّلتُ في نفسي على أن أبحث عنهم، وسألتُه عن مطعم رخيص الأسعار فلم يستطع أن يدُلني. كانت حبيبته «لورديس» تفهم الفرنسية، أما هو، واسمه «ليجو» فكان لا يعرف غير الإسبانية. ومع ذلك، كان يُحاوِل أن يفهم ألفاظي الفرنسية. ويبدو أنه فهمها؛ لأنه كان يُجيبني بما يفيد أنه فهم مضمونها. كان هذا أول احتكاكٍ لي مع الشعب الإسباني، خرجتُ منه بأنه شعبٌ متعاون ومساعد إلى حدٍّ كبير.

غادرتُ ذلك المقهى لأبحث عن الفندق الذي وصفَه لي ليجو، ولكنني التقيتُ في الطريق بمطعمٍ تفوح منه رائحة الطعام شهيةً لذيذة جذَّابة، فلم أستطع مقاومتَها ودخلتُ. لم يفهم أحد كلامي، وفجأةً ظهر لي شابٌّ مفتول العضلات، كان واقفًا مع الآكلين، وخاطبَني بالإنجليزية في طلاقة. أفهمتُه مشكلتي، فتطوَّع مشكورًا، بأن يُساعِدني. أشار عليَّ ببضع أكلاتٍ اختارها لي ... راقَتني هذه الأكلات فأجلسوني في الحال إلى مائدةٍ مستديرة أشبه ما تكون بوضم الجزار الذي يقطع عليه اللحم ويكسر العظام، ولكنها كانت أقل ارتفاعًا من الوضم.

جاءني النادل بقِطَع من لحم الضأن داخل سفُّود من الحديد. كان ذلك اللحم طيبًا جدًّا ولذيذًا وشهيًّا، ثم أحضر لي طبقًا من شرائح السجق فوجدتُها هي أيضًا طيبة المذاق وكان لونها أحمرَ غريبًا، ولكنها لم تكن حريفةً بالمرة. وبعد ذلك جاءني بطبق من الفخَّار به سمك بكلاه غارق في مرقٍ أبيض اللون لم أذق له مثيلًا في حياتي من حيث الجودة ولذة الطعم وحلاوة النكهة.

بعد أن انتهيتُ من تناول وجبة العشاء التي كلفَتْني ٣٠٠ بيزيتاس غير البقشيش؛ أي أكثر قليلًا من ثلاثة دولارات ونصف. جاءني الشاب الكوبي الذي رفض أن يُفصِح لي عن اسمه، وأصَرَّ على أن أُسمِّيه «صديقًا كوبيًّا من ميامي»، وسألني عن الطعام

الإسباني وهل أعجبني، فقُلت: الطعام لذيذٌ جدًّا وشهي وطازج وجيد الطهو. قال: أنا أتردَّد على هذا المطعم كل يومٍ آكل فيه ما تشتهيه نفسي. وفجأةً سألَني عن اسمي وعن جنسيتي، فقُلت: «مصري من القاهرة.» قال: من بلد السادات؟ قلت: نعم. قال: إنني معجبٌ غاية العجَب بشجاعة السادات، وأعتقد أنه رجلٌ مُخلصٌ يريد أن يُنهي الخلافات التي بينكم وبين إسرائيل حتى لا تتعرَّضوا لحروبٍ جديدة تُرهِقكم بشريًّا واقتصاديًا. تحية منِّي إلى شخصه العظيم. فشكرتُه ودهشتُ لاطلاعه على مشكلة الشرق الأوسط وما يجري فيها. قُلت: تقول إنك كوبي، هذا مفهوم ولكن كيف تكون كوبيًّا من ميامي، وميامي في الولايات المتحدة الأمريكية؟ فضحك وقالت: أنا كوبي من بلد الزعيم كاسترو، غير أنني أُقيم في ميامي بأمريكا. قُلت: هل أنتَ هنا في إجازة، ولماذا اخترتَ إسبانيا بالذات؟ قال: هنا أستطيع أن أتفاهم مع الناس لأنني أتكلم معهم بلغتهم، ولا أجد مشقَّةً في الحياة بينهم. كما أنني أحِب الطعام الإسباني؛ إذ يختلف عن الطعام الأمريكي، وطريقة تقديمه جذَّابة. ثم سألني بقوله: كنتَ منذ لحظات تكتب، فهل أنت كاتبٌ؟ قُلت: لا، بل أُسجِّل خواطري ومشاهداتي إبَّان رحلتي. قال: وهل ستُدوِّن الحديث الذي دار بيننا؟ قُلت: بالطبع، لأنه لولاك ما أمكنني أن أتفاهم مع أصحاب هذا المطعم، ولما حظيتُ بالوجبة الشهية التي تناولتُها. قال: أشكرك على هذا الشعور، ولكنني سعيد، في الواقع، إذا قدَّمتُ لك هذه المساعدة البسيطة. على فكرة، قد أزور القاهرة في نهاية هذا العام، فهل تُشجِّعني على ذلك أم لك رأيٌ مخالف؟ قُلت: مرحبًا بك في مصر أم الدنيا. ثم قدَّمتُ له بطاقتي وعليها اسمي وعنواني ورقم تليفوني وألححتُ عليه في أن يتصل بي بمجرد وصوله إلى أرض القاهرة. شكرني هذا الصديق الكوبي من ميامي، وشدَّ على يدي مودِّعًا.

خرجتُ من المطعم وبدأتُ أبحث عن الفندق الرخيص الذي دلَّني عليه السيد ليجو. كان قد ذكَر لي أن الفندق يقع قريبًا من مكتبة «لاميبا» فسألتُ أكثر من شخص من أهالي مدريد عن هذه المكتبة، ولكنهم جميعًا عجزوا عن إرشادي إلى مكانها؛ لذلك، عُدتُ أدراجي إلى فندقي حيث أخذتُ حمامًا ساخنًا، واستسلمتُ إلى نومٍ لذيذ، فلم أستيقظ إلا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

الباب السابع

مدريد فخمة بمبانيها الضخمة

هرعت إلى قاعة الطعام الملحقة بالفندق كي أتناول طعام الإفطار. القاعة الفاخرة وثيرةٌ دافئة. كل شيء فيها لونه أخضرُ داكن، وفي أحد جوانبها بار لا يفصله عن موائد الطعام إلا حاجز من خشب الأبنوس المُحلى بالنقوش العميقة الحفر.

يقوم بخدمة جميع نزلاء الفندق الراغبين في تناول طعام الإفطار نادلٌ واحد فقط. كان دائب الحركة كالمكوك، لا يتوقف أبدًا. كان يخدم النزلاء بالدور، فطال انتظاري أكثر من ساعة. رثيتُ لحال ذلك الرجل. لا يكاد ينتهي من خدمة الجالسين حول إحدى الموائد حتى يتركوها، ويُزيل ما عليها من أطباق وملاعق وشوكات ومفرش، فإذا بنزلاء جُدد. ومن جديد يضع مفرشًا نظيفًا آخر ويأتي بأطباق وأكواب وفناجين وملاعق وشوكات نظيفة وأباريق مليئة بالشاي وباللبن وبالماء، وملَّاحات وفُوَط من الورق ... إلخ إلخ.

بعد الإفطار، عوَّلتُ على أن أبحث عن مكتب سياحةٍ داخلية. فسألتُ موظف الاستعلامات بالفندق، وكان رجلًا غير الرجل الذي استقبلَني بالأمس، فحَمِدتُ الله على أنه كان يفهم الإنجليزية ويتكلمها بسهولةٍ أكثر من الموظف السابق، فقُلت له: هل لك أن تدُلني على مكتب سياحة كي أقوم بزيارةٍ سريعة داخل المدينة استكشف فيها معالمها الأولى؟ قال: يمكنكَ أن تحجز تذكرةً من عندي. وفي الحال، أخرج تذكرةً وطلب مني ٤٠٠ بيزيتاس ثمنًا لها؛ أي حوالي خمسة دولارات، فدفعتُها له ثم سألتُه: هل سيأتي الأوتوبيس إلى الفندق ليأخذني؟ قال: لا، بل أنت الذي تذهب إليه وستجده منتظرًا أمام رقم ٦٨ من هذا الشارع الذي به الفندق. إنها شركة «جوليا» التي تقوم بهذه الخدمات للسائحين. رأيتُ من الأصوب والأفضل أن أبحث عن مكان هذه الشركة أولًا حتى لا أتأخر عن الميعاد المحدَّد وهو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. وكانت مدة الجولة

ثلاث ساعات فقط. لم أجد عناء في العثور على مَقَر الشركة فأفهَمَني الموظف المسئول بها أن الأوتوبيس ينتظر الجميع أمام مقر الشركة، ثم نصحَني بأن أقوم برحلةٍ أخرى إلى طليطلة؛ إمَّا لقضاء يوم كامل بها، أو لمدة نصف يومٍ فقط، ولكل رحلةٍ سعرها طبعًا.

بعد أن هدأ بالي ورتَّبتُ خطة سيري لعصر ذلك اليوم، قمتُ بجولة على قدَميَّ فيما يعتبرونه أكبر شوارع مدريد، ألا وهو شارع «جوزي أنطونيو». يتحمل عرض ذلك الشارع مرور ست سيارات في آنٍ واحد، ثلاث منها جيئة والثلاث الأخرى ذهابًا. أما كل طوار فعرضُه قد يصل إلى أحد عشر مترًا. المباني ضخمةٌ عالية على الجانبَين؛ بعضها عتيقٌ كالح اللون، بينما البعض الآخر جديدٌ زاهي اللون. وأما المتاجر فتملأ الشارع بأكمله. والإسبان يعرضون بضائعهم عرضًا لا بأس به، ينمُّ عن كثير من الذوق الراقي. وصناعة الأحذية هنا متقدمةٌ جدًّا، غير أن أسعارها باهظة جدًّا. وكذا الملابس غالية الثمن بدرجةٍ مذهلة. المطاعم والمقاهي في غاية البذَخ وفَرْط الزخرف، والأسعار فيها محدَّدة، وخصوصًا أسعار المشروبات بكافة أنواعها العادية والروحية، والنادل الإسباني لا ينتظر منك نفحة، ولكن يسُرُّه أن يحظى منك بشيء مهما قلَّ مقداره. ويتحلَّى النادل بالأدب الجم. أنت هنا حُرٌّ سعيد، لا أحد يتدخل في حريتك الشخصية، لا أحد يقترب منك مستغلًّا كونك أجنبيًّا غريبًا عن البلد. إنها بحق بلادٌ آمنة جدًّا. الشوارع غاصَّة بالسياح من جميع أنحاء الدنيا. معظم السائحين من الأمريكيين، يفدون في صورة عائلاتٍ كاملة؛ الأب والأم والأولاد. الأمريكي لا يتحرك إلا وعينُه على الخريطة. يقرؤها ويستطيع الوصول بواسطتها إلى الأماكن التي يرغب في مشاهدتها، بسهولةٍ ويُسرٍ دون أن يُضطَر إلى سؤال غريبٍ قد يُضَلله أو لا يفهمه. حقًّا، ما أمهَرَ الأمريكيين في شئون السفر والترحال وفن الانتقال من مكانٍ إلى آخر! ومما يؤيد هذا القول، أن «جون» الأمريكي الذي التقيتُ معه بالأمس، كان يحمل معه كتابًا ضخمًا فيه كل شيء عن إسبانيا؛ بلدًا بلدًا، فيه قوائمُ كاملة بأسماء الفنادق وعناوينها وأسعار حُجراتها. هذا الكتاب موسوعةٌ عظيمةٌ تُساعِد المسافر إلى إسبانيا على عدم التورُّط في شيءٍ يجهله.

ذهبتُ إلى مكتب شركة السياحة في الثالثة والربع، فوجدتُ حشدًا هائلًا من الناس تجمَّع أمام شركة «جوليا»، وكانت الأوتوبيسات العديدة في الانتظار.

ازدحَم الأوتوبيس الذي رَكبتُه، وامتلأَت جميع مقاعده بالركاب. بدأ المرشد الإسباني كلامه إلينا بأن تمنَّى لنا رحلةً سعيدة موفقة نشاهد فيها معالم مدينة مدريد عاصمة إسبانيا.

بدأ الأوتوبيس سيره في شوارعَ ضيقةٍ كثيرة التقاطعات. لاحظتُ أن الشوارع الجانبية والفرعية لا تقل نظافة عن الشوارع الرئيسية.

شاهدت تمثالًا للكاتب الإسباني الذائع الصيت والكثير التصانيف «سرفانتس» الذي كتب القصة المشهورة «دون كيشوت» الزاخرة بالخيال الرائع والدعابات الكثيرة اللطيفة.

نحن هنا أمام دار الأوبرا الملكية، المبنى ضخمٌ جدًّا، أبيض اللون، تحيط به مجموعة من التماثيل تُزيِّن جُزأه العلوي.

مَرَرنا بميدان يشبه إلى حدٍّ كبير ميدان العتبة الخضراء في مصر، تقوم فوق أحد مبانيه ساعةٌ ضخمة وتتوسَّطه نافورةٌ ضعيفة المنظر والمظهر.

أمامي الآن البرلمان الإسباني، والمرشد يقول لنا إن الملك كارلوس، مليك البلاد، سوف يفتتح البرلمان الجديد قريبًا. يقع البرلمان القديم في ميدان «لاس كورتيس» الشهير.

تقوم في أحد الميادين نافورةٌ بالغة الضخامة بداخلها تمثال بوسايدون إله البحر عند اليونان، يحمل رمحه الثلاثي الشعاب، ويقود أفراسه القوية والجامحة والشرسة.

توقف الأوتوبيس أمام المبنى الرئيسي للبريد، فلاحظتُ أن صناديق البريد كلها من النحاس الأصفر اللامع، فتبدو للعين كأنها مصنوعةٌ من الذهب النضار.

أرى الآن قوسًا من أقواس النصر ضخمة الحجم ولكنها لا تصل في جمالها إلى ما وصلَت إليه قوس النصر القائمة بمدينة باريس، والتي تُعتبر من أشهر معالمها التي ينبغي على السائح ألا تفوته رؤيتها. وحدث أن رأيتُها في مرة سابقة في يوم ١٤ يوليو؛ أي يوم عيد الجمهورية الفرنسية، وقد مرَّ بجانبها العرض العسكري احتفالًا بذلك العيد، وهاك الوصف الذي أذكُره:

في الساعة العاشرة صباحًا مرَّت من فوق قوس النصر بميدان الشانزلزيه محطة «إتوال دي جول»، ثلاثُ طائراتٍ حربية ضخمة؛ يخرج من مؤخر اليمنى تيار من الغاز الأحمر يتكون منه شريطٌ طويل، ويخرج من الطائرة الوسطى غازٌ أبيض ناصع البياض، ومن الطائرة اليسرى غازٌ أزرق، فيتكون من هذه الشرائط الغازية الثلاثة علَمٌ فرنسي يملأ سماء باريس ويستمر لمدةٍ طويلة. وبعد تلك الطائرات، أسرابٌ من مختلف أنواع الطائرات الحربية الكثيرة الأشكال والأحجام ظلت تُحلق بعضها خلف بعض لمدة ساعتَين. ومن لطيف ما رأيتُ أسرابُ الحمام الأبيض، كل سربٍ يتألف من مئات الحمامات، تخرج من قمة القوس وتطير في الجو وكأنها تريد أن تُنافِس الطائرات، ولكن هيهاتَ لها. المهم أن منظرها كان طريفًا بديعًا. وعلى الأرض بدأَت

شتَّى فرق الجيش تسير في نظامٍ بديع، وبالطبع كان بالعرض فرقةٌ رمزية من كل نوع؛ المشاة والصاعقة والبحرية وغيرها. وبعدها جاءت فِرق السيارات المدرعة وأنواعٌ كثيرة من السيارات الحربية لم أعرف نوعها ولا الغرض منها. وبعد تلك جاءت مختلف أنواع الدبابات أخذَت تمرُّ مدةً طويلة وكأنها لا تنتهي. وبعدها جاءت سيارات المدافع المضادة للطائرات وسيارات الرادار وشتَّى أنواع المدافع التي يُخطئها الحصر، وجاءت فرق الإسعاف والإنقاذ والإطفاء. كل هذا يسير في نظامٍ رائع إلى جانب قوس النصر. وما أثار إعجاب الألوف المؤلفة التي اجتمعَت لمشاهدة ذلك العرض، هو البوليس النسائي، فتيات باريسيات بارعات الجمال والفتنة والإغراء في زيٍّ موحد جميل المنظر وقد وضعن القبعات على رءوسهن بصورةٍ جذابة، يسرن برشاقة في مشيةٍ عسكرية أيديهن تتحرك معًا كأنها يدٌ واحدةٌ وأرجلهن تتحرك معًا، والحق يُقال إن منظر العرض العسكري كله كان في كفَّة ومنظر البوليس النسائي وحده في كفَّةٍ أخرى ترجح الكفة الأولى. وما يدعو إلى الإعجاب والتقدير أن كل تلك الحشود الهائلة من المتفرجين كانت تقف في نظامٍ بديع لا ترى واحدًا يزاحم غيره أو يدفعه، بل الكل واقفٌ في مكانه لا يتحرك.

دخل بنا الأوتوبيس حديقةً ضخمة تقوم بها تماثيل من العاج سامقة الارتفاع؛ بعضُها لنساءٍ شهيرات، وبعضٌ آخر لقوَّاد حروب يمتطون صهوات جيادهم الحربية القوية العضلات.

رأيتُ بداخل تلك الحديقة جزءًا منها خاصًّا بالأطفال يلعبون فيه، وهو مزوَّد بالكثير من الأراجيح المتنوعة والزحافات وبكل ما يُكسِب الطفل قوة ونشاطًا منذ نعومة أظفاره. يذهب الأطفال إلى تلك الحديقة بصحبة أمهاتهم، ينعمون باللعب الهني، ويتمتعون بقضاء وقت بهجةٍ ومرح.

تركونا نتجوَّل في أرجاء هذه الحديقة البالغة الاتساع والبعيدة الأطراف، والتي يُخيَّل إليَّ أنها في اتساع متنزَّه «هايد بارك» بلندن، مع الفارق في الاستعمال.

تتوسَّط هذه الحديقة بحيرةُ ماءٍ ضخمة تطفو على سطحها الزوارق والقوارب؛ بعضُها من المطاط، وبعضٌ آخر من الخشب، وبعضٌ ثالث من المعدن، تتهادى فوق صفحة الماء تهاديَ الفتيات الحسان، يركبها الشباب والصغار للمتعة والترفيه عن النفس. ولعل بحيرة مريلاند عندنا بمصر الجديدة، صورةٌ مصغَّرة من هذه البحيرة الصناعية التي دبَّجَتها يد الإنسان وأودعَت فيها كل ما يُدخِل السرور والبهجة على النفوس، وتبدو متعة للعين بجمالها وروائها وجوِّها الذي يوحي بشواطئ البحار.

على أحد جوانب هذه البحيرة مبنًى جميل المنظر يتألف كله من أعمدةٍ رخامية تحمل فوق تيجانها تمثالًا ضخمًا للملك ألفونس الثاني عشر وهو ممتطٍ صهوة جواده شامخَ الرأس مرفوعَ الهامة. المبنى كله ناصع البياض. أما التمثال فمن البرُنز الداكن السواد. وتتناثر حول القاعدة عددٌ من التماثيل الرخامية لأسُودٍ رابضةٍ تُوحي إليك بالقوة والجبروت، وتنعكس على أجسامها أشعة شمس الأصيل، فتبدو حمراء كاللهب، ولعل هذه هي التي وصفها الشاعر بقوله:

وتخالها والشمس تجلو لونَها نارًا وألسنها اللواحس نَورًا

أفهمَني النادل أن الملك كارلوس، ملك إسبانيا الحالي، من ذرية الملك ألفونس، الذي أرى هنا تمثاله الشامخ. إنه جده الثالث.

انتهزتُ فرصة عودتنا إلى الأوتوبيس والتقائي بالمرشد الإسباني، فرجوتُه ألا يُكثر من الشرح باللغة الإسبانية، خصوصًا وأن جميع الركاب يتكلمون الإنجليزية فأبدى الامتعاض وقال في صلَف: الإسبانية لغتي وأنت الآن في إسبانيا. لستُ مسئولًا عن لغتك. لو أنكَ ذهبتَ إلى نيويورك مثلًا، لخاطبك المرشد بالإنجليزية. فيجب أن تحمَدَ الله على أنني أشرح لك أحيانًا، بعض ما تراه، بالإنجليزية. فتعجَّبتُ من منطق هذا الرجل الجاهل ومن لهجته البعيدة عن الذوق واللياقة. لقد نسي حضرتُه أن الرحلة لسياح أجانب معظمهم من الأمريكيين وليست لأهل البلد الإسبان حتى يشرحَ لهم بلغتهم. جميع شركات السياحة في العالم تستخدم مرشدين يعرفون لغاتٍ أجنبية ليُشجِّعوا السياحة والإقبال على شركاتهم أو يستخدمون أشرطة بعدة لغاتٍ تشرح في سماعات بأية لغة يريدها السائح.

ذكَّرني ذلك المرشد الجلف الجاهل، بنظام السياحة في اليونان، وكيف أنهم يُقسِّمون السياح إلى أفواج حسب لغاتهم، فيذهب مع كل فوج مرشد أو مرشدة يتقنان لغة الركاب، سواء أكانت الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الإسبانية أو غير ذلك. وفضلًا عن هذا فإن المرشدة اليونانية لا تخاطبك باللغة اليونانية إطلاقًا. إنها تنسى تمامًا لغتها الأصلية. وهذا النظام في نظري رائعٌ يرقى بفن السياحة ويجعلها مُجديةً مفيدة للسائح الذي تجشَّم المتاعب، وركب الأخطار، وكلَّف نفسه كل هذه النفقات كي يفهم ويتعلم شيئًا جديدًا.

تتجه السيارة بنا الآن إلى حي «سالامنكا» بمبانيه القديمة العتيقة التي شُيِّدَت في بداية هذا القرن؛ أي مضى عليها الآن ما لا يقل عن ستين أو سبعين سنة.

حتى الآن، لم أبصِر شيئًا يستَحِق التسجيل، كل شيء عادي، مبانٍ ضخمة ومتاجرُ عديدة وسياراتٌ لا حصر لها، رابضة أو جارية. غير أن الشيء الوحيد الذي لفت نظري فعلًا هو نظافة الشوارع جميعًا، مهما يكن طولها قصيرًا أو عرضها ضيقًا. كما أن المباني شاهقة ضخمة. حقًّا، إن عينك لا تقع على فيلَّا أو على منزلٍ صغير هزيل قليل الارتفاع. لفت نظري مبنَيان بالغا الضخامة خاليان تمامًا من الشُّرفات والنوافذ، وهذا أمرٌ لم أرَ مثله في أي بلدٍ من بلاد الدنيا.

من أجمل النافورات، تلك النافورة التي تُطلِق المياه عاليًا فتسقط فوق مجموعة من الدلافين، فتقفز هذه في الفضاء منطلقةً كالصواريخ من قلب مياه النافورة.

تتَّجه بنا السيارة الآن إلى حي التسويق، أو على الأصح حي المنطقة التي تُناظِرها عندنا منطقة شارعَي قصر النيل وسليمان باشا. لم يكن ذلك الحي الإسباني مزدحمًا بالناس بالصورة المؤذية التي وصل إليها الحال عندنا.

من أجمل المباني التي شاهدتها في جولتي هذه، تلك المباني التي شُيِّدَت من أولها إلى آخرها من الزجاج، والغريب أنها عاليةٌ بحقٍّ ليس لها حوائط من الطوب، بل كلها من الزجاج الخالص، وبذا صار منظرها جميلًا طريفًا جذابًا، ولكن يا ويل من كان بيته من زجاج!

نظام الأنفاق متقدِّمٌ جدًّا في إسبانيا. وقد راقني أن لاحظتُ أن جميع الأنفاق التي تجري تحت الأرض، على الرغم من طولها الواضح، نظيفة جدًّا. وكنتُ أراها أحيانًا متشعبةً متقاطعة متفرقة كأنها أخطبوط ذو مئات الأذرُع.

نسيتُ أن أذكُر لك شيئًا عن الطقس، الشمس هنا ساطعةٌ حارقة كشمس مصر تمامًا، الجو جميلٌ مُحتمَل في الظل. والرطوبة تكاد تكون معدومةً فلم أشعر بوجودها إطلاقًا؛ لذا يمكنني أن أعتبر أن الطقس هنا محتمل وليس عندي أي تعليقٍ عليه. والشمس تغرُب هنا في ساعةٍ متأخرة جدًّا من الليل، والنهار بالغ الطول.

ذهبنا إلى حي الجامعات الإسبانية وما يُحيط بها من حدائقَ شاسعة. رأيتُ مبنى كلية الطب وكلية العلوم، ومبنى قسم الأحياء. وكلها مبانٍ ضخمةٌ قوية. كما رأيتُ كلية الفنون الجميلة. كانت المباني كلها خالية من الأساتذة والطلبة، بل والمارة أيضًا. ولا تقل كلية الاقتصاد عن مثيلاتها من الكليات الأخرى. وحي الجامعات فسيحٌ واسعٌ جدًّا لا يمكن قطعه سيرًا على الأقدام بسبب اتساعه العظيم.

كذلك رأيتُ كلية الآداب، والملاعب الشاسعة التي يُمارس فيها الطلاب رياضاتهم التي يَهوَونها، كالسباحة والتنس والجمباز. وليست مباني الجامعة كلها من طرازٍ واحد، بل كان لكل كليةٍ شكلها الخاص الذي يميِّزها عن غيرها.

أمامي الآن التليفريك يجري فوق أسلاكه الممتدة عَبْر الفضاء. منظره جميل جدًّا؛ فهو صندوقٌ مقفل يجري معلَّقًا على سلكٍ متينٍ من الصُّلب مشدودٍ بين نقطتَي الابتداء والانتهاء. وغالبًا ما تكون إحدى النقطتَين أو كلتاهما على جبل أو تلٍّ. وهم يستعملونه هنا للترفيه لا أكثر ولا أقل، أي كضربٍ من ضروب النزهة والتسلية. أما في سويسرا مثلًا فيستعمل كوسيلة انتقالٍ أساسية بين الجبال. وهناك تجده من أنواعٍ متعددة وأشكالٍ متباينة؛ منه المقفل والمفتوح، والصغير والكبير، كما أنه من ألوانٍ عديدة.

أخذَنا المرشد إلى كازينو كي يشرب كل واحدٍ منَّا شرابًا خفيفًا على نفقة الشركة. كان علينا أن نُبرِز تذكرة الأوتوبيس. ولعل هذا هو خيرُ ما خرجنا به من هذه الجولة.

تجاذبتُ أطراف الحديث مع جاري في مقعد الأوتوبيس، فإذا به رجلٌ إنجليزي من لندن. كان رأيه كرأيي من أنه لا يُوجد أي شيءٍ غريب أو طريف في مدريد يمكن للمرء أن يستمتع برؤيته؛ فهذه المدينة العظيمة عبارة عن شوارعَ لا أول لها ولا آخر، ولا أطول منها أحيانًا.

عاب الإنجليزي أيضًا السياحة الإسبانية، وأنها ليست كما يُشيعون عنها من حيث الجودة وحسن الخدمة والمعاملة وسرعة القيام بخدمات السياح. وأخبرني بأنه ذهب إلى ملهًى ليلي ليُشاهد رقص الفلامينكو، فدُهش لأنه كان الشخص الوحيد مع صديقه البلجيكي داخل الملهى. ولَّما حانت الساعة الثالثة صباحًا، بدأ المتفرجون من الإسبان يفدون إلى الملهى، فأردف صديقي الإنجليزي هذا يقول: كيف يستطيع الإسبان أن يعملوا بنشاطٍ في اليوم التالي، طالما لم يتركوا الملهى قبل الخامسة والنصف صباحًا؟

قدَّمني ذلك الإنجليزي إلى صديقه البلجيكي، وكان هذا الأخير يحمل كتابًا عن إسبانيا يشبه الكتاب الذي كان بالأمس مع جون الأمريكي. بالطبع كان الكتاب طبعةً أخرى مختلفة. ومن عجبٍ أنني لما تصفَّحتُ ذلك الكتاب اكتشفتُ أن أول طبعة منه ظهرت في عام ١٩٢٩م، ثم أُعيد طبعه عشرات المرَّات. طبعًا مع التعديات اللازمة التي تجعله صالحًا للعصر الذي أُعيد فيه طبعه. عجبًا! إن مصر، بكل ما فيها من مناطقَ سياحية، لم يُحاول شخصٌ واحد أن يضع كتابًا كدليل للسائحين يضُم كل المعلومات المفيدة للسياح الأجانب، والتي تُساعِدهم على تعرُّف خُطاهم في شيء من الأمان والثقة.

على أن يكون بهذا الدليل أسماء جميع الفنادق من كافة الدرجات وأسعار غرفها صيفًا وشتاء، وعناوين تلك الفنادق وأرقام تليفوناتها. وكذا أسعار الوجبات والمأكولات بصفةٍ تقريبية وأنواع الفواكه الموجودة في كل موسمٍ وأسعارها بالتقريب، وأرقام تليفونات الإسعاف والحريق وبوليس النجدة والبوليس السياحي، وإجراءات البريد والتلغراف، وأشهر متاجر العاديات، وأسعار الذهب والفضة والعملات الأجنبية، والعقوبات في حالة التهريب، ومواعيد القطارات، وأسعار السفر إلى كل بقعةٍ سياحيةٍ في أرض مصر بشقَّيها. كما يجب أن تكون به خريطة للقاهرة خاصة ولمصر عامة مُبيَّنًا بها أشهر الأماكن السياحية. لست أريد دليلًا به وصف الآثار التي تركَها قدماء المصريين والأهرامات، وإنما أُريد أن يتضمن ذلك الكتاب كل المعلومات التي يحتاج إليها السائح، وكم يُكَلفه مثلًا قضاء يومٍ كامل في زيارة الأهرام وفندق مينا هاوس أو صحارى سيتي ليلًا، وأسهل الطرق لتحقيق ذلك، وأسماء شركات السياحة الداخلية وعناوينها وأرقام تليفوناتها، مع خريطة توضِّح أماكن الفنادق ومكاتب السياحة والخدمات التي يستطيع الفندق تأديتَها للسائح من تحويل العملة أو الخدمة البريدية أو التلغرافية أو استدعاء التاكسي ... إلخ. كما أُشير على وزارة السياحة بأن تفكر في هذا الدليل جديًّا ولديها المعلومات الكافية، والحمد لله، لإعداد مثل هذا المرشد السياحي الهام كي لا يُحس السائح بأن أرض مصر ستنهب أمواله، وكي يستطيع أن يعمل حسابه مُقدَّمًا قبل المجيء إلى مصر. كما أن مثل هذا الكتاب سيكون مورد رزقٍ وفير لكل شابٍّ طموح يمكنه الاضطلاع به.

ذهبنا بعد ذلك إلى إحدى ضواحي مدريد حيث البيوت كلها متوسطة الارتفاع وحيث تتناثر الفيلَّات. وأبصرتُ في تلك الضاحية، قطعة أرض مخصَّصة للرياضة ولعب التنس، كان بها عشرات من الصغار والشباب عرايا أو شبه عرايا بالمايوهات. ربما كان فيها حمَّام سباحة لم تقع عليه عيني.

دهشتُ عندما سمعتُ المرشد يلفتُ نظرنا إلى مبنًى يقول إنه معبدٌ من معابد قدماء المصريين أهدَته مصر إلى إسبانيا. ربما لم يعرف أن هناك مصريًّا بين ركاب الأوتوبيس، أو أن الركاب جميعًا من السذاجة بحيث يتصوَّرون انتقال مبنًى بأكمله من مصر إلى إسبانيا عَبْر البحر وفوق اليابسة!

وقف بنا الأوتوبيس، وتركونا ندخل سوق العاديات والتحف والخزفيات، شيء رائعٌ فعلًا، كل المعروضات في غاية الروعة بديعة الشكل وجذابة المنظر فضلًا عن إتقان الصُّنع والمهارة الفنية، سيوفٌ ذهبيةٌ، وتروسٌ حديدية وأطباقٌ موشَّاة من كافة الأحجام

غاية في الجمال الصارخ، حُليٌّ للسيدات من أبدع ما ابتكره العقل البشري وأتقنَته يد الإنسان، مصنوعات من الجلد مطرزةٌ بديعة، ملابس صوفية سميكة تنمُّ عن الذوق في التفصيل وطباعة الألوان والزخرف السليم، ولكني لاحظتُ أن الأسعار لا تشجِّع أحدًا على الشراء؛ إذ هي مرتفعة جدًّا جدًّا. هذا وإن كان الأمريكيون يُقْدِمون على الشراء بشراهة، فيبدو لي أن الأمريكي لا يهمُّه سعر السلعة قَدْر اهتمامه باقتنائها. وهو يُقبل على شراء الحُلي المصنوعة من الذهب، لعلمه أن الذهب في أمريكا أغلى منه في أية بقعةٍ أخرى من بقاع العالم، باستثناء فرنسا وسويسرا.

القصر الملكي مُنيفٌ حقًّا، تمتد أمامه ساحةٌ كبيرة تُشكل ميدانًا واسعًا به تمثالٌ جميل تحيط به الخضرة في تنسيقٍ بديع.

لم يكن القصر مُحاطًا بالجنود أو الحرس، اللهم إلا عددًا لا يزيد على أصابع اليد الواحدة يقفون عند الباب الداخلي للقصر. كما أن الأسوار الضخمة العالية كانت بلا حراسة.

عُدتُ إلى فندقي متعبًا مكدودًا؛ إذ كانت الشمس الشديدة اللظى تسقط فوق أم رأسي طوال وجودي داخل الأوتوبيس. لقد أجهدَتني كما أجهدَتني رؤية المباني الضخمة المتراصة، فتكاد مدريد أن تكون خالية من المعالم. وحتى حدائقها واسعةٌ جدًّا ليس لها حدود فلا تُشعِرك بالأمان. ليس فيها الدفء، جرداء، خالية من التنوع والطرافة، فتكاد الأشجار أن تكون واحدةً في كل مكان تذهب إليه، أشجار الشارع العام هي نفس أشجار الحدائق الخاصة، وهي أيضًا أشجار الحدائق العامة.

خرجتُ إلى الطريق أستكشف، وبعد مسافةٍ قصيرة ألقيتُ نفسي في ساحةٍ كبيرة خاوية، لا معالم فيها للأناقة، ساحةٌ عامة جرداء عبارة عن بلاط وأحجار ورمال وعددٍ قليل من الأشجار العتيقة المهملة. وتُحيط بهذه الساحة بعضُ الأرائك الخشبية تجلس فوقها السيدات الصغيرات والمسنَّات ويلعب بجوارهن أطفالهن. ومما لفت نظري هنا أن الأولاد يلعبون وحدهم بينما تلعب البنات وحدهن بعيدًا عن الصبيان. تُمسِك البنات بحبلٍ طويلٍ يقفزن فوقه بعدة طرقٍ متباينة؛ من الوراء ومن الأمام وبساقٍ واحدة وبالساقَين معًا. أما الأولاد فكانت لعبتهم المفضَّلة هي لعبة «امسك حرامي».

جلس إلى جواري شابٌّ إسبانيٌّ اسمه مانويل يعمل مهندسًا معماريًّا، فتجاذبتُ معه الحديث وعلمتُ منه أنه كان يعمل بالجزائر لمدة ثلاث سنوات التقط خلالها بعض الكلمات العربية ولكنه نسيها. كما علمتُ منه أن رواد هذه الساحة الصغيرة كلهم من

سكان البيوت المجاورة. جلسَت إلى جواري فتاةٌ إسبانية، التزمَت جانب الخفر والحياء، وتنظر حولها فقط، ولا تُكلِّم أحدًا ولا أحد يُكلمها ... اكتشفتُ أنها تعرف القليل من الإنجليزية، تعلمَته في المدرسة. كانت منطويةً على نفسها، كعادة الشعب الإسباني الذي لا يقبل الغريب بسهولة أو بسرعة، رغم أنه يلقاك في بعض الأحيان هاشًا باشًا، ولكنه في الحقيقة لا يميل إلى الاسترسال معك في حديثٍ طويل.

لم أرَ في ذلك المكان كله سوى كلبٍ واحد ليس غير، وكان كبير الحجم أسود اللون. ولو كانت هذه الساحة في فرنسا لما رأيت فيها موطنًا لأحد غير الكلاب. انصرفَت الفتاة الإسبانية في هدوءٍ وأدب، وانحنت انحناءة بسيطة، مودِّعة.

استمر الحديث بيني وبين مانويل، فسألتُه: هل الطلاق شائعٌ في إسبانيا؟ قال: هذا يتوقف على سن الزوجين، فإن كان الزوجان فوق الخمسين؛ أي بعد سن الكهولة، قلَّت نسبة الطلاق. أما في سن الكهولة، أي بين الثلاثين والخمسين، فتكثُر نسبة الطلاق. وأما الشباب بين العشرين والثلاثين فيعيشون معًا ويعاشرون بعضهم بعضًا معاشرة الأزواج دون زواج رسمي. ثم سألتُه: أرى جميع أفيشات الأفلام تُصوِّر النساء عرايا، وبعض المناظر مخلٌّ بالآداب، فهل الأفلام الجنسية الصارخة مباحةٌ في مدريد، ويراها الشباب والكهول والشيوخ بلا قيود؟ قال: بالفيلم الواحد ثلاثة أو أربعة مناظر فقط، يظهر فيها الرجال أو النساء عرايا، ولكن الجنس لا يُمارس في الأفلام. وعادةً ما تكون هناك قصةٌ غرامية يدور حولها موضوع الفيلم، فتسعى الأفيشات وراء جذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين عن طريق الإثارة. سألتُه: هل بهذه المدينة كثيرٌ من الملاهي الليلية؟ قال: نعم. عندنا ملاهٍ ليلية وكباريهات كثيرة، ولكن معظمها مكلفٌ يتطلب نفقاتٍ باهظة. فطلبت منه أن يذكُر لي اسم كباريه رخيص قريب من حيث نجلس. قال: عندك كباريه «كانا ستيروس» في شارع باربيري، وأسعاره معتدلةٌ معقولة، ولكن العمل به لا يبدأ قبل الثانية عشرة ليلًا.

في تلك اللحظة أقبل طفل في الرابعة من عمره يلهث ويرتمي على حِجر مانويل، قائلًا: بابا، بابا، عيني تؤلمني؛ إذ ضربوني عليها. فأمسكه أبوه وقبَّل العين، ثم استأذن في الانصراف، وشدَّ على يدي مودِّعًا وهو ينصرف مع ابنه. والحقيقة أن مانويل هذا شابٌّ ظريف ومتعاون ومتفاهم.

تركتُ المكان بدَوري إذ كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء، وشعَرتُ بالجوع، ففكرت في أن أبحث عن مطعم يُقدم ألوانًا مغرية من المأكولات. وقعَت عيني على مطعم،

فدخلت، فاستقبلَني النادل مُرحِّبًا وأجلسني في منطقته التي يخدم هو زبائنها. ولما اكتشف أنني لا أتكلم الإسبانية، طلب منِّي أن أذهب معه إلى مائدةٍ طويلة وُضعَت فوقها عيناتٌ من شتى أنواع الوجبات التي يقدِّمها ذلك المطعم، لأختار منها ما يحلو لي. لم يكن هذا النظام غريبًا عليَّ. إنهم يفعلون ذلك أيضًا في اليونان؛ حيث تدخل الثافرن؛ أي المطعم الشعبي، وما أكثر هذه المطاعم وأروعها! فتجد أمامك مباشرةً الأسماك واللحوم وكافة أنواع المأكولات الأخرى موضوعة في صفٍّ طويل. وما عليك إلا أن تُشير بإصبعك إلى الصنف الذي تريد أن تأكل منه، فيدوِّن النادل كل شيء تطلبه في فاتورة معه. بعد ذلك تجلس إلى المائدة التي تروقك، فيأتيك النادل بكل ما طلبتَه كالمدوَّن في الفاتورة.

من الأمور التي لاحظتُها في المطاعم الإسبانية خلوُّها من الموسيقى. تكاد الموسيقى تكون معدومةً في تلك المطاعم. ولعل سبب ذلك أن الشعب الإسباني لا يتكلم بصوتٍ منخفضٍ قط؛ فأصوات الناس كلهم عاليةٌ مسموعة أشبه بالصياح منها بالكلام العادي المقبول؛ لذلك لا تحتمل أعصابُهم ضربات الموسيقى التي قد تمنعهم متعة التراشق بالألفاظ العالية.

انتهى اليوم الثاني من إقامتي في مدريد، بأن عثرتُ على فندقٍ آخر يؤجِّر الحجرة المفردة مقابل ٦٧٥ بيزيتاس؛ أي أقل ١٥٥ بيزيتاس عمَّا أدفع في فندق ماجستيك؛ لهذا اعتزمتُ أن أترك الدور الثالث في صباح الغد، وأنزل إلى الدور الثاني، لأوفِّر لنفسي ١٥٥ بيزيتاس يوميًّا.

الباب الثامن

بلا بنادق غزوت المطاعم والفنادق

استيقظتُ صباح يوم الجمعة الموافق ١٥ من يوليو عام ١٩٧٧م وقد بيَّتُّ النية على ترك الفندق ماجستيكو والانتقال إلى الفندق الموجود بالدور الأسفل. كان عليَّ أن أتأكد أولًا من وجود مكانٍ خالٍ به. بعد أن تناولتُ إفطاري في القاعة الفاخرة الأثاث والتصميم، توجَّهتُ إلى موظف الفندق وأفهمتُه بأنني مُضطرٌ إلى ترك الفندق لعجز في ماليتي، فقطَّب جبينه وكأن كلامي لم يُقنِعه. قُلت: فندق ماجستيكو عظيم حقًّا وفاخر حقًّا. إنه آية في النظافة والذوق الرفيع والخدمة الممتازة مع ما يتحلى به موظفوه من أدبٍ جَم. عندئذٍ انفرجَت أسارير الرجل قليلًا، فدفعتُ له أجر المبيت ليلتَين، فسلمني إيصالًا بذلك. وفي الحال نزلتُ إلى الدور الثاني أسأل عن حجرة لي، غير أن الموظف اعتذر عن عدم وجود أماكن خالية بالمرة، فقلتُ لنفسي: فلأبحثنَّ عن فندقٍ آخر. واتَّكَلتُ على الله، فإذا بي أجد فندقًا آخر على بُعد خطواتٍ معدودة، ولكن موظف الاستقبال في هذا الفندق اعتذر أيضًا، عن عدم وجود أماكن، وأرشدني إلى فندقَين آخرَين. ولكني عُدت منهما بخُفَّي حنين، فاعتمدتُ على نفسي مرةً أخرى. عثَرتُ بعد ذلك على فندق هو في الواقع «هوستل» أي أقرب إلى البنسيون. وجدتُ بذلك الفندق حجرةً فسيحة جدًّا ذات حمَّام فسيح جدًّا، كأنني أدخل جناحًا مستقلًّا، بداخل الحجرة حجرةٌ صغيرة بها مقاعدُ وثيرة لاستقبال الضيوف إذا ما زارني أحد. لم أصدق عيني. ولما سألتُ الرجل عن أجرها قال: ٦٨٩ بيزيتا بالإفطار. فقلتُ بلا تردُّد: موافق. سأذهب وأعود إليك حالًا. قال: على مهلك. عُدتُ إلى فندقي الأول وحملتُ حقيبةً كبيرة وأخرى صغيرة وسِرتُ بهما في الطريق إلى أن بلغتُ الفندق الجديد، واسمه «هوستل جريدوس». لم يكن هذا البنسيون بعيدًا عن فندق ماجستيك بمسافةٍ طويلة؛ لذا رأيتُ أن استدعاء تاكسي ليسير بي مسافة مائة مترٍ

أمرٌ يدعو إلى الضحك والغرابة أيضًا. عُدتُ إلى الفندق مرةً أخرى وحملتُ الحقيبة الثالثة الكبيرة الحجم بعض الشيء. وهكذا وجدتُ نفسي في الفندق الجديد ومعي منقولاتي، فدخلت الجناح، وهو فعلًا جناح بمعنى الكلمة. وفتحتُ حقائبي. وما هي إلا لحظاتٌ حتى أحسستُ بالحر الشديد يكاد يقتلني. وفوجئتُ بأن هذه الحجرة الفسيحة ليس بها غير نافذةٍ واحدة صغيرة تُطِل على منورٍ خانق، فدخلتُ الحمَّام وفتحتُ نافذته عسى أن يُحدث تيارًا من الهواء يعمل على تهوية الحجرة وتلطيف الحرارة فيها، ولكن دون جدوى؛ إذ كانت هذه النافذة تُطِلُّ على المنور نفسه. زالت فرحتي وشعَرتُ بأنني لن أستطيع النوم في الليل لا سيما وأن الحجرة تخلو كذلك من جهاز تكييف. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا، فاستسلمتُ صاغرًا إلى حظِّي وقدَري. أنا الملوم عما حدث لي. فأخرجتُ من حقائبي ما عنَّ لي إخراجه، ثم غادرتُ الحجرة وذهبتُ إلى موظف الفندق كي أُسلمه مفتاح الحجرة؛ لأن النظام في إسبانيا، ولعله في عموم أوروبا، يُحتِّم عليك ترك المفتاح لدى مكتب الاستقبال كلما خرجتَ من الفندق. وبطريقة لا إرادية قلتُ للرجل ما يفهم منه أن الحجرة شديدة الحرارة. خاطبتُه بالفرنسية، وكنتُ أحسُّ بأنه يفهمني رغم أنه لم يردَّ عليَّ بكلمة واحدة، لا بالفرنسية ولا بالإنجليزية، وكأنه أدرك أنني فطِنتُ إلى «المقلب» الذي أعطانيه. وفي الحال أشار إليَّ بأن أتبعه وأراني حجرةً أخرى لا تقل اتساعًا عن الأولى، ذات حمَّامٍ كامل الملحقات. لم تكن هذه الحجرة بلا نوافذ، بل كانت تُطِل على الشارع العمومي بنافذةٍ كبيرة، فأبديتُ له إعجابي بها، وسألتُه عن أجرها فقال: ٥١٧ بيزيتا بالإفطار. فكِدتُ أطير من فَرْط الفرح. رُحتُ أحملق في الورقة التي كُتب عليها السعر وأنا لا أكاد أُصدق عيني. فقلت له إنني أُفضِّل الحجرة الثانية. وفي الحال سمح لي بنقل حقائبي من الحجرة الأولى إلى الحجرة الثانية. تركتُ الفندق بعد ذلك وأنا سعيدٌ تمامًا. لقد استطعتُ أن أوفِّر من أجرة النوم ٣١٣ بيزيتا في الليلة الواحدة.

قرَّرتُ فجأةً ألَّا أبقى في مدريد أكثر من أسبوع بينما كانت تذكرتي تقول إن إقامتي في مدريد ستطول لمدة أسبوعَين كاملَين؛ لذا قرَّرتُ أن أمُرَّ على مكتب إير فرانس، الذي كان من حسن حظِّي على بُعد أمتار من الفندق الجديد. توجَّهتُ إلى مكاتب شركة الطيران هذه، فإذا بالموظفة تُغيِّر لي موعد السفر، وحدَّدَت لي يوم ١٩ من يوليو لمغادرة مدريد والعودة إلى مدينة نيس لأقضيَ بها ليلةً واحدة، ثم أغادرها في صباح ٢٠ من يوليو متجهًا إلى أثينا فأصل إليها في الساعة الثانية بعد الظهر.

كانت سعادتي لا تُوصف ... ففي صباح يومٍ واحد انتهيتُ من حل مشكلتَين كبيرتَين. عثرتُ على فندق أرخص، واختصرتُ مدة إقامتي في مدريد.

فكَّرتُ في زيارة مدينة طليطلة إحدى مدن إسبانيا ذات التاريخ العريق، فذهبتُ إلى مكتب شركة جوليا للسياحة وحجزتُ تذكرة لقاء ٥٥٠ بيزيتا، وبذا سيتحقق لي هدفٌ ثالث.

شعَرتُ براحةٍ نفسيةٍ عظيمة، ورُحت أتجوَّل وأجوس خلال شوارع لم يسبق لي أن رأيتُها. وفجأةً اكفهر الجو وتلبَّدَت السماء بالغيوم واحتجبَت الشمس وراء السحُّب الدكناء وبَرَدَ الجو إلى درجةٍ فظيعة. وكنتُ أرتدي قميصًا صيفيًّا خفيفًا قصير الأكمام، فاقشعر بدني من شدة البرد ... يا للهول! يَهطِل المطر وابلًا، وها هي السيدات يحملن المظلات فوق رءوسهن لتدرأ عنهن البلَل.

دخلتُ كافيتيريا هادئة جميلة المنظر، تتمثل روعتها في بساطتها. جلستُ إلى إحدى الموائد، فوق مقعد فإذا به يدور بي ويلف هنا وهناك متحركًا في كل اتجاه عدا إلى الخلف. ولم تكن به متاكئ جانبية، وكان مُثبَّتًا في الأرض لا يمكن تحريكُه أو زحزحتُه أو نقله من مكانه إلى مكانٍ آخر.

طلبتُ من النادل أن يأتيني بقدَح من النبيذ الأحمر فطلب منِّي ثلاثين بيزيتا. قُلت حسنًا، سعر النبيذ هنا أرخص منه في الكافيتيريا المجاورة التي طلب مني نادلها ستين بيزيتا، فرفضتُ بالتأكيد أن أجلس فيها؛ إذ السعر المتفق عليه هو ٣٥ بيزيتا.

جلستُ أحتسي كأس النبيذ. كنتُ مُجبرًا على شرب الكحوليات لأنها أرخص كثيرًا من الشاي ومن القهوة والكوكاكولا. لقد أدفأني هذا النبيذ وساعدَني على تحمُّل ذلك الطقس الشتوي الذي هجم علينا فجأةً على غير انتظار، وبدون سابق إنذار.

كنت أجلس مولِّيًا وجهي شطر الطريق العام، وفجأةً أقبل رجل مع زوجته أو قُل معشوقته، وراحا يقرآن أسعار المأكولات في قائمةٍ كبيرة معلقة بصدر الكافيتيريا. وإذ كنتُ أُحِس بالجوع قلتُ في نفسي: فلأقرأن أنا أيضًا تلك القائمة وآخذ فكرة عن الأسعار لعلها تناسبني وتساعدني على الاقتصاد في النفقات. قرأتُ ما هالني؛ ثمن كأس النبيذ ١٦ بيزيتا فقط، فكيف يتقاضى مني النادل ثلاثين بيزيتا. هذا استغلال، بل وسرقةٌ سافرة. بحثتُ عن الإيصال فوجدتُه مُلقًى على الأرض تحت المائدة. أخذتُه إلى مدير المحل وسألتُه عن المبلغ المُحصَّل بمقتضى الإيصال، فقال: ١٦ بيزيتا. قُلت: ولكن هذا النادل أخذ مني ثلاثين بيزيتا. وعلى الفور، أعاد إليَّ النادل ١٤ بيزيتا، بإشارةٍ واحدة من إصبع

المدير. استرجعتُ هذا المبلغ البسيط بسعادةٍ بالغة، ولولا محاكاتي الزوجين في قراءة القائمة لما أمكنني أن أستردَّ شيئًا من نقودي التي كادت تضيع هباءً.

تركتُ كافيتيريا «برافو»، وهذا هو اسمها، يُوجد من أمثال هذه الكافيتيريات أو المطاعم، كما اكتشفتُ فيما بعدُ، أعدادٌ كبيرة منتشرة في كافة أنحاء مدريد، أسعارها أرخص بكثير من أسعار المطاعم الأخرى، وتُقدِّم لك هذه المحلات وجباتٍ خفيفة سريعة من الشطاير والبطاطس المحمَّرة، وجميع أنواع المشروبات الخفيفة والقوية؛ تُقدَّم هذه الأغذية كلها بأسعار زهيدة جدًّا بالقياس إلى مثيلاتها في المطاعم والكافيتيريات الأخرى. كان هذا اكتشافًا جديدًا بالنسبة لي يساعدني على توفير بعض النقود أنا في أشدِّ الحاجة إليها، في بلاد الغربة، لقضاء متطلباتٍ كثيرة أخرى.

اشتريتُ بعض البطاقات المصورة «كارت بوستال» بها صور مختلف معالم مدريد خاصة، وإسبانيا عمومًا. لن أحتفظ بهذه البطاقات ضمن مجموعتي التي تضم مئاتٍ من صور معالم البلاد التي منَّ الله عليَّ برؤيتها، ومنحَني شرف زيارتها على نفقتي الخاصة. لن أحتفظ بها وإنما سأرسلها إلى أصدقائي وصديقاتي، وما أكثرهم! سأنتقي من أولئك أقدمهم ومن لم يكفُّوا عن مراسلتي طوال السنوات العشر الماضية. لقد أصبح هؤلاء جزءًا من كياني أهتم بهم اهتمامي بنفسي، لا أنسى أن أكتب إليهم كما لا أهمل الرد على رسائلهم؛ فأنا أعرف أخبارهم وأسرارهم، بعضها طبعًا وليس كلها، بحالٍ ما، كما أنهم يعرفون الكثير من أخباري وأحوالي وأعمالي وإنتاجي، وبعض أسراري.

عُدتُ ثانيةً إلى مطعم «برافو»، ولحسن حظِّي وجدتُ مكاني لم يفتأ شاغرًا. جلست لأكتب التحية اللائقة بكل صديقٍ من أصدقائي.

غدا البرد الآن قاسي الشدة. والهواء البالغ البرودة يخترق عظامي فيكاد يُفتِّتها، وقد زال الدفء الذي أشاعه النبيذ في جسمي، وتجرَّد بدني من حرارته العادية. يا لها من مشكلة ليس لها حلٌّ عندي! وليس معي أي ملابس شتوية ولا حتى سُترة أو بولوفر. ولو كان لديَّ شيء من هذا القبيل لعُدتُ توًّا إلى الفندق ولبستُه. ما هذا يا مدريد؟ يا ابنة الحلال دون الحرام! أهكذا من الحر اللافح إلى البرد القارس؟ ألا تتمثلين بقول الشاعر:

حب التفاني شطط خير الأمور الوسط!

ماذا دهاكِ أيتها المدينة الآمنة، ارحميني أرجوك، ارحمي من في الأرض يرحمكِ من في السماء. ليتي لم أحجز تذكرة اليوم لزيارة مدينة طليطلة ذات الآثار العريقة.

قمتُ أبحث عن طوابعَ بريدية أضعها على البطاقات التي انتهيتُ من كتابة العناوين عليها وكذلك بعض الكلمات أو العبارات القصيرة. بيد أنني لم أعرف مكانًا يبيع الطوابع، كما لم أعرف فئة الطابع الذي أضعه على كل بطاقة ولكل بلد. فلما يئستُ رجعتُ إلى الفندق. حسبتُهم يقدِّمون هذه الخدمة كما نقدِّمها نحن في فنادقنا، وكما تقدِّمها فنادق اليونان. غير أن موظف الفندق هزَّ رأسه وقال «توباكو»؛ أي «التبغ»، فلم أفهم علاقة «التبغ» بالطوابع. يبدو أن كلمة «توباكو» تعني، في بعض دول أوروبا، «طابع بريد»؛ إذ كل محل في فرنسا يبيع طوابع البريد، تجد على واجهته كلمة «توباكو» سواء كان يبيع التبغ أو لا يبيعه. ولما كان لا يزال أمامي ساعةٌ كاملة على ميعاد الرحلة، دخلتُ حجرتي واستلقيتُ على الفراش الضيق. كان لشخصٍ واحد فعلًا، غير أنه، والحق يُقال، كان بالحجرة سريران لا سريرٌ واحد. الظاهر أنه إذا كان النزيل بدينًا لا يكفيه سريرٌ واحد، أمكنه زحزحة السرير الآخر بجانب الأول ليكونا بمثابة سرير عريض يكفيه. وحجرتي هذه، كما سبق أن ذكَرْت، فسيحة جدًّا جدًّا، طولها لا يقل عن ثمانية أمتار، ولا ينقص عرضها عن خمسة أمتار. وجدت بابًا في مواجهة الباب الرئيسي للحجرة، فدفعتُه فإذا بي داخل حجرة أخرى كلها رفوف على بعضها مجموعة من البطاطين السميكة. وكان بها مكتبٌ عتيق مُزيَّن كله بالنقوش، كما كان بها أربعة كراسي بمتاكئ (فوتيل) مكسُوَّة بالقطيفة، وأريكة لشخصَين وجدتُها مريحة عندما بسطتُ جسمي فوقها، وفوق كل فِراش بالحجرة مصباحٌ قوي، كما تتدلى ثُريَّا من سقف الحجرة نفسها، إنها ثُريَّا جميلة الشكل من النحاس ذات ثلاث أذرع متوسطة الطول تنتهي كل ذراع منها بمصباح قوي الضوء.

كان بالحمام الملحق بالحجرة ست مناشفَ متعددة الأطوال مختلفة الأشكال والألوان. والماء الساخن يتدفَّق من الصنبور بمجرد استعماله. أما حوائط الحمام فمُغَطاة كلها بالقيشاني الفاخر. كل شيء بالحمام يعمل وليس به أي شيءٍ مُعطَّل. وفجأةً اكتشفتُ عدم وجود صابون بالحمام!

في الثالثة تمامًا خرجتُ من الفندق واتجهت إلى مكتب الرحلات. كانت الرحلة، كما أفهموني، تبدأ في الثالثة والنصف، ولكنني كنت أمام المكتب في الثالثة تمامًا. لم أجد أحدًا من الركَّاب ينتظر بالمكتب أو أمامه كالعادة. ولم أجد الأتوبيسات الكثيرة التي شاهدتُها بالأمس عندما خرجتُ في رحلة لمشاهدة معالم المدينة. دُهشتُ للأمر فنظرتُ في ساعتي فوجدتُني جئتُ قبل الميعاد بمدةٍ كافية. دفعتُ باب المكتب، فلم أجد به أحدًا غير

الموظفين، فأبرزتُ لهم تذكرتي، فقال الموظف الرئيسي بالإنجليزية: لقد جئتَ متأخرًا مدة ساعة ونصف الساعة تقريبًا. وطلب منِّي أن أنظر إلى ساعة الحائط المُعَلقة داخل المكتب، فوجدتُها تقول الساعة الرابعة والنصف. قلت: كيف هذا وساعتي تُشير إلى الثالثة وعشر دقائق؟ قالت الموظفة: لقد نسيتَ يا سيدي أن تضبط ساعتك؛ فالوقتُ عندنا غيره عندكم في بلدكم. قُلت: ولكني حضرتُ بالأمس حسب هذا الوقت، وهذه الساعة، ووجدتُ الأوتوبيس موجودًا وركبتُ وقمتُ بالرحلة. المهم الآن: هل ضاعت عليَّ التذكرة والمبلغ الكبير الذي دفعتُه فيها، أم يمكنني استعمالها غدًا بدلًا من اليوم؟ فابتسم الموظف الكبير في كثير من الأدب وكأنه هو الذي يعتذر لي: يمكنك يا سيدي، بهذه التذكرة، أن تستقل سيارة الغد من هنا وتقوم بالرحلة المنشودة. حقك محفوظٌ ونقودك لم تضع أبدًا. فشكرتُه. ولما خرجتُ من المكتب وجدتُ الشمس ساطعة والحر شديدًا يملأ الجو، فدُهشتُ لتقلب الجو بسرعة، وعوَّلتُ على أن أبحث عن الطوابع، فأخذتُ أمشي وأمشي. كنتُ أريد أن تتسلط الشمس على جسمي فتحرقه بحرارتها بعد أن برَّح به البرد طوال الساعات الماضية. وبينما أنا أنظر إلى المتاجر أبصرتُ لافتةً مكتوبًا عليها «توباكو». كانت هذه اللافتة لمحل لا يبيع إلا السجاير والسيجار والتبغ بأفخر أنواعه. وجدتُ بالداخل سيدةً عجوزًا تخدم عددًا كبيرًا من الزبائن، فلما جاء دوري أبرزتُ لها البطاقات، فقالت بالإسبانية: قل لي أسماء البلاد أُعطِك الطابع المناسب لكلٍّ. وفعلًا، وبسرعةٍ تُحسد عليها، زوَّدَتني بالطوابع اللازمة، وأصرَّت على أن تقوم هي بلصق الطوابع. كان طابور الواقفين خلفي يزداد طولًا وهي مستغرقةٌ في لصق الطوابع على البطاقات بعنايةٍ تفوق الوصف. وبعد أن دفعتُ لها ثمَن الطوابع قالت: ألقِها في صندوق البريد المجاور لأول سينما تُقابِلك في الطريق المتجه يمينًا.

خرجتُ من ذلك المتجر وأنا في دهشةٍ من أمري: ألم يكن يكفي أن تناولني تلك السيدة الطوابع فأقوم أنا بعمل الباقي دون أن تُتعِب نفسها أو تُعطِّل زبائنها الآخرين الذين كانوا، وهذا هو عين الحق، سيشترون منها ما قد يدرُّ عليها ربحًا أكثر؛ فما دفعتُه لها هو قيمة الطوابع بالضبط دون أن تتقاضى منِّي ربحًا بالمرة؟

عُدت إلى الفندق أبتغي قسطًا من الراحة بالنوم ساعة أو ساعتَين، ولكني، للأسف، لم أتمكن من النوم لحظةً واحدة؛ إذ كانت حجرتي تُطلُّ على الشارع العمومي، والضوضاء فظيعةٌ داخل الحجرة، أقضَّت مَضْجعي ونفَت النوم عن عيني تمامًا. رُحت أغالب ذلك الموقف العصيب دون جدوى. الضوضاء بالشارع تزيد ولا تقل، فقلتُ في

نفسي: صحيح يا ناس. الغالي ثمنه فيه. إذ كان الهدوء رائعًا في فندق ماجستيكو وكنتُ أنام ملء أجفاني.

أخذت حمَّامي الأول، بدون صابون طبعًا، ثم خرجتُ إلى الشارع مجتازًا لأرى المزيد مما لا بُد منه، فرأيت ملهًى يُقدِّم رقصة الفلامنكو المشهورة، وأبصرتُ أناسًا يحجزون تذاكر عند شبَّاك الحجز. كان سعر الدخول ١٣٠ بيزيتا، فسألت الموظف الواقف عند باب الدخول، قال: لن يبدأ رقص الفلامنكو قبل الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. أما الآن فالدخول لممارسة الرقص على أنغام الموسيقى. عندئذٍ أدركتُ أنني سأغادر مدريد دون أن أتمكن من رؤية رقصتها المشهورة تُعرض في ملاهيها.

دخلتُ كافيتيريا أنشُد قدَحًا من القهوة؛ إذ كان الصداع يشطر رأسي من جرَّاء ضوضاء الطريق والناس. جاءني النادل بالقهوة فرُحتُ أرشفُها وأراقب الناس، أولئك الناس وما أدراك مَن هم أولئك الناس؟ إنهم عيون وأنوف وسيقان تتحرك، ولا أكثر. لم أجد شخصًا واحدًا يشبهني. كما أنني لم أجد فتاةً واحدة تشبه زميلتَها. لكل فتاة تسريحة شعرها الخاصة، ولكل امرأة طابعها المميز. سبحان الخلَّاق العظيم! خلق فسوَّى. إنه وحده القادر على كل شيء. خالق السموات والأرض وموزِّع الجمال بمكاييله والقبح أيضًا بمقاييسه. وجعل بين السود من هي جميلة، وبين البيض من هي قبيحةٌ دميمة. حتى الحب، قد يحرمه شابَّين وقد يُغدِقه على عجوزَين هَرِمَين فتراهما متخاصرَين متماسكَين ملتحمَين، ومتهامسَين ذائبَين في الوجود والحياة.

مظاهر الحب حولي غريبة. أرى العشَّاق من جميع الأعمار يَفِدون إلى المقهى. الكل متماسكون؛ بعضهم يطوِّق حبيبته من خصرها، وبعضهم يلفُّ ذراعه حول عنقها ويُوسِعها تقبيلًا، وبعضهم يُمسِك يدها ويضغط عليها بشدة. لم أجد حبيبين يمشيان إلى جنب كما يمشي أي صديقَين من جنسٍ واحد. الفتيات هنا يُدَخِّنَّ في شراهةٍ ونهمٍ حتى صغيرات السن. معظم المارين بالشوارع من السائحين الأجانب. كل همهم أن يأكلوا ويشاهدوا فترينات المتاجر. بدأت المتاجر منذ الأمس بإعلان فرصة تخفيض الأسعار (الأوكازيون). لاحظتُ أن حركة البيع قد نشِطَت اليوم عما كانت عليه بالأمس؛ فكل عابر طريق يمشي حاملًا كيسًا كبيرًا من البلاستيك به البضائع التي اشتراها. أبصرتُ فتياتٍ أمريكيات صغيرات السن لا تزيد أعمارهن على الرابعة عشرة، يمشين بمفردهن. لقد جئن للسياحة بلا مرشد ولا رقيب، وبلا أهل ولا قريب. وعلى العموم فإن عددًا كبيرًا من زوار إسبانيا يَفِدون إليها من المكسيك ومن البلاد التي تتكلم الإسبانية بأمريكا الجنوبية.

رأيتُ الناس، وأنا جالسٌ في مكان بهذا المقهى، يتكالبون على مطعم يقع على الطوار المقابل. فذهبتُ إليه. كان يقدِّم شطائر في عُلبٍ من الورقة المقوَّى، بأسعارٍ متفاوتة، ثمن أرخص شطيرة ٥٢ بيزيتا، وأغلى واحدة ٩٩ بيزيتا، وهناك ما ثمنه ٦٠ أو ٧٢ أو ٨٤ أو ٨٩ بيزيتا، فشجَّعني الإقبال الشديد على ذلك المطعم، على أن أُجرِّب حظِّي. كانت الشطائر لذيذة، فعلًا، وتفتح الشهية. غير أنها كانت — في نظري — لا تُسمِن ولا تُغني من جوع. لا يكفيك أقل من أربع شطائر حتى تُحس بالشبع؛ لذا لا أعتبر هذا المطعم رخيصًا، بل أغلى من المطعم التي تناولتُ فيه عَشائي بالأمس؛ فلو أنني تناولت مثلًا أربع شطائر من فئة ٩٩ بيزيتا، لدفعت ٤٠٠ بيزيتا تقريبًا، ولو كانت فئة ٦٠ بيزيتا لدفعت ٢٤٠ بيزيتا دون أن أشبع؛ إذ الشطائر كلها صغيرة الحجم نسبيًّا. ولما كانت حريفة الطعم فإنها تجعلك تتناول منها أكثر من أربع وتُضطَر إلى أن تُتبعَها بمشروبٍ باردٍ لا يقل ثمنه عن ٢٧ بيزيتا. وهذا بالطبع سعرٌ رخيص جدًّا يقلُّ كثيرًا عما يمكنك أن تشتري به نفس المشروب من أي مكانٍ آخر. على فكرة، تُباع الكوكاكولا هنا في أكواب من البلاستيك اللدن الخفيف، فيا لها من فكرةٍ جميلة وعملية وسريعة وقليلة التكاليف! روعة الغرب أنهم يفكِّرون ويُخرِجون أفكارهم إلى حيز الوجود. دفعتُ في وجبة عشاء الأمس ٣٦٠ بيزيتا، وكانت عبارة عن طبق من اللحم المطهو مع البازلَّا، وطبقٍ آخر كبير الحجم من السمك والجمبري، فضلًا عن قطعة من جبن الروكفور وطبقٍ كبير من سلاطة الطماطم، مع قدَح كبير من النبيذ وكميةٍ لا بأس بها من الخبز. ولعلك الآن، يا قارئي العزيز، تَفطِن إلى ما أعنيه بأن هذه الوجبة الدسمة أرخصُ بكثير من تناول الشطائر كوجبة عَشاءٍ كاملة مع أنها ليست وجبة عشاء كاملة ولا حاجة.

طفِقتُ أمشي، ولكنني أحسستُ بالبرد الشديد يغزو جسمي من جديد، فيجعلني أنتفض فرائصَ وأعضاء. تحاملتُ على نفسي ونهضتُ لأذهب إلى فندقي. ذُهلتُ في طريقي من كثرة عدد دُور السينما الموجودة في المنطقة القريبة من الفندق. كان بين كل سينما وسينما سينما، وبين كل مقهًى ومقهًى مقهًى. وما لفَت نظري إلى كثرة دُور السينما أنه تصادَفَ مروري أثناء خروج روَّاد تلك الدُّور. حقًّا ما أكثر هؤلاء هنا! يتراوح ثمَن التذكرة بين ١٢٥، ٦٢٥ بيزيتا؛ أي إن ثمن التذكرة في «الترسو» ١٢٥ قرشًا، وفي البريمو ٦٢٥ قرشًا.

بدأتُ أقتنع بأن البيزيتا تساوي قرشًا مصريًّا. وربما لاحظتُ التقارب الشديد بين نُطق كلمة بيزيتاس الإسبانية ونُطق كلمة بياستر الإنجليزية أو الفرنسية. وعلى

هذا الأساس بدأتُ أُقيِّم البضائع المعروضة أمامي في المتاجر، فوجدتُ أن هناك أسعارًا معقولة جدًّا، كما أن هناك أسعارًا غير معقولةٍ بالمرَّة وتنحصر في كل شيءٍ مصنوع من الجلد، كالأحذية والحقائب والأحزمة والجاكتات الجلدية وغير ذلك من المصنوعات الجلدية التي لا تقع تحت حصر؛ فمن الأحذية ما يصل ثمنه إلى ستين جنيهًا بلا مبالغة، ومن الجاكتات الجلدية ما يبلغ ثمنه ١٢٠ جنيهًا. ولكنني رأيتُ بنطلوناتٍ أنيقة وجميلة الألوان معروضة في الأوكازيون بسعر ٤٩٩ قرشًا؛ أي خمسة جنيهات، بينما نظائرها في مصر لا يمكن شراؤها بسعر يقلُّ عن عشرين جنيهًا.

تعرض كافَّة دُور السينما في مدريد، إمَّا أفلامًا إسبانية النطق أو إيطالية. ولا أثَر هنا لأية أفلامٍ أمريكية أو فرنسية؛ فهاتان اللغتان منبوذتان تمامًا في إسبانيا.

لفَت نظري أيضًا أنه من المُحال على الغريب مثلي أن يتبيَّن حرفًا واحدًا مما ينطقه الإسباني عندما يتكلم مع إسباني آخر. إنها لغةٌ غريبة اللهجة والنبر الصوتي، مقاطعها قصيرة جدًّا ومخارج ألفاظها غامضة غير مريحة إطلاقًا لمن يستمع إليها. الكلمة الوحيدة التي خرجتُ بها واستطعتُ أن أفهمَها نطقَت بها سيدة إسبانية صَعِدَت معي في مصعد الفندق. كانت تقيم في الدور السابع بينما أُقيم أنا في الدور الثالث، فقالت لي: «آديوس» أي «مع السلامة». وهذه الكلمة، كما تعلم، قريبة جدًّا من الإيطالية. كما خرجتُ بكلمة أخرى هي «جراتسيا»؛ أي «شكرًا»، التقطتُها من نفس السيدة، وهي شائعةٌ أيضًا في اللغة الإيطالية. وكنتُ أعرف هاتَين الكلمتَين من قبلُ من زياراتي إلى إيطاليا. ولكنني لم أكن أعرف أنهما مستعملتان في اللغة الإسبانية بنفس المعنى.

عُدتُ اليوم إلى الفندق مبكرًا؛ إذ كان البرد شديدًا يمنعني بملابسي الخفيفة تلك، أن أبقى بالخارج إلى وقتٍ متأخرٍ بعد ذلك. نظرتُ إلى ساعتي فوجدتُها العاشرة والنصف مساءً، وهذا لا يُعتبر وقتًا متأخرًا في إسبانيا، فقلتُ في نفسي: كفى، وحمدًا وشكرًا للعناية الإلهية.

الباب التاسع

طليطلة مذهلة مُسلِّية

أقبل الصباح يوم السبت، فصحوتُ من نومي وأنا في أشدِّ حالات التعب والإعياء. لم أنَمْ جيدًا في تلك الليلة، ولم أحظَ قَط بإغفاءةٍ طويلة، بل كان نومي متقطِّعًا ولفتراتٍ قصيرة بسبب الضوضاء الصاخبة في الشارع. دخلتُ الحمام لأغتسل وأحلق ذقني، فهالَتني تلك الجيوش الضخمة من الصراصير تجري هنا وهناك فوق حوائط الحمام. يا للهول! صراصير في مدينة من أشهر مدن أوروبا، بل وعاصمة دولة من أعظم الدول الأوروبية! هذا شيءٌ لم يسبق لي أن رأيتُ مثله في أي فندقٍ آخر بأي بلدٍ آخر من بلاد الدنيا.

فوجئتُ أيضًا بأن الحمام خلوٌ من الصابون، ولا بد لي من الحصول على صابون. لم يكن في مقدوري أن أخرج من حجرتي بالمنامة (البيجاما) وأمشي في طرقات الفندق. اضطُررتُ إلى ارتداء ملابسي الخارجية قبل أن أغسل وجهي أو حتى أُمشِّط شعري. شيء يُثير الأعصاب ويحطِّمها «على الريق». ذهبتُ إلى موظف الاستقبال وطلبتُ منه صابونة، فقال: نحن لا نقدِّم صابونًا لزبائن الفندق. كان يتحدث بالإسبانية، ولكني فهمتُ ما قاله بتلك اللغة، فقلتُ له: ومن أين آتي الآن بصابونة؟ فهزَّ كتفَيه وكأنه يقول لي: هذه مشكلتك وليست مشكلتي. فقلتُ له: هل تبيعني صابونة؟ أنا مستَعِد لأن أدفع ثمنها. فهزَّ رأسه بالنفي، فصحتُ فيه قائلًا: لا بد أن تأتيني بصابونة، وإلا غادرتُ الفندق على الفور. فتح دُرجًا أمامه وأخرج منه صابونة، وقال: ها أنا ذا أعطيك صابونتي. قُلت: وليكن. ولَمَّا كانت الصابونة جديدةً غير مستعملة، قُلت: كم تريد ثمنًا لها؟ قال: لا أريد شيئًا. ولكن يبدو أن لسان حاله كان يقول: لا أريد ثمنَها، «فقط ابعد من أمامي عالصبح!» فشكرتُه وعُدتُ إلى حجرتي لأخلع ملابسي الخارجية وأقوم بإجراءات الصباح الروتينية. خرجتُ بعد ذلك أبحث عن حجرة الطعام. وجدتها تبعُد عن حجرتي

بمسافةٍ غير قصيرةٍ ... استقبلَني الموظف المسئول في حجرة الطعام وسألني قائلًا: هل معك عائلة؟ فأجبت بالنفي، فأشار إلى مائدةٍ صغيرة عليها قدَحٌ واحد وطلب مني أن أجلس إليها. كانت حجرة الطعام خاوية تقريبًا وخالية من الآكلين؛ إذ لم يكن بها سوى أسرة إيطالية واحدة تتكوَّن من خمسة أفراد، منهم ولدان صغيران. كان الاهتمام بإفطار الولدَين هو الشغل الشاغل للوالدَين والجَد، على ما أعتقد. كانت أصوات هذه الأسرة مزعجةً كعادة الإيطاليين الذين كلامهم صياحٌ وصُراخ و«شخط» وثورة أعصاب مستمرة. جاءني النادل بقطعة خبز لدنة وأخرى جافَّة، وصَبَّ لي القهوة، وقدَّم إليَّ «لحسة» ضئيلةً جدًّا من أردأ أنواع المُربَّى. كانت أشبه بقليل من الماء المسكَّر منها بالمربى الغليظة القوام التي نألفها جميعًا. لم يكن لها طعمٌ ولا نكهة، بل تعافُ النفس مجرد رؤيتها، فاكتفيتُ بكسرة الخبز اللدنة مع القهوة، وأنا أقول في نفسي: «جُوعوا تصِحُّوا.» وإذ فرغ قدَح القهوة بسرعة، وكنتُ أُحسُّ بالبرد، طلبتُ من النادل أن يأتيني بمزيد من القهوة، ولكني لاحظتُ أنه تأفَّف وتضايَق، فلم أُعِر حركاته أي اهتمام، بل تجاهلتُها تمامًا كأنني لم أرَها أو أفهمها. فهل جئتُ إلى إسبانيا لأتقشَّف، والخير في بلادنا موفورٌ والحمد لله؟ فأحضر الإبريق الكبير وأفرغ لي منه نصف فنجان، فأشرتُ إليه أن كفى، فجُلتُ بطرفي حولي لأرى كل شيء بالقاعة. لم يكن بها ما يستدعي الوصف. كانت قاعةً عادية جدًّا، ليس بها أي اتجاه إلى الترف أو البذخ، لا يُوجد بها بار ولا موسيقى تُشنِّف الآذان. انتهى إفطاري الهزيل، ولكني حمِدتُ الله عليه.

بعد أن غادرتُ الفندق بقليل، عُدتُ إليه ثانيةً لآخذ جواز سفري حتى أتمكن من تغيير بعض العملة الأمريكية إلى عملةٍ محلية إسبانية. آثَرتُ أن أفعل هذا، اليوم؛ فغدًا الأحد عُطلةٌ رسمية في هذه البلاد. ووجود عُملةٍ إسبانية معي خير من الإفلاس، وأنا بحاجةٍ إلى الإنفاق على الطعام والشراب وغيرهما.

دخلتُ أول مصرفٍ مجاور للفندق، فتمَّت عملية التحويل في لمح البصر وبدقةٍ فائقة؛ إذ ليس بها كل تلك التعقيدات الموجودة عندنا. ليت مصارفنا تتعلم السرعة في إنجاز مصالح الناس كغيرها من المصارف الأجنبية. كما أن المصارف هنا متناثرةٌ بشكلٍ عجيب، بين كل مصرف ومصرف مصرف أو سينما أو بضعة متاجر تبيع الملبوسات أو المصوغات أو الأحذية.

خرجت من المصرف ووفاضي عامرٌ بالبيزيتات الإسبانية. كان لا بد لي من شراء تحفةٍ أثرية من إسبانيا، فدخلتُ متجرًا للعاديَّات واشتريتُ درعًا ذات سيفَين ذهبيَّين

مثبَّتَين على صدرها، دفعتُ فيها ٢٧٥ بيزيتا. وكان السعر مناسبًا لي؛ إذ كانت هناك تحفٌ يصل ثمن الواحدة منها إلى ألف بيزيتا أو ثلاث آلاف، وهذا فوق ما يتحمَّله جيبي في بلاد الغُربة.

أحسستُ فجأة بمغصٍ شديدٍ يكاد يُقطِّع أمعائي. كم أنتِ حسَّاسة، يا أمعائي الضعيفة! أثَّر فيكِ البرد الشديد الذي اجتاح مدريد بالأمس. ربَّاه! ماذا أفعل إذن؟ كنتُ أعلم أن قليلًا من الكُنياك قد يُدفئ المعدة ويوقف المغص.

دخلتُ أول بار لقيتُه في طريقي، فشربت كأسًا من الكُنياك، فزال المغص بعض الشيء، فأعقبتُه بفنجان من الشاي والليمون، فاسترحتُ كثيرًا بعد ذلك. نسيتُ أن أذكُر لك أن طقس اليوم شديد البرودة بصورةٍ ملموسة. إنني أرتعد في قميصي «الاسبور» الذي يكاد أن يكون بلا أكمام، وبنطلوني الصيفي الخفيف. لقد أخطأتُ خطأً كبيرًا بعدم إحضاري معي جاكتةً صوفية أو ملابسَ شتوية حتى ولو بولوفرًا واحدًا للطوارئ. الملابس الصوفية هنا غالية الثمن جدًّا، فلم أتمكَّن من شراء بولوفر أواجه به موجة البرد هذه. إن نقودي المحدودة لا تساعدني على هذه الخطوة الضرورية التي لم تكن في الحسبان.

هذا رابعُ يومٍ لي في مدريد. لم أُبصِر مشاجرةً واحدة في الطريق العام أو في مطعم أو مقهًى أو متجر. ولم تقع عيني على أمين شرطة أو رجل أمن، كأن البلد يخلو منهم. لم أرَ مخمورًا أو عربيدًا، لا بالليل ولا بالنهار، ولا حتى داخل حانة أو بار. لم تحدث مصادمةٌ واحدة بين سيارتَين أو بين سيارة وحافلة. لم أسمع عن حادث سرقة واحد. لم أُبصِر شابًّا واحدًا يُطارد فتاة في الطريق أو يرميها بلفظٍ نابٍ أو يُعاكسها. كما أنني لم أشاهد أية امرأة لعوبٍ من بائعات الهوى. لم أرَ مجموعات من الشباب الإسباني تُحدِث جلبة أو تقف على النواصي لمضايقة المارِّين والمارَّات. لم أُبصِر مُتسولًا واحدًا يستجدي المارة. لم أسمع كلمة بقشيش بأية لغة من لغات العالم. لم يُحاوِل أحد أن يقترب منِّي أو يسلبني حريتي أو يخدعني كي يحصل منِّي على شيء بدون وجه حَق.

الأمن هنا مُستتِبٌّ بصورة ملفتة للأنظار. الناس من كافة الألوان وجميع الأجناس، يمشون في هدوءٍ وطمأنينة. لم يحاول إسبانيٌّ واحد أن يقترب مني كي يجاذبني أطراف الحديث لكي يستدرجني إلى مكانٍ ما فيعتدي عليَّ ويسلبني ما أحمل من نقود كما قد يحدث لبعض السائحين في مصر، ولنكن صادقين واقعيين. لم أسمع ناقوس المطافئ بالصورة المزعجة التي سمعتُه يدقُّ بها في مدينة نيس بفرنسا؛ حيث كانت سيارات

المطافئ والإسعاف لا تكُفُّ عن الجري في الطرقات لإخماد الحرائق المشتعلة في كل ساعةٍ تقريبًا.

ومن الأدلة على مدى الأمانة والأمان السائدَين في ربوع مدن إسبانيا، أن كل المطاعم والكافيتيريات تضع خارج واجهاتها عشراتٍ من المقاعد والموائد الصغيرة المغطَّاة بأفخر المفارش، وعليها المنافض الجميلة القيِّمة، دون رقيبٍ أو حارس، ولكن أحدًا لا يحاول قَط أن يسرق هذه المفارش أو المنافض رغم أن سرقتها سهلةٌ ميسورةٌ لأي شخصٍ تُسوِّل له نفسه أن يسرق دون أن يراه أحد من أصحابها. ولو أن هذه الموائد والمقاعد وُضعَت خارج المحلات في شوارعنا، لاختلفَت الصورة تمامًا، وربما اختفت المقاعد والمناضد أنفسها أيضًا.

شيءٌ آخر أثار انتباهي، نظافة دورات المياه بجميع المحلات والمطاعم، ونظامها المريح وذوقها الرفيع، كما أنها مزوَّدةٌ بالصابون وبورق التواليت، وبالماء الساخن والبارد، تجدها دائمًا مثاليةً في النظافة. النظافة في أوروبا دين وديْدن، يستحيل أن تجد دورة مياه واحدة قذرة أو مهملة. على النقيض، حتى دورة المياه التي بالطريق العام، نموذجية في نظافتها خالية من كل ما يؤذي العين والأنف معًا.

يرتدي رجل النظافة الإسباني قميصًا رمادي اللون وبنطلونًا من نفس اللون، كلاهما نظيفٌ كل النظافة، ويغطي رأسه بكاسكيت رمادية اللون أيضًا، يحمل في يده مكنسة ذات عصًا طويلة، يمسكها من طرفها وهو يسير طول الوقت على الطوار فإذا وجد ورقةً أو نحوها جرفَها بالمكنسة وأدخلَها في صندوقٍ حديدي ذي ماسك حديدي طويل يمسكه بيده الأخرى. يضغط ذلك الرجل على زرٍّ فينفتح الصندوق، فيجرف إلى داخله قطعة الورق أو غيرها من القاذورات التي يجدها بالطريق، وبعد ذلك يُقفل الصندوق من تلقاء نفسه. لا يمكن لعين أن ترى محتويات هذا الصندوق. وقد لا يلحظ أحدٌ أن ذلك الرجل الأنيق هو رجل النظافة. إنه يمشي وسط الناس كواحدٍ منهم، ولكن عينه الثاقبة تُراقب الطوار وكل ما قد يُلقى عليه من أوراق أو مهملات، وما أقلَّها! ولكنه يلتقطها في لمح البصر دون أن يلاحظ أحد شيئًا مما فعله. ليس عمل ذلك الرجل شاقًّا؛ لأن الشوارع والأرصفة نظيفة بطبيعتها؛ فالناس أنفسهم يُحافِظون على نظافة بلدهم فلا يُلقون شيئًا على الأرض أو على الطوار. وحتى الأطفال يهتمون باستخدام سلال المهملات المنتشرة في الشوارع مثبَّتة في أعمدة النور، فلا تجد عمود نور ليست به سلة للمهملات.

تهتم المرأة الإسبانية بملبسها وأناقتها وهي في الطريق، ترتدي في الصباح ما لا ترتديه في المساء. وأهم ما يلفِت نظرك إليها، الذوق الواضح في اختيار الألوان الهادئة. ويتجلَّى بوضوح ذوقُها السامي في اختيار الحذاء، يتجلَّى لكل من يحاول أن يدرُس هذه النقطة. كذلك الأناقة منتشرةٌ بين الرجال، ولا سيما من كانوا في سن الكهولة، والشيوخ الطاعنين في السن؛ فالحُلة الكاملة المكوية مع رباط العنق الجميل ضروريان جدًّا لتلك الفئة. وهم يحافظون على هذا الزي الكامل مهما تكن درجة الحرارة، يرتدونه صباحًا ومساءً.

لاحظتُ أن العائلة الإسبانية إذا ما خرجَت إلى الطريق، مشى الزوج في المقدمة ثم يسير خلفه الزوجة والأولاد. والأب هو الذي يحمل الصغير على صدره. أما الزوجة فلا تفعل هذا إطلاقًا.

الفتى الإسباني مؤلَّه، تجده إذا ما مشي ومعه حبيبته، راحت هي التي تُقبِّله من حين إلى حين، ثم تُوقِفه في الطريق فتُلقي برأسها فوق صدره، وتحتضنه وهو يربِّت على كتفَيها وكأنه يُهدِّئ من روعها، ثم ترفع رأسها إلى وجهه وتحدِّثه قليلًا لتعود بعد ذلك فتلقي برأسها فوق صدره مرةً أخرى. مرةً واحدة فقط اختلفَت الصورة؛ إذا أبصرتُ شابًّا إسبانيًّا يُقبِّل معشوقته قبلاتٍ طويلة حارة وهي مستسلمةٌ إليه في سعادة وارتياح. حقًّا، صدق من قال: لكل قاعدةٍ شواذ.

حتى الآن، لم أرَ التليفزيون الإسباني ولم أقرأ صحيفةً واحدة إنجليزية أو فرنسية أو حتى عربية؛ فالصحف العربية لا تصل إلى إسبانيا ولا يتعاملون معها. لا تضع الفنادق هنا أية تليفزيونات للتسلية. أما في اليونان وفي فرنسا فقلَّما تجد فندقًا من فنادق الدرجتَين الأولى والثانية ليس به تليفزيون. وعلى العموم أنا لا أشعُر بأنني مشتاقٌ كثيرًا إلى مشاهدة التليفزيون؛ فقد تفرَّغتُ طوال الشهر الماضي، وأنا في مصر، لمشاهدة التليفزيون المصري. أول شيء يُحدِثه فيك هذا الجهاز الخطير الذي لا يكاد يخلو منه بيتٌ واحد في مصر، هو الإحساس بالملل والسأم. حتى النادي الدولي، بدأ يقلد «كاميرا ٩»، ولولا شخصية سمير صبري الفذَّة المسلية والمقبولة عمومًا من جميع المشاهدين بغير استثناء، لاكتفى المرء بمشاهدة «كاميرا ٩» ذلك البرنامج الممتع، بمذيعته اللطيفة المُجيدة لعملها باستمرار. عيب التليفزيون المصري أنه يفرض على المشاهدين مذيعاتٍ اختارها هو تبعًا لذوقه وجعلَهن مرشداتٍ ملقِّنات، بل ومُعَلمات للشعب المصري كله، وهنَّ أبعدُ ما يكُنَّ عن أداء هذه الرسالة الكريمة، بُعد الجهل من العلم، والطيش من الحلم،

وأفش الرأي من صحة الحكم. كيف يجوز أن تجلس فتاة هي «بنت امبارح» أمام عالمٍ مُخضرم تدير معه حديث المتمكِّنة الفاهمة الدارسة لكل ما يعقل العالِم الدارس؟ وليتها تترك الأستاذ العالِم المتمكن من مادته وعلمه يتكلم، بل الأدْهَى والأمَرُّ أنها تُقاطِعه وتُعلِّق، ثم تضيف من عندها «أي كلام». غير أن المذيع الوحيد الذي يُقنِعك بأنه يُقدِّر للعالِم الذي يجالسه قَدْره ومكانته ولا يتعالى عليه أو يتخطَّاه بحالٍ ما، ولا يحاول حتى أن يُعلق من عندياته مهما واتته الفرصة، بل يحرص على ألَّا يُدلي بكلمةٍ واحدة في غير اختصاصه، ويُشعِرك حقًّا بأنه ليس من حقِّه أن يفعل ذلك؛ ذلك المذيع المهذَّب الرقيق المعشر والذكي اللمَّاح، هو الأستاذ طارق حبيب.

إنني مقتنعٌ تمامًا بمذيعة برنامج «نادي السينما»؛ فإن درية شرف الدين مذيعة متمكنة ودارسة ومُلمَّة تُبهِرك بثقافتها السينمائية وبنطقها السليم لأسماء المخرجين، سواء أكانوا من الإنجليز أو من الأمريكيين أو الفرنسيين. أما فكرة المُعلق على الفيلم فهي فكرةٌ لطيفةٌ جعلَتني أحاول شيئًا فشيئًا أن أشاهد الفيلم باهتمام ودقة بالغَين، وأكوِّن لنفسي انطباعاتي وآرائي وتعليقاتي، ثم أقارنها بما سوف يقوله المعلق المتخصص الدارس. ومع ذلك، كم يضايقني أن أرى مذيعة هذا البرنامج تخرج علينا لتقرأ لنا نشرة الأخبار. هذا خطأ. إن ذهني يظل مرتبطًا بدرية شرف الدين طوال الأسبوع، على أمل أن أراها في برنامجها المحبَّب إلى نفسي، فإذا وجدتُها فجأةً تقرأ نشرة الأخبار، فإني أرثي لها؛ لأن المشرفين على جهاز التليفزيون قد أساءوا استخدامها، وحطُّوا من قيمتها الغالية لدى الجمهور. ليست السيدة درية شرف الدين مذيعةً عادية حتى تقرأ الأخبار؛ فللأخبار مذيعوها الذين اعتدنا أن نراهم دائمًا، والذين يُزعِجني أيضًا أن أراهم يُقدِّمون برامج هم ليسوا أهلًا لها.

كنت أحسُّ بأن السيدة تماضر توفيق سوف تُحدِث ثورة في التليفزيون، ولكنها حرمَت المشاهدين من فيلم عصر يوم الخميس. هذا وإن كانت قد هذَّبَت كثيرًا في طريقة إذاعة الإعلانات، فجرَّدَتها من طريقتها المجهدة للنفس. وعلى العموم، يجب السماح للسيدة تماضر توفيق بالوقت الكافي لتقوم بالإصلاحات المرجوَّة، وهي مهمةٌ شاقةٌ جدًّا سوف تحتاج منها إلى مجهودٍ جبَّار فوق طاقة الإنسان العادي.

هناك برامجُ عديمة الفائدة، لا يُفيد منها الجمهور في قليلٍ أو كثير. مثال ذلك برنامج «عزيزي المشاهد». ما جدواه إن كان ما يُقال وقيل فيه لم يُنفَّذ ولم يُؤخَذ به؟ وما جدوى برنامج «دائرة الضوء»؟ كل زائرٍ من زوَّار هذا البرنامج يُكلمني عن

نفس المشاكل التي يعاني منها الشعب المصري؛ مشاكل النظافة والمواصلات والتليفزيون والشباب ... إلخ. يعرف كل مصري هذه المشاكل ويُعاني منها، ويلمسها بنفسه، فما الحاجة إلى من يأتي ليجلس أمامي ساعة كاملة ليُذكرني بها، كأنني لا أعرفها ولا ألمسها أو نسيتها تمامًا؟

ومع ذلك، فهناك برنامجٌ قيِّم جدًّا. إنه برنامج «مع الرأي الحُر». هذا بحق برنامجٌ مفيدٌ جدًّا ومذيعتُه ناجحة موفَّقةٌ غاية التوفيق. وتجد به دائمًا الشخص المسئول عن القضية التي ستُعالَج في البرنامج. وفي كل حلقة، تخرج لنا هذه المذيعة الجميلة الخجول، بالنتائج التي وصلَت إليها بعد عرض المشكلة ومناقشتها من كافة الوجوه مع المسئول الواحد أو المسئولين جميعًا، إن احتاج الأمر إلى ذلك.

هناك الكثير مما يمكن قوله بخصوص التليفزيون المصري، ولكني لا أعتبر أن كتابي هذا قد جُعل خصوصًا للتليفزيون المصري، بيد أنني لا أعتقد أن كتابي هذا مخصَّصٌ لتناول هذا الموضوع الهام؛ ولذلك أكتفي بما قيل كتعليقٍ سريع عن بعض مشاعري تجاه البرامج الهامة التي تَزخَر بها شاشتنا الصغيرة. لا علاقة إطلاقًا لهذا التعليق بالرحلة التي أروي تفاصيلها هنا، ولكن «الشيء بالشيء يُذكر».

تجدني حريصًا جدًّا على مراقبة الوقت؛ فلا أريد أن أتخلَّف عن موعد الأوتوبيس المسافر إلى مدينة «طليطلة». لا أريد أن يحدُث لي اليوم ما حدَث لي بالأمس. سألتُ ثلاثةَ أشخاصٍ عن الوقت وأنا في طريقي إلى الشركة، فوجدتُ أن ساعتي مضبوطة.

نظرتُ خلفي فوجدتُ أسرةً أمريكية تتألف من زوج وزوجة وثلاثة أطفال، ولدَين وابنة. سألت الرجل عن الوقت فأخبرني، فاطمأنَّ قلبي واستراح بالي؛ فإن ساعتي لا تُقدِّم ولا تُؤخر. وفجأةً قالت الفتاة الصغيرة: هل صحيح ما يقوله أبي من أنني أُشبه المصريين؟ قُلت: لو كان كما يقول لكان شكلك يشبهني؛ لأنني مصريٌّ. فوجمَت الفتاة كأنها لم تتوقع المفاجأة، وسألتُها عن اسمها فقالت: أنا لوري. ثم طلبَت منِّي أن أكتب لها اسمها بالعربية بداخل غلاف كتاب كانت تحمله. وما كِدتُ أكتبه حتى طلب منِّي أخوها «جلن» أن أكتب له أيضًا اسمه بالعربية، ففعَلْت. عندئذ صاح الولد الثالث يقول: أنا آندي. هل تسمح فتكتب اسمي أنا أيضًا؟ فكتبتُه له راضيًا. سُرَّ الثلاثة بما كتبتُه لهم. صاحت لوري تقول: من فضلك اكتب لنا اسمك فكتبتُه لهم بالإنجليزية وبالعربية، فطلب منِّي آندي أن أكتب لهم أسماء الحيوانات الموجودة في بلدنا. فكتبتُ له «الجمل» وسألتُه: هل عندكم جملٌ في أمريكا، قال: لا، ولكن في حديقة الحيوان جمل. وقالت

لوري: ألا يُوجد عندكم كلاب وقطط؟ قُلت: بلى، عندنا. كما يُوجد بحديقة الحيوان عندنا أسُودٌ ونمور. فقال آندي: النمور لا تُوجد إلَّا في الهند. هكذا قال أبي. لم نرَها عندما كنَّا في كينيا. قُلت: في كينيا أسُود ونمور يا آندي. فسألني جلن: هل عندكم قصص للأطفال مثل قصص السوبر مان؟ قُلت: بل عندنا مجلة للأطفال تحمل هذا الاسم.

سألتُ الوالد عن اسمه فقال: أنا «ديك» من سكان ولاية أريزونا بأمريكا. «هاك اسمي وعنواني لو طاب لك أن تُراسلني.» قُلت: إن ذلك يُسعدني كثيرًا. فسألني جلن عمَّا إذا كان معي عُملةٌ مصرية فضيَّة، فاعتذرت. قال إن هوايته جمع النقود الفضية وأخرج من جيبه فرنكًا سويسريًّا قال إنه سيبدأ به جمع هوايته. فوعدتُه بأن أُرسل له بعضًا منها إذا استطعتُ ذلك. فسألت لوري عما إذا كانت نقودنا مثقوبةٌ من الوسط فأجبتُها بأن نقودنا الآن ليست مثقوبة من الوسط، وإنما كان لدينا نقودٌ مثقوبة منذ حوالي ٢٥ سنة.

ودَّعَني ديك وأسرته متمنِّين لي التوفيق والسعادة، فتوجَّهتُ إلى مكتب السياحة «خوليا». كان مزدحمًا جدًّا. امتلأ الأوتوبيس المتَّجه إلى طليطلة حتى آخره، ولكن بقِيَت هناك قلةٌ لم تجد مكانًا للجلوس، وكنتُ أنا منهم، فأنزلونا وقالوا لنا إن الشركة ستأتينا بسيارةٍ أخرى. وفعلًا جاءنا أوتوبيس حمل بقيتنا رغم أن عددنا لم يملأ السيارة بأكملها.

تأخَّر ميعاد انطلاق السيارة خمسًا وعشرين دقيقة عن ميعاده. وفي خلال هذه المدة التقيتُ بسيدةٍ واقفة مع زوجها وولدها. نظرَت إليَّ وقالت: لا بد أنك تكتب بالعربية أو بالفارسية. قُلت: إنني أكتب بالعربية. قالت: هل أنت مصري؟ قُلت: نعم. كان هذا الحديث بالإنجليزية، وفجأةً حدثتني بالعربية، فقُلت: أهلًا، هل أنتِ من لبنان؟ قال زوجها وديع: نعم، ولكننا هاجرنا إلى أمريكا منذ ١٨ سنة، فانقطعَت علاقتنا بالوطن تمامًا. ثم أبدى كل واحدٍ منَّا أسفه لِمَا جرى وما زال يجري فوق أرض لبنان. تمكَّن وديع وحرمُه من اللحاق بالحافلة الأولى، أما أنا فكان من نصيبي الحافلة الثانية، وهكذا افترقنا.

بدأَت المرشدة حديثها قائلة: رقم الأوتوبيس هو ٧٨٧ وهو تابع لشركة خوليا للسياحة. ثم أخذت تُحدثنا عن طليطلة وتقول إنها مدينةٌ أثرية وغير مسموح ببناء أية مبانٍ حديثة فيها.

كانت طليطلة، في قديم الزمان، عاصمة إسبانيا، غزاها الرومان ثم المسيحيون ثم العرب في الفترة الواقعة بين القرنَين الحادي عشر والخامس عشر؛ حيث كانت الأديان الثلاثة؛ اليهودية والمسيحية والإسلامية، تعيش في محبةٍ ووئام وسلام. هكذا قالت المرشدة: سنُشاهِد في طليطلة معابدَ يهودية وكنائسَ مسيحية وجوامعَ إسلامية.

طليطلة مدينةٌ صغيرة لا يزيد عدد سكانها على خمسين ألف نسمة وتُشتهر بتاريخها العريق وبماضيها التاريخ المجيد. وإذا ما أراد المرء أن يُشاهدها بدقة، احتاج إلى أكثر من أسبوع للتجول والدراسة.

خرجَت بنا السيارة من مدريد، تجري بسرعةٍ الآن خلال طريقٍ طويل يشبه طريق الإسماعيلية والسويس في بلدنا. تمتدُّ على جانبَي هذا الطريق فلواتٌ من الأرضي غير المفلوحة تكسوها الحشائش الصفراء الميتة. وبين آونة وأخرى تقع العين على مصنع ضخمٍ بمبانيه الممتدة إلى مسافاتٍ بعيدة وأفنيته الواسعة، وكان أحدها يُنتِج جرَّارات الحرث الإسبانية. بدأَت الآن بعض المنازل تظهر على الجانب الأيسر من طريقنا. لا بد أن هذه بلدةٌ صغيرة تقوم على الطريق. لا يزيد ارتفاع أي مبنًى على ستة طوابق. ومعظمها مُشيَّدٌ على طرازٍ واحد متشابه، كما هي الحال في المساكن الشعبية عندنا.

ظهر الآن بعضُ الأراضي المفلوحة والمُعدَّة للزراعة بعضها مزروعٌ والبعض الآخر لم يُزرع بعدُ؛ فها هي حقول القمح على جانبَي الطريق. وتلك بيوت الفلاحين ومخازن غلالهم. وكلها مبنيةٌ بالطوب القوي كالذي تُبنى به البيوت في المدينة. وعلى يميني الآن مصنعٌ ضخم للسيارات.

يبدو أن الرحلة طويلةٌ وشاقَّة. الشمس تملأ جوانب الأوتوبيس وتخترق الزجاج فتلفَح جسوم الركاب بدون رحمة. ذكر لي السيد ديك الأمريكي أنه ذهب إلى طليطلة في رحلةٍ قطعَها القطار الإسباني في ساعتَين ونصف الساعة.

دخل بنا الأوتوبيس منطقةً عامرةً بالمنازل آهلة بالسكان، جوانب الطريق حافلةٌ بالقاذورات والمهملات والحشائش البريَّة. وبعد فترة أخذ الشارع يعود إلى نظافته المعهودة، ولاحت بعض المقاهي بروَّادها القليلين؛ ففي إسبانيا ينام الناس بعد الظهر لأنهم يسهرون حتى الصباح في الملاهي والكباريهات والحانات، وما أشبه؛ فحتى دُور السينما السواريه لا تنتهي قبل الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

عن يساري الآن مجموعة من المنازل الجميلة المنظر المتجانسة الشكل والحجم واللون والطراز، فإن كانت هذه منازل شعبية، فلا شك في أنها أكثر حظًّا من منازلنا الشعبية في مصر، التي تحوَّلَت إلى شيءٍ مُزرٍ لا يُشرِّف البلد أو الحكومة أو الساكنين فيها.

أصبح الطريق الآن يشبه إلى حدٍّ كبير، الطريق الزراعي بين القاهرة والإسكندرية؛ حقول وحقول مترامية الأطراف على الجانبَين. لم تقع عيني على فلاح إسباني واحد.

يبدو أن هذا وقت الحصاد. ضمَّ الفلاحون القمح وحزموه حِزمًا كدَّسوها في أكوام. معظم الأرض بُور ولم يُفلح سوى قطعٍ صغيرة من الأرض، تنمو فيها المزروعات خضراءَ ناضرة. بعض الحقول لا تزال بها أعواد القمح قائمةً لم تُحصد بعدُ.

الآن فقط أرى، بعد طول انتظار، فلاحًا إسبانيًّا يُمسك فأسًا في يده. إنه يرتدي قميصًا وبنطلونًا، ويُغطِّي رأسه بقبَّعة من القَش، ويساعده ابنه الذي بدت لي ملابسه نظيفةً ناصعة تحت أشعة الشمس الساطعة.

شاهدتُ مصنعًا لعربات «سيات» الإسبانية التي شرعَت تغزو بلادنا لتُنافِس «الفيات» الإيطالية.

الطريق مستقيمٌ لا يلتوي ولم يلتوِ إلا مرةً واحدة أو مرتَين فحسب. وهو ضيق نسبيًّا، ولكنه يسمح بمرور أوتوبيسَين في آنٍ واحد.

لسنا وحدنا في الطريق، بل أمامنا رتلٌ من السيارات «الملاكي»، كلها متجهةٌ إلى طليطلة، كما أن عدد السيارات العائدة إلى مدريد ليس بسيطًا.

لاحظتُ أمرًا جديرًا بالذكر هنا ويُشكر عليه سائقو السيارات؛ فهم جميعًا لا يميلون إلى السرعة أو التهوُّر أو أن يُسابق بعضهم البعض الآخر، بل قيادة السيارات هنا متزنةٌ تنمُّ عن عراقة أخلاقهم وتقديرهم للمسئولية وخضوعهم لقوانين المرور ومحافظتهم على أرواح الركاب.

أرى، لأول مرة، ما يمكن أن يُطلق عليه غابةٌ صغيرة؛ إذ تقوم من الأرض صفوف وصفوف من جذوع الأشجار المتراصَّة المتوازية. السيقان كلها رفيعةٌ عارية من الفروع والأوراق إلى ارتفاع غير قليل، ثم تخرج منها الفروع الكثيرة الكثيفة الأوراق تمتدُّ عرضًا إلى مسافةٍ كبيرةٍ نسبيًّا، في الفضاء.

ظلت السيارة مدة ساعةٍ كاملة تنهَب بنا الأرض نهبًا، وما بَرِحنا في الطريق العادي على جانبَيه حقول الحشائش الخضراء حينًا والصفراء حينًا آخر والعمار حينًا ثالثًا.

أحسَّ السائق بالملل يدبُّ في نفوس الركَّاب فعمل على إزالة ذلك السأم بأن يُسمعنا بعض الموسيقى تنبعث جميلةً من مكبِّر الصوت في السيارة. هذا، وإن معظم الموسيقى الإسبانية حلوٌ رغم حدَّته وارتفاعه ودويِّه الذي قد يؤثِّر في الأُذن المتعبة.

شرعَت المرشدة تحدِّثنا من جديد عن طليطلة فقالت إننا نقترب منها، وكأنها هي أيضًا قد شعَرَت بطول انتظار الركاب وما سبَّبه لهم ذلك الانتظار من سأمٍ وملل، فأخذَت تُعلل نفوسنا بالآمال من أن طليطلة المنشودة وشيكة الظهور.

لأول مرة أرى حقلًا ناضر الخُضرة تنمو فيه النباتات عاليةً متراصة في جمالٍ طبيعيٍّ جذَّاب وهبَه الله الحقول ليجعل الناسَ يؤمنون بقوة الخالق وإبداعه، وبأنه مهما افتنَّ البشر في إضفاء الجمال على الحقول بطرقهم الصناعية فلن يَصِلُوا بها إلى ذلك الجمال الأصيل الموهوب. ولأول مرة أجد الغابات الفسيحة الزاخرة بالأشجار الباسقة تمتد إلى مسافاتٍ بعيدة المدى.

وصلنا أخيرًا إلى مدينة طليطلة. أدخلونا متجرًا حافلًا بالشيء الكثير من العاديَّات والمُنتَجات المحليَّة المصنوعة من الموزايك والسيراميك والجلد الفاخر. لا شك في أن الصناعة الإسبانية فخمةٌ ودقيقة تدُل على براعةٍ بالغةٍ ومهارةٍ فائقةٍ في فن النحت على الخشب والنقش على الجلد والخزَف.

يميل الفن الإسباني إلى الأحجام الضخمة الكبيرة سواء كان متمثلًا في حقيبة يدٍ أو حافظة للجيب، أو تمثال.

نزلنا من السيارة وأخذنا نجول في شوارع طليطلة. الشوارع ضيقةٌ ومع ذلك فهي تسمح بمرور السيارات، وعلى جوانب تلك الشوارع كثيرٌ من المتاجر الأنيقة.

يبدو أن الأسعار هنا أرخصُ قليلًا منها في مدريد. وقعَت عيني على مطعمٍ بسيطٍ ولكنه يعرض المأكولات بطريقةٍ تفتح الشهية. كانت الأطباق كثيرةً مختلفة الأحجام متنوعة الألوان، كلها مملوءة بالأطعمة التي يسيل لها اللعاب، والتي إذا شمَّ جائعٌ رائحتها ونكهتها من مسافةٍ طويلة جاء يعدو. كان منظرها يدُل على جودة الطهي.

دخلنا الكاتدرائية الموجودة بالمدينة فإذا بها مبنًى عتيق عريق ينمُّ عن الشدة والجبروت؛ قباء وراء قباء، بالغة الارتفاع، تلتصق بالسماء مكوِّنة رُواقًا فسيحًا خارج الكاتدرائية.

الكاتدرائية شامخةٌ بالغة الاتساع والضخامة، بها قسم لا يمكن الدخول إليه إلا بتذكرةٍ خاصة نظير رسمٍ معيَّن. كل ما بداخل هذا القسم يكاد يكون من الذهب الإبريز الخالص، قُدِّم هدايا إلى الكاتدرائية من شعب طليطلة ومن الملوك والأمراء الأجانب. وجدنا نسخة من الإنجيل مُطعَّمة بالذهب، هدية من ملك فرنسا إلى هذه الكاتدرائية في القرن الثالث عشر. وهناك سيفٌ من الذهب الخالص هدية من الجنرال فرانكو. أما تمثال السيد المسيح المصنوع من العاج فهو هديةٌ من أهل الفلبين إلى مدينة طليطلة.

شاهدت نموذجًا له العجب، يُمثِّل قطاعًا من الكاتدرائية قام بصنعه فنانٌ ألماني استغرق صُنعُه سبع سنوات من العمل المتواصل من عام ١٨١٧م حتى عام ١٨٢٤م،

والجزء الداخلي من هذا النموذج من الذهب النقي، ووزن النموذج مائتا كيلوجرام، ورغم هذا يمكن فكه إلى ٥٦٠٠ قطعة.

جميع نوافذ هذه الكاتدرائية من البِلَّوْر الملوَّن وللكاتدرائية خمسة أسماء. وقد بُدئ في بنائها عام ١٢٢٦م.

دخلنا قسمًا آخر من الكاتدرائية، وإنِّي لأعترف بعجزي عن وصف ما تراه عيني. أرى آياتٍ من الفن لا مثيل لها في عصرنا. الحوائط كلها مكسوَّة بالتماثيل الخشبية المحفورة. حتى مقاعد هذه الكاتدرائية مُزيَّنة كلها بالنقوش؛ بعضُها تُمثل الأشخاص، وبعضٌ آخر يُمثل حيوانات. قام بهذه الأعمال الفنية العظيمة الرائعة مشاهيرُ فناني إسبانيا وفرنسا.

بالكنيسة، أيضًا، تمثال من الرخام النادر الغالي الثمن للسيدة العذراء تحمل السيد المسيح، قدَّمه هديةً أحد ملوك فرنسا.

بالكاتدرائية محرابٌ لا أعتقد أن عيني رأت مثله ولن ترى ضريبًا له طول حياتي، كما أنه لا يُوجد شبيهٌ له في الدنيا بأَسْرها، اضطلَع بصنعه ونقشه وزخرفته عشراتٌ من مشاهير الفنانين، فاستغرق منهم عشر سنواتٍ كاملة من الجُهد المتواصل. كل تمثال من هذه التماثيل يمثل حلقةً من حياة السيد المسيح، ويحكي قصةً من حياته. جميع حوائط المحراب السامقة الارتفاع من الذهب الخالص. وقد يصل ارتفاع هذا المحراب إلى سبعين مترًا. ولا يقلُّ عرضه عن ثمانين مترًا.

دخلنا قسمًا آخر عبارة عن قاعةٍ فسيحةٍ جدًّا لا يقل طولها عن مائة متر، وعرضُها عشرون مترًا أو يزيد، كل حوائطها مُغطَّاة بلوحاتٍ فنية بريشة الفنان جريكو وآخرين أمثال جويا ومولاريز. وتُمثل هذه اللوحات جميعًا شخصياتٍ دينية بحتة. أما سقف هذه القاعة فأشبه بقبة السماء تطير فيها الملائكة وسط الغيوم والسُّحب. لوحة كبيرة جدًّا بعرض القاعة وطولها، مقببة الشكل وليست مُسطحةً، مما يجعل عملية الرسم عليها أشق وأصعب. ورغم الجمال البيِّن في هذه اللوحة الكبيرة فإنها لا تضاهي اللوحات المرسومة على حوائط وسقوف كنيسة الفاتيكان بإيطاليا. لاحظت أن الرسام جريكو لم يترك شخصيةً دينية واحدة إلا ورسمها في دقةٍ بالغة، فرسم صورًا لتلاميذ السيد المسيح؛ مثل القديس بولس ومتى ويوحنا ولوقا.

أمام مبنى الكاتدرائية مبنًى آخر قيل لنا إنه مسكن كاردينال إسبانيا، وإلى جواره مبنى بلدية مدينة طليطلة الذي شُيِّد في عام ١٩٤٨م.

ذهبنا بعد ذلك لنُشاهِد قسمًا يتبع كنيسة القديس توماس. بذلك المبنى لوحةٌ ضخمة تملأ سطح الحائط كله تقريبًا، تُمثل ما حدث للقديس القائد الكونت أورجات جرنثا لوروين دي توليدو يوم دفنه؛ تُبيِّن هذه اللوحة كيف انشقت السماء فنزل منها قدِّيسان قاما بدفن ذلك الكونت، وكيف حُملَت روح ذلك الكونت إلى أعالي السماء بينما يأمر السيد المسيح من عليائه بفتح أبواب الجنة، وكيف تدخلها روح هذا الكونت الطاهرة.

حقًّا، ما أروعَ هذه اللوحة الجميلة التي رسمَها الفنان جريكو برجاء من راعي كنيسة القديس توماس. وقد نُقلَت هذه اللوحة العظيمة إلى مكانها الحالي، حديثًا، كي تكون في مواجهة الداخل مباشرةً، وحتى تقوم فوق القبر الذي به جثة الكونت، والموجود داخل هذا القسم من الكنيسة.

تحكي لنا المرشدة هذه القصة، وتقول لعلها أسطورة حِيكت حول هذا الكونت. غير أن الجزء الحقيقي من القصة، ينحصر في أن هذا الكونت كان موجودًا فعلًا واشتُهِر بين الناس جميعًا بطيب الخُلق ونقاء القلب وحلاوة اللسان وحُسن المعشر.

دخلنا محرابًا آخر في مبنًى يبعُد كثيرًا عن المبنى السابق، وهو مبنًى بسيط جدًّا، حوائطه عاريةٌ باستثناء بعض النقوش المتناثرة هنا وهناك. تُقسِّم صفوفُ الأعمدة المحرابَ إلى ثلاثة أقسامٍ متساوية، والمحراب في الواقع مسجدٌ خالٍ من المقاعد، وقد كُسيَت أرضُه ببلاط يحمل بعضَ النقوش الملوَّنة اللطيفة صنعتها أيدٍ عربية.

عُدنا جميعًا إلى الأتوبيس في طريقنا عائدين إلى مدريد. جلس إلى جواري شابٌّ دمث الأخلاق إلى أقصى ما يمكن أن تكون عليه دماثة الأخلاق، ومعه فتاةٌ رائعة الجمال الجذاب الساحر. سألني نفس السؤال الذي سألَنيه الأخ وديع من قبل: «هل تكتب بالعربية أم بالفارسية؟» فلما عرف أنني مصريٌّ من القاهرة، قال: أنا من قبرص واسمي سقراط، وحبيبتي من النمسا واسمها كريستينا. قد أفكر قريبًا في زيارة القاهرة لأن قبرص لا تبعُد عن مصر. قُلت: مرحبًا بك في أي وقت. ثم سألَني عما إذا كانت إسبانيا قد أعجبَتْني، فأجبته بأنني كنتُ أظنها أكثر إمتاعًا، فقال: هذا هو شعوري أنا وكريستينا. ثم سألني: هل تعرف زينب البري؟ إنها مصريةٌ ومعروفة جدًّا بمصر. قلت: الاسم مصري ولا شك، ولكني لم أسمع عنها أبدًا. فدُهش وتعجَّب، فسألتُه: هل تسمح لي بسؤالٍ شخصي جدًّا، ومن حقك أن تُجيب عليه أو ترفض الإجابة: كيف وأين التقيت بكريستينا الفاتنة؟ التفَت سقراط إلى كريستينا، وسألها: هل أُجيب على سؤال السيد

أم أرفض؟ فلما سمحَت له قال: التقينا في قاعة الدرس. كنا ندرس معًا في أمريكا. أنا أكتب رسالة الدكتوراه وهي تُعِد رسالة الماجستير. والآن، كلانا يعمل هناك. فسألتُه مرةً أخرى: هل تنوي الزواج بكريستينا؟ فنظر إليها وقال: ربما. قُلت: ألا تُحبها؟ قال: بلى، وهي أيضًا تُحبني. فسألتُه: هل أنت من أنصار الحب قبل الزواج أو بعده؟ قال: بل قبله. وكلانا من أنصاره. فسألتُه: منذ متى تعرَّفتَ على كريستينا؟ قال: منذ عامٍ كامل. قُلت: ألا تكفي هذه المدة الطويلة بحق للتعرف على أخلاق حبيبتك؟ فضحك بصوتٍ عالٍ وحاول أن يزوغ من الإجابة على سؤالي.

في هذه اللحظة توقفَت السيارة. كان أمامها مزلقان سكة حديدية. كانت الحواجز الخشبية تهبط بآلة يُديرها عاملٌ مرابط إلى جوارها، وما إن مرق القطار حتى أدار الآلة فارتفعَت الحواجز بسرعة. يجدُر بي أن أعرض هذا المنظر البسيط بعد أن تعدَّدَت حوادثُ تصادُم قطار حلوان بالسيارات الملاكي وغيرها، بسبب عدم احترام سائقي السيارات للإشارة الحمراء وللناقوس الذي يدقُّ دقًّا متواصلًا بصوتٍ عالٍ مسموع، فتكون النتيجة ضحايا أبرياء لا ذنب لهم تُزهَق أرواحهم من جرَّاء طيش السائقين ونزقهم، أولئك الذين يدمنون المخدرات والخمر ويستهترون بأرواح الناس.

عُدتُ الآن إلى الفندق والساعة تدُق التاسعة مساء، والشمسُ ما زالت تُشرِق كأنها في التاسعة صباحًا. لن تُصدِّقني إذا قلتُ لك إن النهار هنا لا ينحسر قبل العاشرة أو العاشرة والنصف مساء.

وجدتُ في مكتب الاستعلامات بالفندق شابًّا نحيل الجسم ذا شاربٍ رفيع أسود. ومن حُسن حظِّي وجدتُه يتكلم الإنجليزية بطلاقة. وفي الحال أخذتُ أشرح له متاعبي، وكيف أنني لا أستطيع أن أنام الليل بسبب ذلك الضجيج الصاخب المرتفع من الشارع الرئيسي الذي تُطِل عليه حجرتي. هذا بالإضافة إلى الحشرات التي تمشي في الحمَّام وعلى حوائط الحجرة طوال الليل. تأفَّف الشاب وأبدى امتعاضه، وكأنه لا يصدقني، فقلتُ له: هل يمكنني أن أنتقل إلى حجرة أخرى بعيدة عن الشارع كي أستطيع النوم بالليل؟ قال: سأحاول، ولكنني لستُ واثقًا مما إذا كان بمقدوري إعطاؤك الحجرة في هذه الليلة. قُلت: ليتك تستطيعه الليلة؛ فهذا أفضل لي. وجرَّنا الحديث معًا إلى أن أسأله عن مشكلة اللغة في إسبانيا، فقال: حقًّا إنها مشكلة بالفعل. أما أنا فأتعلم الإنجليزية في الجامعة، وأنا طالبٌ في كلية الاقتصاد، كما أنني أتردَّد على المعهد البريطاني لأتلقى دروسًا في الإنجليزية. قد يُسعِدك أن تعرف أنني أَنظِم الشعر، بيد أنني غير واثقٍ من

أوزانه. قلتُ له مشجعًا: لا عليك. اكتُب كل ما يعِنُّ لك واترك مسألة الأوزان إلى ما بعدُ. فأعجَبَته فكرتي وقال: إنهم هنا يثبِّطون من عزيمتي، ولكنني سأعمل بنصيحتك، وسأكتب أحاسيسي وكل ما يجول بخاطري.

بلغَت الساعة الآن التاسعة والنصف، فقلت لهذا الموظف الشاب، واسمه لويس: سأذهب الآن إلى حجرتي لأستحم ثم أعود إليك لأرى الحجرة الجديدة التي ترى أنها أفضل من حجرتي وأقل ضجيجًا. قال: وهو كذلك.

دخلتُ الحجرة، ولما هممتُ بإضاءة الثريَّا المعلقة في سَقفِها لم ينبعث منها أي نور، وذُهلتُ عندما اكتشفتُ أنهم نزعوا مصابيح الثريَّا كلها، فأمست الحجرة معتمةً ليس بها إلا أنوار الفراش غير الكافية لإضاءة تلك الحجرة الواسعة. ضايقني هذا الحدَث غير اللائق بل والإجرام اللئيم، فأمسكت بالتليفون وتحدَّثتُ إلى لويس وشرحتُ له ما زاد الطين بِلَّة، فقال: لقد وجدتُ لك حجرةً أخرى بعيدةً عن ضوضاء الشارع. خُذْ حمامك وأسرِع بالمجيء عندي.

سرعان ما كنتُ عند لويس، فصَعِد معي إلى الدور الخامس وأراني حجرةً رائعة، هادئة تمامًا، حوائطها زرقاء وستائرها زرقاء وكل شيء في حمَّامها بلونٍ أزرق، حتى الأحواض والبانيو والبيديه كلها من القيشاني الأزرق اللون. أعجبتني هذه الحجرة وقرَّرتُ في الحال أن أنتقل إليها. وفعلًا حزمتُ حقائبي وصَعِدتُ بها إلى الدور الخامس، وهكذا تخلَّصتُ من ضجيج الشارع الذي أقضَّ مضجعي وأتعبَني طوال الليلة الماضية.

خرجتُ لأتناول العشاء، وكانت الساعة قد قاربَت العاشرة والنصف. الشوارع غاصَّةٌ بالناس. ولأول مرة أشاهد معركةً بين قائدَي سيارتَين؛ فقد نزل قائد السيارة الأمامية وتوجَّه إلى السيارة التي خلفه وراح يصرخ في وجه سائقها الذي كان معه أولاده وزوجته. تجمَّع الناس على الطوار يشاهدون المُشادَّة الكلامية من بعيدٍ فحسب. لم يحاول أحدهم أن يقترب أو يتدخل. لم أعرف سبب الخلاف أو ما أزعَج السائق الأمامي وأثار حفيظته على السائق الخلفي، ولكنهما كانا يلوِّحان بأيديهما، وكأن كلٌّ منهما يهدِّد الآخر متوعدً. كانت هذه أول مرة أرى فيها أمرًا شبيهًا لما قد يقع عندنا بين سائق تاكسي وسائق سيارة ملاكي أو بين قائدَي سيارتَين ملاكيتَين وقد نزل كلٌّ منهما وراحا يتراشقان بالشتائم والسباب، وفي معظم الأحوال بنابي الألفاظ، ثم يتطوَّر الأمر إلى تبادل اللكمات والركلات، وربما إلى الضرب بما في السيارتَين من قِطَع حديدية.

دخلتُ مطعمًا لا أعرفه ... كان أقرب مطعمٍ صادفَني في أحد الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع جوزي أنطونيو الرئيسي. قابلَني النادل بابتسامة، وقدَّم لي قائمة

الأطعمة الإسبانية. لم أفهم شيئًا مما فيها، طبعًا، نهضتُ من مقعدي أريد أن أُشير للنادل بإصبعي إلى الأطعمة التي أريدها، ولكن شابًّا إسبانيًّا من زبائن المطعم تقدَّم مني وسألني عما إذا كنتُ أتكلم الإنجليزية فقلت له: نعم، هل تسمح، إذن، فتقول للنادل أن يأتيني بطبقٍ واحد به طرف من كل الأصناف المعروضة؟ بمعنى قل له أريد «واحد أورديفر». ولكن الفتى عجز عن إفهام النادل طلبي لأنه لم يفهَمه هو نفسه؛ لم يفهَم كلمة «أورديفر» فأُصبتُ بخيبة أمل، ولكنه سرعان ما جاءني بكوب به قليل من النبيذ الأحمر وقدَّمه لي، فتناولتُه منه شاكرًا، ثم قدَّمني إلى الفتاة التي معه فحيَّيتُها في أدب، غير أنني سمعتُها تقول له بلغةٍ إسبانية أمكنَني أن أفهمها: «قل له إنني سيدة متزوجة.» فدُهشتُ لأمر هذه السيدة الحمقاء ومن عقليتها الساذجة المتأخرة.

وإذ كان لا بد لي من أن آكل شيئًا، فقد رأيتُ النادل يحمل طبقًا مملوءًا بقطَع حسبتُها من اللحم المستدير، كان منظرها فاتحًا للشهية، فقلتُ له: مثل هذا. فأتاني بمثله. وكم خيَّب أملي وأحزنَني أن هذه الكرات شيءٌ لا أعرفه من الخارج محشوَّة بالثوم المجروش والبصل والبقدونس. وهذا طعام لا يمكنني أن أتناوله ظهرًا، فما بالُك أن آكله ليلًا وقبيل النوم؟ كما أن أمعائي لا يمكنها أن تتحمل كل هذه الكمية من الثوم بغتةً وبلا رحمة. هربت من ضجيج الشارع فيأتيني الثوم يُطير النوم من عيني ويسبِّب لي المغص والألم، كالمستجير من الرمضاء بالنار! نحَّيتُ الطبق جانبًا.

جاءني الرجل بعد ذلك بطبق من السلاطة عبارة عن شرائح من الطماطم، فطلبتُ منه أن يأتيني بالملح والفلفل فجاءني بالملَّاحة وبعلبة قال لي «هذا هو الفلفل». حاولت أن أرُشَّ بعض ما في تلك العلبة ولكن ذلك البعض أبَى أن يخرج أبدًا، فحِرتُ في أمري، فهززتُ العُلبة بشدة، فانسكَب كل ما فيها تقريبًا، ويا ليته كان فلفلًا. لو كان فلفلًا لهان الأمر، ولكنه كان شطةً حمراء من الشطة السوداني اللعينة فقلتُ في نفسي: إنَّا لله وإنا إليه راجعون. سامحكِ الله يا مدريد، كل مصيبة تأتيني فيكِ أعظم من الأخرى. وهكذا لم أتمكن من الانتفاع بطبق السلاطة. وكان عليَّ أن أدفع ثمَن هذَين الطبقَين دون أن تلمسهما يداي أو على الأصح لساني.

والأدهى والأمرُّ أنني فوجئتُ بالنادل يقدِّم لي فاتورةً تطالبني بدفع ٣٧٥ بيزيتا؛ أي ما يقرب من أربعة جنيهات مصرية، فكِدتُ أتأوَّه من فداحة المبلغ الذي أوصلتُه إلى ٤٠٠ بيزيتا، بأن نفحتُ النادل ٢٥ بيزيتا بقشيشًا، وانصرفتُ أسير على الطَّوى وأغلي من الغيظ.

الباب العاشر

زيارةٌ متحفية وسهرةٌ سينمائية

انتهى الأمس بأحداثه المريحة وغير المريحة، وأَقبل صباح يوم الأحد الموافق ١٧ من يوليو. صحَوتُ من نومي وقد ارتاحت أعصابي تمامًا. كانت الحجرة رقم ٣٣٥ هادئة جدًّا كأنها معزولةٌ عن الدنيا وما فيها. وأعتقد أنني نمتُ في وضع واحد طول الليل حتى أقبل الصباح ... فرُحتُ أشكر، من كل قلبي، الشاب لويس الذي أهداني هذه الحجرة، وصيَّر إقامتي في مدريد محتملةً بعض الشيء. لقد أنساني ما حظيتُ به من نومٍ هادئ عذب لذيذ، كل ما ضايقني بالأمس في ذلك المطعم اللعين، وما ضاع منِّي فيه من نقود أنا في أشدِّ الحاجة إليها لأنفقه فيما هو أجدى وأنفع. قد تبدو كلماتي هذه غريبةً عليك أيها القارئ العزيز، وقد تظنني بخيلًا أو شحيحًا. لا يا سيدي، ليس الأمر كذلك بالمرة؛ فأنت أيها المصري إذا ما تعرَّضتَ للغربة في أي بلدٍ أوروبي، هالك وضايقك جدًّا ارتفاع الأسعار المخيف الذي ستُواجهه ولا حيلة لك إزاءه. الفنادق مرهقةٌ والطعام مرهقٌ والمواصلات مرهقة والبضائع مرهقة بالنسبة لك فقط، ولكنها ليست مرهقةً للأمريكي أو الإنجليزي؛ فأنت كمصري، لا يُسمح لك بأن تأخذ معك أكثر من ١٢٧ دولارًا بالسعر التشجيعي، وهذا مبلغٌ ضئيلٌ جدًّا في مواجهة متطلبات الحياة في أي بلدٍ أوروبي، فأذكر، وأنا في فرنسا، أن التاكسي الذي حملَني من المطار إلى فندق أفيدينا تقاضى مني ٤٠ فرنكًا؛ أي حوالي تسعة دولارات؛ أي ما يوازي سبعة جنيهاتٍ مصرية تقريبًا.

تناولتُ طعام إفطاري الهزيل في قاعة المائدة بالدور الثالث قدَّمَته لي عجوزٌ شمطاء مُتصابية تضع كميةً كبيرة من أحمر الشفاه والكُحل فتخالها شابة، غير أنك إذا نظرت إلى يدَيها المعروقتَين وإلى ساقَيها النحيلتَين والمعروقتَين أيضًا أيقنتَ أنها لا تقل بحالٍ ما عن الستين وربما عن السبعين خريفًا.

بعد أن فرغتُ من شرب القهوة الساخنة التي أحضرَتْها لي تلك العجوز الدردبيس، كان عليَّ أن أمُرَّ بمكتب الاستعلامات وأنا في طريقي إلى السُّلم كي ارتقيه إلى الدور الخامس، فوجدتُ لويس يعمل، فحيَّاني بابتسامة حلوة، وسألني: كيف حالك في الحجرة الجديدة؟ قُلت: على خير حال. أنعم فيها بالهدوء الكامل؛ ولذا تجدني عاجزًا عن شكرك. وإذ كنتُ قدَّمتُ له سوارًا به جعارين مصرية زرقاء وخاتمًا من الصناعة المصرية علاوةً على سلسلة مفاتيح بها جعران أزرق كبير هديةً له، قال: على فكرة، شقيقتي تشكرك كثيرًا على السوار والخاتم وتقول إنهما جميلان حقًّا. ودخلنا في حديثٍ طويل تناول عدة موضوعات، جاء الكلام عنها عفوًا؛ تكلمنا عن أشهر الأطعمة والمشروبات الموجودة بمدريد. قال: الطبق الشعبي عندنا اسمه بإيليا Pealla وهو عبارة عن أرز مخلوط بالدجاج والسمك مع قليل من الصلصة والزبد، وسعره لا يزيد على ٢٠٠ بيزيتا حسب الطبق.

عندنا أيضًا طبقٌ شعبيٌّ آخر اسمه كايوس Callos عبارة عن قطع من اللحم والسجق المخلوطَين بالصلصة الحارة. وهذا الطبق واسع الشهرة جدًّا في مدريد وثمنه ٢٠٠ بيزيتا فقط.

أما الشراب الشعبي عندنا فاسمه سانجريا Sangria. وهو عبارةٌ عن خمرٍ مخلوطة بشراب الليمون مع الثلج وعصير الفواكه وقليل من السكَّر، وسعره ١٥٠ بيزيتا للكوب.

وسألتُ لويس عن العمل الحكومي ومتى يبدأ. كنتُ أتوق دائمًا إلى أن أسأله هذا السؤال بعد أن علمتُ، بصفةٍ قاطعة، أن دور السينما لا تنتهي قبل الواحدة والنصف صباحًا، وأن الكباريهات الليلية لا تبدأ إلا بعد الثانية عشرة مساءً ولا تنتهي قبل الرابعة أو الخامسة صباحًا، فقال: يبدأ العمل الحكومي في إسبانيا، في الساعة التاسعة صباحًا، ويستمر حتى الثالثة بعد الظهر. لا بد للموظف من أن يعمل ثماني ساعاتٍ في اليوم؛ هذا هو المفروض. إلا أن هذا لا يحدث أبدًا. ثم سألتُه عن مرتَّبات الموظفين في إسبانيا، فقال: تتراوح المرتَّبات عندنا بين ١٥٠٠٠، ٢٠٠٠٠ بيزيتا في الشهر الواحد. ثم استطرد يقول: عندنا تضخُّم في إسبانيا؛ فعدد الخِريجين من الجامعة يزيد على حاجة العمل عندنا. على كل خِريج أن ينتظر حتى يجيء دوره؛ ولهذا السبب، قد يقبل خِريج الجامعة أي عمل دون مستواه ولا يتفق مع تخصُّصه وشهادته الجامعية. ومما يزيد المشكلة تعقيدًا في بلدنا أن هناك وظائفَ لا يعمل بها سوى الرجال، ووظائفَ أخرى لا يعمل بها إلا النساء. ولعلك تُدرك الأزمة التي تُحدثها النساء في طريق الرجال؛ فقد تكون الوظيفة شاغرة ولكنهم يُصِرُّون على أنها للفتاة وليست للفتى. فسألتُه عن دَوْر الشباب في إسبانيا،

قال: يعيش الشباب في دنيا أخرى، مختلفة تمامًا، ومنعزلة جدًّا عن دنيا كبار السن. آراء الشباب تختلف تمام الاختلاف عن آراء الآباء والأمهات. يسعى الشباب هنا إلى مزيد من الحرية والانطلاق. يريدون التحرُّر من آراء الأجيال القديمة السابقة التي لا تتمشَّى مع آراء العصر الحديث. وسألتُه عن الطلاق في إسبانيا، قال: لا يُوجد طلاق في إسبانيا، بسبب الدين والقانون؛ فكلاهما لا يُساعدك على الطلاق. فضلًا عن أن الطلاق ممنوع في الديانة الكاثوليكية. وسألتُه عما إذا كانت الفتاة الإسبانية تُحافظ على عذريتها، قال: البكارة هامة جدًّا لدى الآباء، أما الشباب فلا يُعيرها اهتمامًا خاصًّا؛ فالحب هو الحب بجميع مستلزماته وعواقبه. ثم سألتُه عما إذا كانت اللغة الإسبانية تستعمل كلماتٍ عربية، قال: جميع الكلمات الإسبانية التي تبدأ بالحرفين «ال» أصلها عربيٌّ صميم. وسألتُه عن نظام الوجبات، قال: ليست وجبة الإفطار عندنا ذات بالٍ ولا نُعيرها أي اهتمامٍ، أما الوجبة الرئيسية عندنا فهي وجبة العشاء. ولا تخلو المائدة الإسبانية من قليل من النبيذ؛ فهذا أمرٌ عادي مألوف في جميع البيوت وكافة العائلات مهما تكن فقيرة.

سألتُه: هل الإسباني لا يغضب أبدًا؟ قال: الحال على عكس ذلك؛ فالإسباني عصبيُّ المزاج سريع الغضَب وحامي الطبع إلى درجةٍ كبيرة؛ أي شيء يُثيره ويثير غضبه، لا سيما فيما له اتصال بالعلاقات النسائية. وسألتُه: كيف وأين يتم التعارف بين الجنسين؟ قال: يتم التعارف في الحانات والبارات والكافيتيريات، ولكنه من المُحال أن يتم في الطريق العام لأن الناس دائمًا في عجلة. وسألتُه عما إذا كان البغاء مسموحًا به في إسبانيا، قال: البغاء ممنوعٌ في إسبانيا، ولكن عندنا شوارع خاصة تُمارَس فيها الدعارة بصفةٍ غير رسمية.

وفجأة راح لويس يُحدِّثني عن نظام الاحتجاج بالمظاهرات قال: تعلن الجهة التي ستقوم بالإضراب عن تاريخ الإضراب؛ إمَّا في الجرائد اليومية أو بالملصقات في كل أنحاء المدينة. وهكذا يكون لدى الشرطة والسلطات علمٌ مسبق بهذه التجمهُرات الشعبية التي يكون سببها غلاء المعيشة، مثلًا. والمتظاهرون هنا لا يفكِّرون إطلاقًا في استخدام العنف أو قذف الأحجار أو تحطيم نوافذ المتاجر أو الأوتوبيسات أو السلب أو النهب. وإنما يكتفون بحمل اللافتات التي تُعلن عن مطالبهم ومواضع شكواهم.

وسألتُه عما إذا كان يجري في مدريد نهرٌ ما، فقال: عندنا نهر مانثاناريس، ولكنه نهرٌ قصير ضيق عديم الفائدة. وتعيش مدريد على المياه التي تأتيها من بحيرتَين كبيرتَين صناعيتَين موجودتَين بالقرب من الجبال.

ولما سألتُه عن حكم فرانكو والذي دام أربعين عامًا، قال: يعيب الفقراء على حكم فرانكو؛ لأنه خلَق منهم فقراءَ مُعدمين، بينما يُثني الأغنياء على حكمه؛ لأنه جعلهم أثرياء من أصحاب الملايين. ثم استطرد يقول: وقد أوصى فرانكو، قبل موته، بأن يخلفه على عرش إسبانيا، الملك كارلوس، ولعل هذه هي المَحمدة الوحيدة التي خلَّفها الجنرال فرانكو وراءه.

سألتُه عن التعداد الحقيقي لمدريد عاصمة إسبانيا، فقال: يبلغ عدد سكان مدريد حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة، والنساء أكثر عددًا من الرجال. غير أن هذه الزيادة لا تسبب لهن مشكلة أو أزمة زواج. وحتى ولو كانت هذه المشكلة موجودةً بالفعل، فليست هي موضوع الساعة ولا نفكِّر فيها إطلاقًا.

قلتُ له: إنني لم أرَ شخصًا واحدًا ثملًا في شوارع مدريد أو في أي بارٍ بها، فهل الإسبان لا يشربون الخمر، رغم أنني أراها منتشرة في كل البارات والمقاهي والمطاعم صغيرها وكبيرها؟ قال: السُّكْر والعربدة ممنوعان في شوارعنا، ولكنك قد تجدهما في الملاهي الليلية في الساعات المتأخرة من الليل، وحتى هذا محظورٌ أيضًا. والشرطة هنا صارمةٌ جدًّا إزاءه، فلن يُفلِت السُّكارى من العقاب إذا ما أثاروا شغبًا، أو أحدثوا إزعاجًا للسكان، أو إقلاقًا لراحة الأهلين، أو اعتداءً على المارِّين في الطرقات. هذا والإسبان مولَعون بشرب النبيذ أكثر من أي نوع آخر من الخمور؛ ففي شمال إسبانيا مثلًا، يشرب السكان هناك نوعًا من النبيذ اسمه ريبييرو Ribeiro سواء أكان أحمر أو أبيض، وسعره معتدل في متناول كل الطبقات، ويُقبل على شُربه عامة الشعب هناك. أما في جنوب إسبانيا فالشراب المألوف الذي يُقبل عليه عامة الشعب فاسمه موريليس Moriles. وهناك نوعان آخران من النبيذ يحبهما الناس جدًّا، هما المونتيجا Montilla والمانثانيجا Manzanilla.

أما منطقة شمال شرق إسبانيا فلا يشرب أهلها إلا نبيذ البريوراتو Priorato وشرابًا آخر اسمه ريوخا Rioja. وهناك عداهما شراب البالدبيناس Valdepenàs. وكل هذه أنواعٌ مختلفة من النبيذ، يُقبل عليها سكان ذلك الجزء من إسبانيا.

أما منطقة وسط إسبانيا فتُشتهر بأنواع أخرى مثل السيدرا Sidra وتشاكولي Chacoli.

وفجأة سألني لويس، بدوره، عما إذا كنتُ أحب شرب النبيذ، فقُلت: ليس دائمًا، وفي الشتاء بنوع خاص أحيانًا. قال: أرجو أن تقبل مني زجاجة من نبيذ إسبانيا العتيق هديةً متواضعة مني. ثم استطرد يقول: لن أنسى أن أقدِّمها لك اليوم؛ لأنني سأبقى في

عملي هنا اليوم حتى الرابعة. هل ستتأخر في الخارج إلى ما بعد الرابعة؟ قُلت: إنني أفكر في زيارة متحف برادو؛ إذ قيل لي إنه رائعٌ وجدير بالمشاهدة، فأيَّد لويس ما قيل لي، وأخذ يشرح لي طريق الوصول إليه سيرًا على الأقدام.

سرتُ في الطريق الذي وصفه لي لويس، غير أنني لاحظتُ وأنا سائرٌ أن الشوارع غير آهلةٍ بالمارِّين كما شَهِدتُها في الأيام السابقة. لعل هذا راجع إلى أننا في يوم الأحد، يوم العطلة الأسبوعية، وجميع المتاجر مغلقة.

استعنتُ مرةً واحدة برجلٍ إسباني عجوز كي يرشدَني إلى الشارع الصحيح المتفرِّع من الميدان الذي ساقَتْني إليه قدماي. فهم الرجل كلماتي الإنجليزية وأخذ يُرشدني مسرورًا سعيدًا. وفجأة، تقدَّم منِّي شابٌّ أسود البشرة كلمني بالفرنسية يسأل: أين الكنيسة؟ أريد أن أحضُر القدَّاس في أية كنيسة. فترجمتُ كلماته إلى الإسباني المُسن. وكم كانت دهشتي عظيمة أن الرجل الأسود البشرة كان يسألني عن الكنيسة وهو واقفٌ أمامها تمامًا وعلى بُعد خطوات وليس أكثر! فأخبرتُ الزنجي بأننا واقفون أمام الكنيسة، وأشرتُ إلى بابها وكان مفتوحًا لاستقبال الناس، وكانت مملوءة بجموع المصلين يؤدون فريضة الصلاة.

استرشدتُ بكلمات العجوز الإسباني وقطعتُ مسافةً لا بأس بها. ولما وجدتُ نفسي في شارع مُقفِر لم يكن به سوى فتًى وفتاة يمشيان معًا، سألتُهما عن المتحف وعن مكانه، فقالا: إننا ذاهبان إليه. وطلبا منِّي أن أكون ثالثهما. عرَّفتُ هذَين الحبيبَين باسمي، فقالت الفتاة، وكانت مُلمَّةً ببعض الفرنسية: أنا كونستيا وهذا صديقي هنريكي. أنا أدرُس علم الأحياء وهو يدرُس الطب بجامعة سان جاك كومبوستيلا في مدينة جاليثيا. وسألَتني: هل هذه أول مرة تأتي إلى هنا؟ قُلت: نعم. قالت: وهنريكي أيضًا، يزور مدريد الآن لأول مرة. أما أنا فجئتُ إلى هنا أكثر من مرة، ومع ذلك فلا أعتقد أنني أعرف مدريد كما ينبغي.

وصلنا إلى المتحف، فأبرزَت كونستيا من حقيبتها بطاقة، وهكذا فعل هنريكي. قالت: بما أننا طلبة بالجامعة، فبطاقة الجامعة تُعفينا من دفع رسم الدخول. قلت: أما أنا فسأدفع هذا الرسم. هل تعرفان مقداره؟ قالت: اليوم يوم الأحد، والدخول إلى المتحف اليوم بالمجَّان. فسُرِرتُ أولًا، ولكنهم طلبوا مني خمسين بيزيتا رسمًا للدخول. أول ما يقابل الداخل بهوٌ فسيح أنيق، حوائطه كلها مُغطاة باللوحات الفنية العتيقة والطريفة، التي لا يمكن أن تُقدَّر بثمَن.

اتجهَت كونستيا وهنريكي إلى المصعد مباشرةً فتبعتُهما. صَعِدنا إلى الدور الثالث من المتحف؛ حيث وجدنا أنفسنا داخل قاعاتٍ فسيحة جدًّا غاصَّة باللوحات الزيتية البديعة الرسم المتقنة إلى أقصى ما يمكن الإتقان، لدرجة أنك تُحسُّ بأن الأشخاص المرسومين بها يكادون يتكلمون، وهذه اللوحات كلها بريشة مشاهير الرسامين العالميين. غير أن القاعة الأولى التي دخلناها، كانت جميعُ لوحاتها البديعة بريشة الفنان «جويدوريني»، الذي عاش في الفترة من عام ١٥٧٥م حتى عام ١٦٤٢م. ومن أجمل اللوحات التي رسمَها هذا الفنان، والتي لا تدخل في نطاق الشخصيات الدينية ولا في أحداث التوراة والإنجيل، هي لوحة «أتالانتا»، وهي تجري في سباقها الأسطوري المعروف، فتنحني كي تلتقط التفاحة الذهبية، وبذا خسرَت السباق وفاز به الفارس المتيَّم بهواها بعد أن هَزمَها في السباق بهذه الخدعة البارعة.

الشيء بالشيء يُذكر. ذكَّرَتني هذه الصورة التي تكاد تتكلم بما رأيتُه في متحف الشمع «مدام توسو» بلندن. كل ما في ذلك المتحف رائعٌ. تماثيل الأشخاص بالحجم الطبيعي وبملابسهم التي كانوا يرتدونها أيام حياتهم، تنظر إلى الشخص وقد ظهرَت التجاعيد الدقيقة جدًّا ببشرته ومسام الجلد والعروق، وأهداب العيون، والشفاه بلونها الطبيعي وبتشققاتها، والأسنان طبيعيةٌ تمامًا، تخال الشخص منهم حيًّا سيكلمك أو أنه يتكلم مع زميل له، لدرجة أنني رأيتُ أحد الحراس واقفًا منتصب القامة في حُلَّته الزرقاء، فحسبتُه واحدًا منهم، فأمعنتُ النظر في وجهه فضحك وضحكتُ أنا وقُلت له: والله لقد التبس عليَّ الأمر، فما عُدتُ أعرف الأحياء من هؤلاء الجموع الزائرة، وأظن التماثيل منهم لولا أنها لا تتحرك. فأخبرني بأنني لست أول من التبس عليه الأمر؛ فكثيرٌ جدًّا من الزائرين يظنون أي شخصٍ واقفٍ لا يتحرك، يظنونه من هذه التماثيل المتقنة الصنع إلى درجة تفُوق كل ما يتصوَّره العقل البشري.

هناك تماثيل بالحجم الطبيعي لعظماء الملوك والقوَّاد والشعراء والرؤساء وغيرهم. تجد تمثال شكسبير بملابسه الطبيعية، كما تجد نابليون ونلسون وملكة إنجلترا الحالية وزوجها وأولادها في جلسة عائليةٍ طبيعية جدًّا وبملابسهم الحقيقية، وتجد تمثال الملك جورج الخامس وكثيرًا من الملوك. كما تجد تمثال الرئيس جمال عبد الناصر بحُلَّته البُنية اللون والمنديل الأبيض في جيب جاكتته، فتخاله حيًّا يكاد يُكلم الملك حسين الواقف إلى يمينه بحُلته الزرقاء الطبيعية. وفي اعتقادي أن هذا المتحف يحصل على تلك الملابس من أصحابها أو من ورثتهم بطريقةٍ ما.

هناك قاعةٌ فسيحةٌ جدًّا أنوارها خافتةٌ تكاد تكون مظلمة، حوائطها مطلية كلها باللون الأسود، ويُطلق عليها «قاعة الرعب»؛ إذ تضم مشاهير المجرمين كل واحدٍ منهم في مقصورة عليها لافتةٌ خشبية كُتب عليها ما اقترفه من جرائم وتاريخ اقترافه لها وتاريخ إعدامه؛ فهناك تمثال رجلٍ مُجرم اعتاد أن يُغرق زوجته في بانيو الحمام ويضغط على جسمها تحت الماء حتى تختنق وتموت، فيُبلغ قسم الشرطة أنه عاد إلى بيته فوجد زوجتَه غارقة في البانيو وهي تستحم، وبذا يتزوج غيرها. ولما تكرَّر هذا منه شُرِّحَت جثةُ آخر زوجة فبانت طريقتُه في قتل زوجاته، وحُكم عليه بالإعدام. وتجد إلى جانبه البانيو أداة الجريمة، وربما كان هو البانيو نفسه.

في مقصورةٍ أخرى تمثال رجل كان يُغري الناس بالمجيء إلى بيته، فيكتم أنفاسهم بوسادةٍ حتى يفارقوا الحياة، ويحمل الجثة ليلًا إلى طلبة الطب فيبيعها لهم ليدرسوا عليها. وهكذا تجد في هذه القاعة عددًا لا يُحصى من المجرمين العالميين. ولا أدري لماذا لم يصنعوا تماثيل لرية وسكينة المصريتَين الشهيرتَين باستدراج النساء إلى بيتهن، فيقتلهن زوجاهما، ويسلبان ما معهن من مصوغات. وربما كانت لهما تماثيلُ هناك وأنا لم أرَها أو ربما رأيتُها ولم أفطن لها بسبب كثرة تلك التماثيل وتنوُّع الجرائم.

الحق يُقال، إنني أُثني على من صنعوا تلك التماثيل التي تبدو بدمها ولحمها كأنها حية تمامًا.

نعود إلى متحف مدريد. انفصلتُ عن كونستيا وهنريكي إذ كانا يُدققان النظر في كل لوحة ويقفان أمامها مدةً طويلة، فخشيتُ أن تفوتَني رؤية محتويات المتحف، لا سيما وأن المتحف يقفل أبوابه في الساعة الواحدة تمامًا بعد الظهر.

انتقلتُ إلى قاعةٍ أخرى طولها لا يقل عن ٢٥ مترًا، ولا يقل عرضها عن عشرة أمتار، تُجمِّل حوائطها ١٤ لوحة، لا يقل مقاس اللوحة منها عن ٥ × ٢½ من الأمتار والبعض الآخر مساحة اللوحة منه ١ × ١¼ من الأمتار — معظم اللوحات عن موضوعاتٍ دينية من رسم الفنان «ماتيابريتي» الذي عاش في الفترة من عام ١٦١٣م إلى عام ١٦٩٩م، وبرناردو ستروزي (١٥٨١–١٦٤٤م).

ومن أروع اللوحات التي لفتَت نظري تلك اللوحة التي رسمها الفنان دانييل كريستي (١٥٩٨–١٦٣٠م) والتي تُمثِّل السيدة العذراء تحمل السيد المسيح بعد أن أنزلوه من فوق الصليب، ونزعوا الحربة من جانبه، وقد أغمض السيد المسيح أجفانه وأمه تتطلع إلى السماء.

كذلك هناك لوحةٌ أوقفَتْني أمامها مدةً رسمها مرقاش الفنان فيزنتشيو كامبي (١٥٣٢–١٥٩٠م) وتُمثِّل صلب المسيح واليهود يدقُّون المسامير في كفَّيه.

أنا الآن في الدور الثاني من المتحف. أمامي بهوٌ مستدير في وسطه تمثالٌ ضخم من البرونز اللامع، يمثِّل قائدًا مهيب المنظر وقد عاد من الحرب مُظفَّرًا يجرُّ وراءه الأسرى مكبَّلين بالسلاسل والأغلال وأحدهم واقع فوق الأرض يتأوَّه. الحقيقة أن هذا التمثال في مُجمله وموضوعه يستحق وقفةً طويلة للتأمل والدراسة.

بهذا الدور الثاني قاعاتٌ كثيرة فسيحة امتلأَت حوائطها بلوحاتٍ مختلفة ولكن ما من واحدةٍ منها يصل حجمها إلى الحجم الضخم لتلك التي شاهدتُها في الدَّور الثالث. معظم اللوحات دينية؛ إما تُصور جزءًا من حياة السيد المسيح، وإما تُمثِّل الملائكة الهابطين من السماء، أو تصوِّر السيدة العذراء في أوضاع مختلفة أهمها وهي تحمل السيد المسيح طفلًا.

أمامي الآن لوحةٌ فريدة في صدقها، حاول الرسام فاندر فويدون (١٤٠٠–١٤٦٤م) أن يصوِّر فيها قصة خروج آدم وحواء من الجنة عريانَين، يستُران عورتَيهما بأوراق التوت والندم يرتسم على وجهَيهما.

ولنفس الرسام لوحةٌ أخرى في غاية الروعة، تمثِّل صعود السيد المسيح إلى السماء متدثرًا بعباءةٍ حمراء تُغطي كتفَيه وساقَيه ليس غير، بينما السيدة العذراء جالسةٌ في استسلام تُصلِّي.

هبطت الدَّرَج إلى الدَّور الأول من المتحف. يضمُّ هذا الطابق مزيدًا من اللوحات الدينية أيضًا، لفت نظري منها لوحةٌ تصوِّر العشاء الرباني، بريشة المصور جوان دي جوانيس، الذي عاش في الفترة من ١٥٢٣–١٥٧٩م.

ومن اللوحات التي تركَت أثَرها العميق في نفسي لوحةٌ أخرى من رسم الفنان السابق، تُمثِّل رجم أحد القديسين بالحجارة والطوب بينما الدماء تسيل بغزارةٍ فوق جبينه. وهو راكعٌ على ركبتَيه يُصلي إلى الله في خشوع وقد استسلم في إيمان خارقٍ لضرب الضاربين وكأنه يستمدُّ من الله القوة التي قد تُعينه على تحمُّل الآلام الشديدة التي تسبِّبها له تلك الأحجار الضخمة.

دخلتُ أكبر قاعةٍ بالمتحف، وربما كان طولها ١٥٠ مترًا وعرضها ٢٠ مترًا. القاعة غاصَّةٌ باللوحات النادرة الجمال. اللوحات كلها تصوِّر موضوعاتٍ دينية.

أستطيع الآن أن أجزم بأن متحف برادو بمدريد هو تصوير باللوحات المصوَّرة الناطقة لقصة السيد المسيح والرسل والأنبياء. إنه موسوعةٌ للإنجيل مُدعمةٌ بالصور التي رسمَها أشهر فناني القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر. ذخيرةٌ لا تُقدَّر بمال. واللوحات كلها تزدان بإطاراتٍ مُذهبة ضخمة رائعة الجمال والتصميم، وتُعتبر وحدَها ثروةً قائمة بذاتها.

التمثال الوحيد الذي شاهدتُه بالمتحف كان مُعلَّقًا على إحدى الحوائط يمثِّل السيد المسيح مصلوبًا وقد وضع التاج فوق رأسه. ألم يكن ملك الملوك؟

تجد في قاعةٍ جانبية مجموعةً من التماثيل المرمرية الرخامية تمثِّل حقبة من تاريخ الرومان العظيم وأشهر أساطيره. هناك تمثال لجوبيتر يحمل الصاعقة، وكذلك تمثال للربة هيرا زوجته. وهاك تمثالًا آخر للرب جوبيتر في وقفةٍ مختلفة. وهذا رأس أثينا ربة الحكمة بخوذتها المشهورة. وهذا رأس البطل هرقل الخارق القوة.

في قاعةٍ جانبية أخرى عرضٌ هائل لبعض اللوحات النادرة التي رسمَها بمرقاشه الفنان المبدع فرانسيسكو دي جويا (١٧٤٦–١٨٢٨م). من الأفكار الجميلة والطريفة التي أخرجها هذا الرسام جويا إلى حيِّز التنفيذ، أنه صوَّر فتاةً مليحة الوجه فاتنة التقاطيع ساحرة المنظر وهي مستلقيةٌ على فراشها الوثير متدثرة بملابسها الفضفاضة. وفي لوحةٍ تُجاوِرها تمامًا رسم نفس الفتاة، في نفس الوضع بالضبط وعلى نفس الفِراش، وهي عاريةٌ ومجردة تمامًا من كل ملابسها. الخيال فوق التصور. أما جسم تلك الفتاة الحسناء فقد صُوِّر عاريًا بحيث لو أنها ارتدَت ملابسها نفسها لبدت بالضبط كما هي مصوَّرة في الصورة المقابلة.

إلى هنا انتهت زيارتي للمتحف؛ شاهدت كل جانب فيه، ولكن من الجائز أن أكون قد تركتُ بعض القاعات دون أن أراها؛ إذ كان الازدحام شديدًا في المتحف. هناك كثير من اللوحات كان يجدُر بي أن أصفه وأُسجِّل محاسنه ومواضع جماله الفني، ولكن الغموض وجهلي بقصص التوراة والإنجيل جعلَني أعجز عن الكلام عنها لئلا أُخطئ في تفسير شيء، وأنا أمقت أن أتكلم عن شيءٍ لا أعرفُه معرفةً تامة أو أفهمُه فهمًا أكيدًا وأُلِمُّ به إلمامًا صحيحًا صادقًا.

عُدتُ إلى الفندق ماشيًا على قدمي، مُتبعًا خط السير الذي سبق أن قطعتُه في الذهاب إلى المتحف. وجدت لويس لا يزال يعمل في مكتبه. استقبلني ببشاشة؛ فقد قامت بيني وبينه صداقة وألفة ومودَّة أكاد أُحِس بها جميعًا في نظراته. إن معرفة لويس للإنجليزية

هي التي جعلَت التفاهم بيننا سريعًا ووثيقًا. اللغات هامة، ويجب على الشباب المصري الذي يخرج إلى أوروبا للعمل أو للسياحة أن يُجيد الإنجليزية أو الفرنسية؛ إذ بدون ذلك سيكون كـ «الأطرش في وسط الزفة»، أو كما قال المتنبي:

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
ملاعبُ جِنَّةٍ لو سارَ فيها سليمانٌ لسار بترجمانِ

يجب عليه أن يعرف إحدى هاتَين اللغتَين وخصوصًا الأولى؛ فجميع موانى العالم ومطاراته تتكلم اللغة الإنجليزية، وإلا ألفى نفسه تعيسًا غير قادرٍ على تحقيق أي هدفٍ من أهدافه. أتذكَّر أنه حدث بالأمس عندما دخلتُ المطعم أتناول عَشائي، أن جلسَت إلى المائدة المجاورة لمائدتي فتاتان إسبانيتان ابتسمتا لي وهزَّتا رأسَيْهما، فردَدتُ التحية بأحسنَ منها. وفجأةً اكتشفتُ أنهما لا تعرفان غير الإسبانية. عندئذٍ تعذَّر سبيل التفاهم بيني وبينهما، بل وانعدم تمامًا. كل ما استطعتُ أن أحظى به منهُما بعد جهدٍ جهيد أن إحداهما تُدعى «أخيلينيس» والأخرى «ماري تريز»، وأنهما مُدرِّستان للأطفال في إحدى مدارس الحضانة. ولو كنتَ معي، أيها القارئ، وأبصرتَ المجهود الشاق الذي بذلناه نحن الثلاثة لنخرج بهذه المعلومات التافهة التي لا تُقدِّم ولا تؤخر، لما وسِعَك إلا أن تضحك ساخرًا أو تبكي راثيًا؛ فجهلي بالإسبانية جعل إقامتي هنا فاشلة. كذلك الجهل بالإنجليزية أو الفرنسية، سيجعل الإقامة في أي بلدٍ أوروبي ضربًا من المُحال، أو قل إقامة هي والجحيم سواء.

سألَني لويس عن رأيي في المتحف وعما إذا كان قد أعجبَني، فقُلت: «إنه لمُتحفٌ عظيم جدًّا بحق.» فانبسطَت أساريره. ولم تمضِ سوى لحظاتٍ قلائل حتى فُتح باب الفندق ودخل منه رجلٌ يحمل زجاجة من النبيذ كبيرة الحجم. قال لويس: أُعرِّفك بجدِّي. والآن أرجو أن تقبل منِّي زجاجة النبيذ هذه تحيةً مني ومن إسبانيا. فوضعتُ يدي في يد الرجل العجوز الذي حسبتُه في بادئ الأمر والد لويس، ورُحت أكلمه على هذا الأساس، ولكن لويس قاطعَني قائلًا: هذا جدي، جاء كي يراك ويتعرف بك. إنه يكتب مثلك. وهو الذي يشجِّعني على الكتابة. كان اللقاء حارًّا بيني وبين الجد. ولو أردتَ الحق، كان الجد في صحةٍ طيبةٍ وقوةٍ بدنيةٍ ظاهرة. ولم يكن لويس قد أخطأ كثيرًا لو أنه تركَني على نظرتي إليه على أنه أبوه؛ فقد كان أصغر من أن يكون جدًّا.

انصرف الجد في بشاشةٍ وحيويةٍ حلوة، فاتصل الكلام بيني وبين لويس من جديد، فأبديتُ له إعجابي بشخصية جدِّه، ثم عنَّ لي أن أعلم شيئا عن الأسرة الإسبانية، فطلبتُ منه أن يشرح لي — من خلال أسرته — الطريقة المتبعة في تربية النشء، وكيف تقوم العلاقات العائلية بين الأولاد والآباء. أُعجِب لويس بهذه الفكرة أيما إعجابٍ وراح يشرح لي، بالتفصيل، كل شيءٍ عن الأسرة الإسبانية، فقال: لا يمكن أن يزيد عدد أفراد الأسرة الإسبانية على خمسة أو ستة أفراد بما فيهم الأب والأم. يعامل الآباء الأبناء، كلًّا حسب سنِّه. وعادةً ما يستخدم الأبوان الشدة والصرامة في تربية الأولاد. وتظل الرعاية العائلية قويةً من جانب الأبوَين حتى يبلغ الأولاد العشرين أو الحادية والعشرين من عمرهم، ثم تزول بعد ذلك هذه الرعاية أو سمِّها الوصاية الأبوية العائلية. يعامل الآباء والأمهات الابنة برقةٍ وسماحة ودعةٍ كبيرة مع الحذَر والرقابة الشديدَين؛ فهم لا يريدون لها أن تتعرض في الطريق لمعاكسات الشباب، فتتعلم ما لا يجب أن تتعلمه قبل الأوان. وعلى العموم، لا تخرج الفتاة إلا مع أمها أو بصحبة أبوَيها كلَيهما. أما الولد فقد يُسمح له باللعب مع أصحابه، ولكن في حرصٍ شديد؛ فلن يسمحا له بمصادقة كل من هبَّ ودبَّ من الأولاد والرفاق. لا بد أن يكون الصديق معروفًا لديهما بحُسن الخُلق وكرم المنبت.

والتعليم في إسبانيا، يُفرِّق بين الجنسَين. هذا وإن كان الاتجاه الأخير يميل إلى التعليم المختلط. تطيع الفتاة والدَيها وهي صغيرةٌ، ولكنها عندما تبلغ السادسة عشرة من عمرها تعتقد أنها كبرَت بما يكفي، وتودُّ لو تستطيع الإفلات من رقابة الوالدَين، وهي تفعل المستحيل كي تصل إلى تحقيق ما يُساوِرها من رغبات وما تودُّ هي أن تفعله، لا ما يريده لها الوالدان. عندئذٍ ينشب صراع بين الطرفَين، يفوز فيه الشاطر منهما. ومع ذلك يمكن القول بأن الفتاة الإسبانية لم تصل بعدُ في حريتها إلى ما تتمتع به الفتاة الباريسية مثلًا أو الأوروبية عمومًا. إن تقاليد الأسرة الإسبانية قوية تحكُم الفتاة ولا تجعلها حرةً تمامًا في تحركاتها أو تنقلاتها. إنها في هذا المضمار تُشبه الفتاة الشرقية إلى حدٍّ كبير. يخاف الوالدان كثيرًا على مستقبل الفتيات عندما يحين يوم الزواج؛ فالفتاة السيئة السمعة لا يُقبل عليها الشباب الإسباني. ومن هنا يقلق الآباء كلما وجدوا رغبةً جامحة من ابنتهما نحو التمرد؛ لهذا كان التصادُم دائمًا بين رغبات الفتاة والقيود التي يريد الآباء فرضها عليها قبل الزواج.

والأم الإسبانية هي التي تقوم بطهي الطعام للأسرة، وهي التي تنظِّف البيت وتغسل الأطباق والثياب وتكويها، وقد تستخدم الغسالة الكهربائية أو تغسل الملابس بيدَيها حسب

مستوى المعيشة والقدرة المالية للأسرة، وهي التي تقوم أيضًا برعاية الأولاد، والإشراف عليهم في مرضهم، كما تُساعِدهم في استذكار دروسهم وعمل واجباتهم المدرسية.

أما الأب الإسباني، فيخرج من المنزل في السابعة صباحًا، فيذهب إلى عمله ويبقى فيه إلى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر، ثم يعود إلى بيته متعبًا ليجد زوجته وأولاده في انتظاره، ويجد أيضًا المائدة مُعدَّة، فتبدأ الأسرة في تناول وجبة العشاء في السادسة أو السابعة مساءً على الأكثر. وفي الصباح يكتفي الأب بتناول وجبةٍ خفيفة تُمسِك عليه الرمق أثناء وجوده في العمل. أما وجبة العشاء فهي الوجبة الرئيسة لدى الأسرة الإسبانية. إنها الوجبة التي تجمع بين كافة أعضاء الأسرة حول مائدةٍ واحدة. وبذا تشعُر الأسرة بجمال الحياة العائلية، فيُصغي الأب إلى مشاكل زوجته وأولاده، ويحاول أن يحلها في هدوء وبقَدْر الإمكان. ومما لا شك فيه أن معظم المشاكل المالية تُعرض أيضًا حول مائدة العشاء هذه. هنا يستطيع الأب أن يعرف ما عليه من واجبات والتزامات مالية قِبل زوجته وأولاده.

لا يتمُّ زواج الفتاة الإسبانية إلا بمعرفة والدَيها فهذا ضرورةٌ حتمية. يتقدم الشاب إلى الأسرة طالبًا يد ابنتها. وقد تُجيب الأسرة طلبه وقد ترفضه. أما إذا كانت الابنة على علاقة بشابٍّ معيَّن وتريد هي أن تتزوَّجه، فعليها أن تُطْلِع والدَيها على رغبتها في الزواج من هذا الفتى بالذات. عندئذٍ يطلب الوالدان منها أن تأتي به إلى المنزل كي يلتقي بهما ويُناقشاه ويدرُسا أحواله المالية ومكانته العائلية وعمله بالمجتمع، فإن وجد الوالدان أن الفتى الذي تُحبه ابنتهما مقبول شكلًا وموضوعًا وافقا في الحال على الزواج. أما إذا لم يقتنعا بذلك، وظهر لهما أنه غير كفءٍ لابنتهما، رفضاه في إصرار، وقاوما مثل هذا الزواج بعنف، وأرغما الفتاة على الابتعاد تمامًا عن هذا الشاب.

ليس في الزواج الإسباني مَهر؛ كل ما يُقدمه الشاب لخطيبته «دبلة» من الذهب، ثم يتعاون الخطيبان معًا على تأثيث البيت. وأغلب الظن أن الرجل هو الذي يشتري الشقة أو البيت الذي سيعيش فيه مع زوجته، وربما قدَّمه هديةً لعروسه.

يظل الخطيبان مدة سنتَين على الأقل مخطوبَين كي يعرف ويدرُس كلٌّ منهما أخلاق الآخر خلال تلك المدة التي قد تنتهي بالانفصال، ولكن متى تمَّ الزواج فلا يمكن الطلاق بعد ذلك بأية حالٍ. إنه زواجٌ كاثوليكيٌّ لا رجعة فيه إطلاقًا.

إلى هنا شُغِل لويس في بعض الأعمال الخاصة بالفندق، فاستأذنتُ منه، وذهبتُ إلى حجرتي أنشُد بعض الراحة، ولكني اتفقتُ معه على أن ألتقي به في الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي تدعيمًا لأواصر الصداقة التي تمَّت بيننا فجأة وبشدة.

خرجتُ أنشُد الطريق مرةً أخرى في السادسة والنصف بعد الظهر، فوجدتُ الشوارع غاصةً بالناس بصورة تفوق الوصف، كأنني انتقلتُ فجأةً إلى شوارع القاهرة المزدحمة. كنتُ بحاجة إلى قدَح من الشاي الساخن؛ إذ أحسستُ بصُداع يكاد يفلق رأسي. ربما كان سببه حرارة شمس الصباح. جلستُ على أحد المقاعد الموجودة على طوار الشارع والتابعة لكافيتيريا مطعمٍ فاخر. وبعد قليل جاءت سيدتان مُسنتان وجلستا إلى جواري، وشرعَتا تتكلمان بصوتٍ عالٍ مزعج، وكان صوت إحداهما أجشَّ تعافُه الأذن وتتأذى به. كان من أنكر الأصوات مجرَّدًا من النبرات.

جلستُ أراقب الناس عسى أن أخرج بشيءٍ جديد. الشارع مملوءٌ بفتياتٍ صغيرات في سن الورود غادياتٍ رائحات في حركةٍ دائبة. أصوات القُبلات هنا وهناك بين الأحبة من الصغار والكبار. الفتاة الصغيرة هنا تمسك السيجارة بين أصابعها علانية وتدخِّنها بملء فمها وهي سائرةٌ مع صديقاتها أو مع حبيبها، في غير ما حياء ولا استحياء. الفتيات جميعًا وبدون استثناء يُدَخِّنَّ. وليت الأمر يقف عند هذا الحد، وإنما يمزحن في الطريق بشكلٍ سمج ملحوظ؛ فهذه تضرب تلك بركبتها بلا حياء، ولكن ما من أحدٍ يرى في هذا العبث السخيف عيبًا ولا خروجًا عن حدود الأب. ليست الفتاة الإسبانية على شيءٍ كثير من الجمال والملاحة، ولكنها على العموم أنيقة، تهتم بملبسها الذي يغلب فيه طابع البساطة، ولا تميل كثيرًا إلى الحُلي، بل تكتفي بأقل قدْرٍ ممكن من هذه الكماليات، رغم أن المتاجر زاخرةٌ بالحُلي والمصوغات التي لا يشتريها سوى القليلات. تكاد محلات المجوهرات، وما أكثرها! أن تكون بلا زبائن. يكتفي الإسبان بالنظر إلى الحُلي في معارض المتاجر، وكان الله يحب المحسنين. وحتى الحُلي العادية المصنوعة من خامات غير الذهب والفضة مرتفعة الأسعار إلى درجةٍ لا تُصدَّق، كما أنها ليست جميلة الشكل وإنما أقل من العادية، ويُوجد في مصر ما يفوقُها ذوقًا وجمالًا ورخصًا.

تركتُ الكافيتيريا بحثًا عن مطعمٍ أتناول فيه عَشائي، فسِرتُ في شوارعَ جانبية كثيرة ورأيتُ مطاعمَ عديدة تكاد تكون كلها متشابهة في طريقة العرض. هناك نَضَد خشبيٌّ مستدير أو مستطيل تُعرض فوقه المأكولات في أطباقٍ كبيرة، إما مطهوةٌ أو نيئة، فيأتي الزبائن ويختارون منها ما يروقهم. الإسبان لا يعرفون الطبق الأوروبي المشهور «أورديفر» الذي يحتوي على تشكيلة من كل صنف. حاولتُ جاهدًا أن أفوز بمثل هذا الطبق كي أذوق أكبر عددٍ ممكن من الأصناف وأتعرَّف على طعم المأكولات الإسبانية جميعًا أو أغلبها على الأقل، ولكن دون جدوى. وأخيرًا ساقَتْني قدماي إلى مطعمٍ لم يكن

به سوى نفرٍ قليل. لم تكن الأطباق المعروضة كثيرة، ولكني لما شرحتُ للنادل طلبي، بدا لي أنه فهم قصدي؛ إذ هزَّ رأسه وانصرف. وفعلًا جاءني بطبقٍ متوسط الحجم به شيء من البطاطس المسلوق وعددٌ قليل من البساريا أو السردين وقطعةٌ واحدة من السجق. كان هذا هو كل ما في الطبق، ثم جاءني بثمرة طماطم واحدة بعد أن قطَّعها شرائح، وقطعةٍ صغيرة من الخبز وقليلٍ من النبيذ. وعند الدفع طلب مني ٣١٠ بيزيتا. كان مقلبًا جديدًا. لم يكن بالطبق قطعةٌ واحدة من اللحم. وكانت الكميات المقدَّمة متواضعة جدًّا. حقًّا، ما أرخص مطعم الأمس الذي — والشهادة لله — قدَّم لي كميةً لا بأس بها من اللحوم والجبن!

تركتُ المطعم وقد عوَّلتُ على أن أدخل إحدى دور السينما لأرى فيلمًا إسبانيًّا. كنتُ أريد أن أقف على مدى تقدم صناعة السينما في إسبانيا. لم تُكلفني التذكرة سوى ١٢٥ بيزيتا. آثرتُ أن أدخل بأرخص الأسعار؛ فنقودي لا تسمح لي بتذكرة ثمنها ٦٢٥ بيزيتا؛ أي ما يعادل ستة جنيهات مصرية وخمسة وعشرين قرشًا. اسم الفيلم هو: «الرجل المثير للشهوات»، كان هذا الاسم غريبًا، وكانت الأفيشات تُوحي بأن الفيلم جنسيٌّ؛ ذلك لأن الإعلان يصوِّر طبيبًا ينظر في دهشةٍ إلى عورة الرجل المريض الواقف أمامه عاريًا. الإخراج الإسباني جيدٌ ومتقدم. كان الفيلم ملونًا وفي غاية الجمال والإبداع والإمتاع. تدور أحداث الفيلم كله في قصرٍ منيف لرجل واسع الثراء، لا يُمانع في أن تلهو زوجته ما شاءت أن تلهو ومع من تُحب. والبطل الذي أحبَّته هذه الزوجة، كما أحبَّته كل صديقاتها الثريَّات مثلها، هو الخادم الجديد، الذي التحق بخدمتها أخيرًا. والذي كشف عليه الطبيب وأخبر صاحب القصر بأن ذلك الخادم له قوةٌ خارقة عن العادة. وما إن علمَت زوجة الثري وصديقاتها بهذا النبأ الغريب حتى اتجهَت أنظارُهن إليه ورُحن يتنافسن على التقرُّب من ذلك الخادم. وباختصار لم يترك الخادم سيدة هناك، ولا حتى زوجة الطبيب، إلا وحظي معها باللذة المحرمة. وشاع في أنحاء القصر نبأ خطورة ديمتريوس هذا على الجنس الناعم. وتنتهي القصة بموت إحدى السيدات الثريات وهي بين ذراعَيه فلفظَت روحها بينما كان يضمُّها إليه بشدة. وعندئذٍ أُصيب ديمتريوس نفسه بعقدةٍ نفسية جعلَته كلما حاول، بعد ذلك، الاقتراب من سيدة، تذكَّر في الحال منظر السيدة التي ماتت بين ذراعيه وفي أحضانه، فيُحجِم من فَوره فزعًا، ويتركها نافرًا منها كأنها جَذْوة نار. وإلى هنا ينتهي الفيلم.

الفيلم شيقٌ جدًّا وغير مملٍّ فيما عدا لقطةً واحدة تكرَّرَت أكثر من مرة، وهو منظر السيدات الثريات مجتمعات سويًّا، وكل واحدةٍ منهن تُدلي برأيها وتعليقاتها على قوة

ديمتريوس البهيمية وقوة احتمالها هي في صبر وجلد واستمتاع. هذا ما استنتجتُه من حركاتهن ونظراتهن؛ لأن الفيلم ناطق بالإسبانية، ولم يكن على الشاشة أي ترجمةٍ إلى أية لغةٍ أخرى من لغات العالم.

من المؤكد أن هذا الفيلم ليس نظيفًا كله؛ فلم يَحرم المخرج المشاهدين من رؤية مناظر الحب والغرام ولكنه كان يُسلِّط الكاميرا على الجزء العلوي من الجسم؛ على الرأس والصدر فحسب، وعلى ما يصدُر عن المرأة من تأوهاتٍ مثيرة.

نجح المخرج في انتقاء جو البذَخ المفرط الذي أوجدَنا فيه طوال الفيلم. وفعلًا، إذا لم أشاهد هذا الفيلم فما كنت أتخيَّل أن هناك في العالم من يعيشون في قصورٍ جميلة بهذا الشكل، وينامون على أسرَّة كهذه تطير في فضاء الحجرة أو أن هناك سياراتٍ بمثل تلك الضخامة والأبهة ومزوَّدة بكل لوازم الجلسات الغرامية. إنني أعتبر نفسي محظوظًا إذ شاهدتُ كل ما حواه ذلك الفيلم من بذَخ وعظمة وفخامة؛ لأنه شيء يَخلب اللب ويُطير العقل. حتى المأكولات التي قُدِّمَت في الحفلات لم أرَ مثلها في حياتي يقدَّم بمثل هذه الأرستقراطية الراقية البذخ، وفي مثل تلك الأطباق الغريبة الشكل والصُّنع. هذا فضلًا عن الملابس الفاخرة والجميلة بحق، التي كانت ترتديها مجموعة الفتيات الساحرات الفتنة والبارعات الجمال.

أما دار السينما نفسها فلم تكن فاخرةً أو تضُم شيئًا من البذَخ أو الترف، وإنما كانت شبيهة بسينما راديو بالقاهرة مع فارقٍ واحد وهو أن جميع مقاعدها التي تزيد على الألف مقعد، كانت كلها سليمةً نظيفة مكسوَّة بالمخمل الأخضر. لم أسمع صوتًا واحدًا ولا صفيرًا واحدًا أو تعليقًا من أحد، ولكن كل ما سمعتُه غير أصوات الفيلم، هو الضحكات اللطيفة من بعض المتفرجين في أدبٍ واحتشام. لم أسمع كلمةً واحدة حتى أحكم بأن الألفاظ النابية والتعليقات الجارحة البذيئة قد صدَرَت عن النظارة أو تُبودلَت بينهم.

لم أُبصِر أحدًا يأكل داخل السينما أو «يقزقز» لبًّا. كانوا يشربون الكوكاكولا أو يلعقون الآيس كريم في صمتٍ كامل وهدوءٍ شامل دون إحداث إزعاج أو تشويش. وهذا في فترة الاستراحة ليس غير.

أما دورة المياه الملحقة بالسينما فكانت في أتمِّ نظافة؛ كلها مكسوةٌ بالقيشاني البُني الجميل ومنافض السجاير المفضَّضة والتي في شكل الأصداف البحرية فكلها لامعةٌ برَّاقة، ومثبَّتة بطريقةٍ مبتكرة. كانت مثالًا للذوق الرفيع. كانت تلك الدورة آيةً من آيات الفن

المعماري السامي التي تُبهر الأنظار، ودليلًا واضحًا على ما يتحلَّى به الشعب الإسباني من تقدمٍ ملموسٍ في عالم النظافة والآداب العامة والسلوك الاجتماعي العصري.

استمرَّ عرض الفيلم إلى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، ولكني غادرتُ السينما وأنا مرتاح الجسم ولم أكن متعبًا بالمرة.

الباب الحادي عشر

لويس الرفيق يُلازمني الطريق كصديق

استيقظتُ صباح الإثنين في الساعة التاسعة تقريبًا، وفي تمام العاشرة والنصف التقيتُ مع لويس في بهو الفندق، وكنتُ قد دعوتُه ليتناول معي شرابًا.

لما خرجنا إلى الشارع، سألتُه عما إذا كان لديه ما يمنع من الذهاب معي لزيارة القصر الملكي من الداخل، قال: لا مانع عندي؛ فأنا نفسي لم أشاهد قصر الملك من الداخل. وعلى ذلك سرنا من فورنا، متجهين صوب القصر الملكي، مخترقين عدة شوارعَ فرعية حتى وصلنا إليه. لاحظتُ وأنا أسير في الطريق أن المحلات كلها مقفلة، فاستفسرتُ عن ذلك من لويس، فقال: اليوم عطلةٌ في إسبانيا بمناسبة عيد انتهاء الحرب الأهلية، التي انتهت في سنة ١٩٣٩م، بعد أن كانت دائرة الرحى بين أنصار فرانكو والحزب الشيوعي الإسباني.

القصر الملكي أبيض اللون، يقع في ميدان «أورينتي» أو «الميدان الشرقي»، وهو ميدان فسيح جدًّا، تمتدُّ أمامه على الجانبَين تماثيلُ ضخمة في صفَّين طويلَين متوازيَين؛ كل تمثالٍ منها لملك من قُدامى ملوك إسبانيا.

يتوسط الميدانَ تمثالٌ ضخم من البرونز، يربضُ عند قدميه أسدان غضنفران. وبالميدان مجموعةٌ من الأشجار، عُني برعايتها وصيانتها، خضراء يانعة جميلة الشكل بطريقة تنمُّ عن حُسن التنسيق وسُمو الذوق.

يتكوَّن القصر الملكي الإسباني من ثلاثة طوابق، تقوم أعلاه مجموعةٌ أخرى من التماثيل البيضاء اللون بلون القصر نفسه.

القصر عظيمٌ لا أول له ولا آخر كأنما لا حدود له. وربما بلغ طوله ميلًا كاملًا من المباني وحدها. أما عرضه فلا علم لي به.

ما إن تدخل ذلك القصر حتى تجد نفسك وسط ساحة بالغة الاتساع، خاوية على عروشها تمامًا. يسترعي نظرك أن المبنى عتيقٌ ومُشيَّدٌ على الطراز القديم. يتكلف دخول هذا القصر مبلغًا كبيرًا؛ إذ ثمَن التذكرة الواحدة ٢٠٠ بيزيتا؛ أي ما يُعادل جنيهَين مصريَّين.

أنا الآن داخل القصر المملوء بالزائرين من جميع الأجناس. دخلنا قاعة الانتظار الواسعة الأرجاء، وبعد قليلٍ رُحنا نصعد الدرجات الرخامية العديدة المؤدية إلى الطابق الأول من القصر الذي يحتوي على ٢٨٠٠ حجرة.

دخلنا أولًا حجرة الطنافس التي تضُم أغلى السجاجيد الفاخرة الزخارف والبديعة الألوان.

دخلنا بعد ذلك قاعة أخرى بها ثُريَّاتٌ ضخمة وتحيط بجدرانها العالية تماثيل من البرنز، بعضها ألماني الصنع والبعض الآخر إسباني. وسقف هذه القاعة عبارة عن لوحةٍ ضخمة، مرسومة بالألوان الهادئة الراقية الذوق، تمثِّل مَلِكًا في حفل التتويج، يضعون على رأسه وحول جبينه تاجًا مرصَّعًا بأنفَس الجواهر.

وَلَجنا قاعةً ثالثة كانت حجرة الجلوس الملكية في قديم العصور، بها لوحةٌ ضخمة للملك لويس ملك فرنسا قديمًا. وبوسط القاعة شمعدان هائل ذهبي اللون، يقوم على قاعدة تنتهي من أسفل بما يُشبه أريكةً مستديرة مغطَّاة بالنمارق الوثيرة.

بالقاعة ثلاثُ ثُريَّاتٍ ضخمة جدًّا بكلٍّ منها مئات المصابيح. وتتصل بهذه القاعة قاعةٌ أخرى بها ثُريًّا بالغة الضخامة، تزن حوالي نصف طن. خرجنا من هذه القاعة إلى أخرى للجلوس الملكي أيضًا. لا يمكن للعقل البشري أن يتصور جمال سقف هذه القاعة. جميع الرسومات والنقوش التي على حوائطها بارزةٌ تمثِّل منظر حديقةٍ فيحاء غنَّاء مليئة بالأشجار والزهور والطيور، مُرتَّبة في تناسقٍ بديع رائع.

قادَتْنا المرشدة بعد ذلك إلى قاعةٍ أخرى جدرانها بلونٍ أزرق زاهٍ. أضخم ما في هذه القاعة ثُريًّا تخرج منها مئات الورود بكل وردةٍ منها مصباح. وبسقف هذه القاعة صورة السيد المسيح في السموات بين الملائكة والقديسين.

دخلنا بعد ذلك قاعةً صغيرة الحجم، كل شيء فيها بديعٌ أنيق، ونقوش حوائطها بارزة، وسقفها كله من السيراميك المنقوش.

انتقلنا من هنا إلى حجرة أكبر من هذه بها المكاتب والمقاعد المزركشة بمختلف الألوان.

ظللنا ننتقل من حجرة إلى حجرة حتى وصلنا إلى حجرة المائدة الملكية التي تتوسَّطها مائدةٌ طويلة ضخمة تتسع لجلوس ٦٤٠ شخصًا أو ضيفًا. وعلى هذه المائدة عددٌ كبير من الشمعدانات الفضية البرَّاقة تملؤها من أولها إلى آخرها، وكذلك الزهريات المليئة بالزهور والورود. وبهذه القاعة أكثر من ٢٥ ثريًّا، يتدلَّى بعضها من السقف، وبعضها الآخر مثبَّتٌ على جوانب القاعة بشكل يجعل قاعة الطعام محاطةً كلها بالثريَّات من كل جانب.

انتقلنا بعد ذلك إلى قاعةٍ أخرى لا تحتوي إلَّا على المراوح اليدوية التي كانت تستعملها بعض زوجات الملوك الذين عاشوا، على مرِّ السنين، في هذا القصر الملكي. وهذه مجموعةٌ نادرةٌ بحَق.

نحن الآن في قاعة ساعات الحوائط التي تضُم ما لا يقل عن ١٥٠ ساعةً متوسطة الحجم؛ بعضها من الذهب الخالص، وبعضها الآخر من البرونز الثمين. والغريب أن هذه الساعات جميعها تعمل ولم تتعطل أو تَفسَد أيةُ واحدةٍ منها.

بعد ذلك دخلنا حجرة الأواني الفضية التي كان الملك يستعملها للشرب، والأطباق الذهبية أو الفضية التي كان يأكل فيها.

انتقلنا من هذه الحجرة إلى كنيسة القصر. كانت آيةً في العظمة والفخامة ومظاهر البذخ والثراء؛ ثلاث قبابٍ كلها من الذهب النضار. وقد استعمل الملك الحالي هو وزوجته هذه الكنيسة مرتَين فحسب منذ تولِّيه العرش. وبهذه الكنيسة مُسجَّى جثمانُ أحد ضحايا البركان الذي أصاب مدينة بومبي فدمَّرها عن آخرها. ولم أفهم الفكرة من تحنيطه ووضعه داخل هذه الكنيسة بالذات، لعل وراءها قصة.

القصر مملوءٌ بالشمعدانات من جميع الأشكال والأحجام والطرازات. ويمكن اعتبار هذا القصر متحفًا عظيمًا لكل ما وصل إليه الفن في عالم الشمعدانات الملكية بنوع خاص.

شاهدتُ في قاعةٍ أخرى صورةً ضخمةً لملكة تولَّت عرش إسبانيا وهي في الثالثة من عمرها. تحمل هذه اللوحة صورة هذه الملكة وهي في الثلاثين من عمرها تقريبًا.

أدخلونا حجرة أخرى قالوا لنا إنها حجرة طعام الأسرة الملكية، بوسطها مائدةٌ بسيطة، وتتدلى فوقها مباشرةً ثريًّا ضخمة من الكريستال الفاخر، كما أن بها لوحةً ضخمة للملكة إيزابيلا الثانية.

عرَّجنا بعد ذلك على حجرة الموسيقى، وكان بها بيانو ضخم ومقاعدُ وثيرة متناثرة هنا وهناك في كافة أرجاء القاعة.

وصلنا إلى مكانٍ بالقصر لا يُسمح لأحدٍ بدخوله إلا بعد إبراز تذكرته؛ ذلك لأن هذا القسم مستخدمٌ حاليًّا ومزوَّد بالتليفونات الحديثة. جميع اللوحات المعلقة على الحوائط تُمثِّل كلها صور أبناءٍ وبناتٍ صغار السن من أبناء ملوك إسبانيا وملكاتها. وهي بريشة أشهر رسامي إيطاليا وفرنسا. يحكي هذا القسم طرفًا من تاريخ ملوك إسبانيا في القرون الماضية.

في قاعة المكتبة الخاصة بالمِلك مجموعة من الخزانات الزاخرة بالكتب، ولكنها، في نظري، ضيقة ولا تصلح للقراءة والاطلاع. وربما كانت حجرةً ملحقة بمكتبةٍ رئيسية أخرى.

نحن الآن في مكتبة الملكة، قاعةٌ صغيرة بعض الشيء، على الحوائط صورة للملكة وصور لأولادها، وبالقاعة مكتب فخمٌ متوسط الحجم.

دخلنا حجرة النوم الملكية وبها تليفون من الفضة الخالصة. كان أول تليفون دخل إسبانيا أو على الأصح عرفَته إسبانيا.

بعد ذلك دخلنا قاعةً أخرى تُستعمل مكتبة. كانت أوسع حجمًا، وبها مكاتبُ وخزاناتٌ مليئة بالكتب، فبدَت لي مكتبة تليق فعلًا بملك. وهناك حجرةٌ خاصة ملحقة بهذه المكتبة، بها منضدةٌ كبيرة يجلس إليها الملك ليقرأ ويكتب.

قادتنا المرشدة بعد ذلك إلى القاعة الكبيرة التي كان يتم فيها لقاء الملك بالسفراء القادمين من بلادٍ أجنبية يمثلونها.

دخلنا قاعة المرايا التي تضُم اثنتَي عشرة مرآةً كبيرة الحجم تصل من السقف إلى الأرض، وربما كانت هذه حجرة العرش؛ إذ كان بداخلها مقعدان مُذهَّبان يقف إلى جانب كل مقعدٍ منهما أسدٌ هصور فاغرًا فاهُ … هذه الحجرة قاعةٌ فاخرة قلَّما يُوجد لها مثيلٌ في كثير من البلاد الأخرى.

اتجهنا بعد ذلك إلى جانبٍ آخر من القصر يشبه المتحف. كل حوائط قاعاته مزدانة باللوحات الفنية النادرة. وقد وُضعَت لوحات الفنان الإسباني جويا في قاعةٍ خاصة بها؛ نظرًا لأهميته البالغة في عالم الفن الإسباني.

طفقنا ننتقل من قاعة إلى أخرى، كل قاعة منها مخصَّصةٌ للوحات فنانٍ شهير.

ذهبنا بعد ذلك إلى حجرة الملابس الملكية وكلها موشَّاة بالذهب، ثم انتقلنا إلى حجرة الأواني والأطباق الملكية المصنوعة من السيفر والكريستال والصيني النفيس القيِّم، وبعض هذه الآنية موشًّى بالذهب الخالص.

انتقلنا إلى جناحٍ آخر به عرضٌ رائع للطنافس والسجاجيد الفاخرة المزيَّنة بالرسوم الجميلة تصوِّر أشخاصًا بالحجم الطبيعي، وكلها تمُتُّ إلى القرنَين السادس عشر والسابع عشر. تبدو هذه الطنافس جديدةً كأنها صُنعَت الآن، بعضها يصوِّر مواقفَ ملكيةً حدثَت في التاريخ الإسباني.

القاعات لا تنتهي. وقد شاهدتُ حتى الآن أكثر من مائتَي قاعة دون مبالغة، كلها تنطق بالثراء الملكي الفاحش المتمثِّل في الرسومات والفن المبذول لتزيين الحوائط السامقة والسقوف التي تكاد تبلغ عَنان السماء، هناك حجراتٌ وقاعاتٌ كثيرة لم أذكُر لك شيئًا عنها لضيق الوقت، وتحاشيًا للتكرار في الوصف.

وحتى صور السيد المسيح، سواء أكان مصلوبًا أو غير مصلوب، لم تَغِب عن بالهم، فصوروَّها فوق الطنافس الكبيرة الحجم في غاية الدقة والإتقان. يُوجد بالقصر قاعاتٌ كاملة ليس بها سوى مناظر صلب المسيح وتفاصيل إنزاله من فوق الصليب.

تُطلُّ علينا من سقف القاعة التي نحن بها الآن ثريَّا ضخمة على هيئة سفينة بكل أدواتها ومُعَدَّاتها من أشرعة وساريات ومجاذيف وغير ذلك، وكلها من البلور الكريستال النقي الفاخر. كما شاهدتُ في قاعة أخرى، التاج الملكي المصنوع من الذهب الخالص والصولجان الفضي. وفي قاعةٍ أخرى تُحفٌ عديدة من الذهب والفضة الخالصَين، بعضها تماثيلُ جميلة للسيدة العذراء.

وأخيرًا دخلنا حجرة حُليِّ الملكات ... كان بها عددٌ قليل من العقود الذهبية، كما كان بها تاجٌ من الماس المتألق البرَّاق، ووردةٌ كبيرة جميلة الشكل من الذهب الإبريز.

إلى هنا تركتنا المرشدة لنقوم بزيارة المكتبة الملكية الموجودة في جناحٍ كبير منفصل، بيد أنني كنتُ مرهقًا والتعب قد أخذ منِّي كل مأخذ؛ إذ مضى علينا الآن ساعتان ونصف الساعة ما بين السير والوقوف المتواصلَين.

حدث في أثناء التجوال داخل القصر أن تقدَّمَت منِّي سيدةٌ أمريكية تسألني إن كنتُ من إسرائيل، قُلت: وما الذي أوحى إليكِ بهذه الفكرة الخبيثة؟ قالت: ظننتُك تكتب بالخط العبري. قُلت: لا، بل أنا من مصر. فقدَّمَتني إلى زوجها وابنتها التي تعمل مُدرِّسة ببرلين. ومن سياق كلامي مع ثلاثتهم فهمتُ أنهم من يهود أمريكا، وقد راعهم أن يرَوْا مصريًّا يشاهد ما يشاهدون، ويتجول في أنحاء العالم كما يتجوَّلون. ومع ذلك أشهد أنهم كانوا يخاطبونني بمنتهى الرقة والسماحة والاحترام والتقدير.

خرجتُ مع لويس من القصر ولم يكن لدينا أي تعليقٍ سوى أن لويس أفهمَني أن الملك كارلوس لا يقيم في ذلك القصر بالمرَّة، وإنما آثَر الإقامة في قصر أصغر منه، تاركًا القصر الكبير للزائرين من ملوك ورؤساء دول العالم.

قادني لويس بعد ذلك إلى كافيتيريا كي نشرب ما يطيب لنا. وفعلًا، أخذني إلى مكانٍ هادئ يُقدِّم إلى جانب المشروبات كثيرًا من المأكولات. ولفت نظري أنه يقدِّم «المدفقات» المصرية وهي عبارة عن لحم مفري مخلوط بمسحوق الأرز. وإذ كنتُ آلف هذا النوع من «الكفتة» في بلدنا، فقد تاقت نفسي إلى تناول بعضٍ منه، وزاد في رغبتي هذه أنني رأيتُ الناس يُقبلون على هذه الكفتة إقبالًا شديدًا. وإذ خشيتُ أن ينتهي هذا الصنف من الكافيتيريا، أطلعتُ لويس على رغبتي هذه، فجاءني بطبقٍ منها ومعه قدَحان من النبيذ الأحمر. كانت الكفتة ساخنةً والنبيذ باردًا والجو شاعريًّا غريبًا.

كنا نجلس وكأننا داخل كهفٍ إذ عُلقَت على جدران الكافيتيريا مجموعة من الآلات الزراعية التي يستعملها الفلاح الإسباني. أعجبني هذا المكان إلى حدٍّ ما، وكانت جميع الموائد داخل هذا القبو مشغولةً بالأمريكيين الذين لم يأكلوا شيئًا غير الكفتة. لم تكن باهظة الثمن، وإنما كان سعر الطبق المحتوي على أربع قطع منها، كما فهمتُ من لويس، هو ٩٠ بيزيتا، وهذا بالطبع سعرٌ معقول لطبق من اللحم. شربنا قدَحَين آخرَين من النبيذ وقمنا غير أن لويس منعني من دفع ثمَن الشراب والمأكل؛ لأنني سبق أن دفعتُ له ثمَن تذكرة دخول القصر الملكي، وهكذا انقلبت الآية، كأنني أنا الذي دعوتُه لزيارة القصر وهو الذي دعاني إلى تناول الشراب، في حين أنني، كما سبق أن ذكَرتُ، قد دعوتُه إلى الشراب. أما زيارة القصر فلم تدخل في الاتفاق.

ودَّعني لويس وداعًا حارًّا بعد أن وعد بأن يُكاتبني، وبأنه قد يفكِّر جديًّا في زيارة القاهرة؛ لأنه يعتبر أن له بها صديقًا عزيزًا.

حقيقة، اللغة كالعصا السحرية، لولاها لما عرفتُ شيئًا عن طبيعة الشعب الإسباني، ولكن بفضل لويس ومعرفته للإنجليزية، فهمتُ أن الشعب الإسباني شعبٌ بالغ الطيبة ومهذبٌ جدًّا ومُرهَف الإحساس ويحترم الغير احترامًا واضحًا.

لم أنسَ، قبل أن نفترق، أن أُقدِّم له سلسلةً يتدَلى منها مفتاح الحياة عند قدماء المصريين، يتوسَّطه جعران أخضر نُقِش عليه رأس نفرتيتي المشهور، سُرَّ بها سرورًا عظيمًا، ووعدني بأن يقدِّم هذه السلسلة لأخته قائلًا إنها ستسعد كثيرًا بهذه الهدية الغريبة عليها. أما هو فقدَّمتُ له طبقًا من أطباق الحائط مصنوعًا من البلاستيك

المفضَّض المكتوب عليه هذه الآية: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. فطلب منِّي أن أُترجمَها إلى الإنجليزية، فكتبها على ورقة كانت في جيبه حتى لا ينساها أبدًا، كما وعدَني بأنه سيُعلِّق هذا الطبق في حجرة نومه طالما أن به كلماتٍ من كلام الله جل وعلا.

افترقنا، كلٌّ إلى حال سبيله؛ فأنا سأسافر غدًا إلى نيس مرةً أخرى، بعد أن انتهت مدة إقامتي بإسبانيا، كما أن دَور لويس بالفندق لم يأتِ بعدُ؛ فلكل موظفٍ نوبة عمله المحدَّدة.

عُدتُ إلى الفندق لأحظى ببعض الراحة بعد ذلك الإجهاد الذي تعرَّضتُ له بسبب السَّير كل تلك الساعات الطوال في أروقة القصر وقاعاته.

حاولتُ أن أنام فلم أستطع، ففتحتُ الراديو فإذا به يأتي بأخبار تُذيعها أمريكا. كانت هذه أول مرة أسمع فيها شيئًا عن بلدي. قال صوت أمريكا: السادات يصدر قرارًا يسمح لليهود الذين خرجوا من مصر مطرودين، بأن يعودوا إليها مرةً أخرى ليعيشوا فيها حياةً آمنة سالمة هانئة. حقًّا، أعظِم بالسادات من قائدِ دولةٍ يَسهَر على صالح بنيها، وعلى بُنيانها، وقيامها بمجدها القديم وأكثر. يريد السادات أن يُثبت للعالم أجمع أن مصر رائدة السلام في العالم، وأنها أرض الأديان جميعًا، لا فرق فيها بين مسلم أو مسيحي أو يهودي، وهذا صحيح تمامًا؛ فإن جميع المعابد اليهودية في مصر سليمةٌ كما هي، لم تمتد إليها يدٌ بعبث أو أذًى أو ضرر.

استعصى عليَّ النوم فرأيت أن أستحم بالماء الساخن، غير أنني فُوجئتُ بعدم وجود ماءٍ ساخن في حمَّام حُجرتي، فاغتسلتُ بالماء البارد؛ إذ كنتُ في مسيس الحاجة إلى ذلك الحمام لينعشني ويزيل عنِّي كل أثَرٍ للتعب. وفعلًا خرجتُ من الحمَّام نشيطًا.

نزلتُ إلى الطريق فإذا بحرارة الشمس لاسعةٌ تُلهِب البشرة بشدة. كِدتُ ألا أطيق ذلك السعير، فدخلتُ أول كافيتيريا صادفَتني في الطريق. وما إن جلستُ حتى انسابت في أرجاء المكان موسيقى رتيبة أعجبَتْني وأوحت إليَّ بهذه الكلمات التي أخذَت تنساب مع دقات الموسيقى، كأن اللحن الموسيقي ينشُد كلمات هذه الأم وهي تقول لوليدها الحبيب:

«حاسب لحْسَن تجرح إيدك يا بُنَي
د انت الحبيب الغالِ اللي بتشوفه عِنَي
تعال أمرجحك، تعال أزغزك يا لُؤَي
رايدة اسقيك من روحي الحب والحنية

دَنَا مامتك وحبيبتك وروحك يا بُنَي
وانت وحدك الغالي يا حبيبي ونُور عِنَي.»

بعد أن فرغتُ من كتابة هذه السطور البسيطة الركيكة، أخذتُ أعتبرها سطورًا صالحة من حيث المعنى والمضمون للتعبير عن الحُب الأمومي الذي لا يُدانيه أو يقاربه أي حب. هذا، وإن الغناء العربي فقيرٌ جدًّا في تغذية الشعب والنشء بهذا اللون الحيوي من الغناء الخفيف الصادر عن العاطفة الصادقة، باستثناء الأغنية المضحكة المشهورة: «السح الدح امبوه، الواد طالع لابوه»، وهي في بلدنا أكثر ذيوعًا وانتشارًا. وهناك كثيرون أثْرَوا من وراء هذه الأغنية البدائية الساذجة الركيكة.

بعد فترة جلسَت أمامي فتاةٌ إسبانية عرفتُ فيما بعدُ أن اسمها «دوري»؛ جلست قُبالي إلى المائدة التي كنتُ أكتب عليها. كانت رقيقةً ودمثة وفي حالها. سألتُها عمَّا إذا كانت إسبانية من أهل البلد أم هي سائحةٌ مثلي، فقالت إنها إسبانية. ومع ذلك دخلتُ معها في طوفان من الإشارات والحركات ومحاولات التفاهم اليائسة؛ إذ لا تعرف سوى الإسبانية، فخرجتُ من محاولاتي معها بأنها واحدة من عشرة إخوة وأخوات، سبعٌ منهم إناث وثلاثة ذكور. كما فهمتُ أيضًا أنها في الثامنة عشرة من عمرها، وأنها الثالثة في الترتيب بحسب الأعمار، تكبرها أختان، وباقي الإخوة والأخوات أصغر منها سنًّا.

علمتُ منها، بعد جهدٍ جهيدٍ أنها مُدرِّسة بإحدى مدارس رياض الأطفال، وأن أباها لا يكسب كثيرًا، ولكنها تساعده هي وأختاها الكبيرتان اللتان تعملان أيضًا. ولما سألتُها عما إذا كانت تعيش في قصة حب، نفت نفيًا باتًّا، وقالت: ليس بقلبي أي رجل على الإطلاق. فسألتُها: هل يرجع هذا الحرمان إلى الوالدَين اللذَين يمنعانك الاختلاط بالجنس الآخر؟ قالت: لا دخل لوالديَّ في هذا الموضوع، ولكن الأمر ينبعث من داخلي أنا نفسي. وحاولتُ بعد ذلك أن أسألها عن رأيها في الزواج، ولكني فشِلتُ الفشل كله في توصيل معنى كلمة الزواج إليها؛ لذلك لم أحظَ منها بجواب لهذا السؤال. ولما كانت، حسب كلامها، مرتبطة بموعد أو نحوه، فقد استأذنَت وانصرفَت بعد أن سلَّمَت عليَّ باليد في رقةٍ ودماثة وهدوءٍ نفسي عجيب.

قمت بدوري أبحث عن مطعمٍ جديد أتناول فيه عَشائي. كان عليَّ أن أتعشَّى مبكرًا قليلًا لأنني مرتبطٌ مع مكتب خوليا لزيارة كباريه ليلي تُمارَس فيه رقصة الفلامنكو المشهورة. لا بد أن أكون أمام المكتب في الساعة العاشرة تمامًا. خشيتُ أن أفقد الميعاد كما حدث لي في مرة سابقة وأنا «لي في كل خرابة عفريت»، فتضيع عليَّ الـ «١١٠٠» بيزيتا

التي دفعتُها مقابل القيام بهذه الزيارة التي رأيتُ ألا تفوتني؛ إذ ليس من المعقول أن أزور إسبانيا ولا أشاهد رقصتها الذائعة الصيت في العالم كله، ألا وهي رقصة الفلامنكو. تصوَّر معي سائحًا جاء من آخر الدنيا ليزور القاهرة ويفوتُه أن يرى الرقص البلدي الذي تُشتهَر به مصر دون سائر بلاد العالم. عندئذٍ يكون كمن خرج من المولد بلا حمص. ولَمَّا كنتُ أحسُّ بأنني لن أزور هذه البلاد مرةً أخرى في حياتي، فقد رأيتُ من الضروري، بل من الواجب، أن أرى هذه الرقصة الجميلة تؤدِّيها أشهر راقصاتها؛ فقد علمتُ من مكتب خوليا أننا سنزور واحدًا من أشهر الكباريهات المعروفة في مدريد، وهو كباريه من الدرجة الأولى. وإذ كنت سأسافر غدًا، فإن الفرصة أمامي محصورةٌ في هذه الليلة بالذات، وهي الليلة الأخيرة لي في مدريد عاصمة إسبانيا.

دخلت مطعمًا تنبعث منه رائحة الشواء لذيذة، وتنطلق معها أنغام الموسيقى الإسبانية عالية في قوةٍ وحيوية. كان ذلك المطعم غاصًّا بالروَّاد، وكانت الموسيقى تُوحي إلى من يدخل هذا المطعم بأنه يدخل ملهًى وليس مطعمًا.

وكذلك الأنوار في داخل المطعم، كانت خافتةً تُوحي بجو «ألف ليلة وليلة»، جو شاعري ساحر. كان الناس يأكلون كالمسعورين. تُوضع أمامهم الأطباق مملوءة، فسرعان ما تجدها قد صارت خاوية، كما لو كان الناس جميعًا قد ظلوا جياعًا يومَين ثم جاءوا إلى هنا. بيد أنني عندما ذقتُ الطعام التمستُ لهم العذر؛ فقد كان الطعام شهيًّا لذيذًا ذا نكهةٍ طيبةٍ جذابةٍ فضلًا عن إتقان الطهو. أكلت وشربت والحمد لله، ولكنني آثرتُ أن أبقى في مكاني أستمتع بجمال الموسيقى وعذوبتها؛ إذ كانت تملأ الجو وتزيد من شاعريته. حقًّا إن الموسيقى شِعرٌ صوتي جميل، قوافيه وأوزانه من الأنغام والألحان، لا من الألفاظ والعبارات. وكم هي عظيمة لغة الموسيقى! الكل يفهمها، والكل يهضمها، حتى إذا كان لا يعرف شيئًا عن قواعدها وأصولها. الموسيقى لغة القلوب قبل أن تكون لغة العقول؛ لذلك يخفق لها القلب بسرعة، ويتأثَّر بأنغامها، فتنفُذ إلى أعماقه، وتُحرِّك كوامنه الجيَّاشة، ومشاعره السادرة النائمة التائهة. وإنِّي لأعتقد أنه لا يُوجد في العالم كله إنسانٌ ليس بداخله موسيقى عامة وأخرى خاصة. وما من أُذن تتأذَّى بسماع الموسيقى، ولكن هناك موسيقى معينة يشتهيها القلب ويتوق إليها الفؤاد. وهذه تختلف من شخص إلى آخر تبعًا لمداركه وسنِّه وثقافته وبيئته وتذوقه.

أمامي ساعةٌ واحدة قبل موعد الرحلة إلى مرقص الفلامنكو والكباريه الليلي، فقمت بجولة على الأقدام. الناس سعداء لأن اليوم عطلةٌ رسمية، كما كان الأمس عطلة أيضًا.

تعبتُ من المشي فجلستُ إلى مائدة في كافيتيريا جديدة لم أدخلها من قبلُ. وبعد قليل أقبل شابٌّ ومعه فتاة، فجلسا. وما أن وقعَت عين الشاب على مذكِّراتي حتى قال من فوره: «هل أنت عربي؟» قالها بالفرنسية، فتنفستُ الصعداء؛ إذ وجدت رجلًا إسبانيًّا يتكلم الفرنسية؛ أي يتكلم لغة أفهمُها، ولكنني اكتشفتُ بعد قليل أنه مكسيكيٌّ جاء مع صديقته جوزفين الإنجليزية من لندن. كان هذا الفتى رقيقًا جدًّا ومهذبًا جدًّا ومتهلل الأسارير يُكلمك ببشاشة والابتسامة لا تفارق شفتَيه. راح يكلمني عن معلوماته عن مصر والأهرامات، ويُبدي أسفه لأنه لم يرَها حتى الآن، وأنه يتمنى أن يأتي ذلك اليوم الذي يجد نفسه فيه واقفًا أمام الأهرام. ثم سألني عما إذا كنتُ سأزور المكسيك في يومٍ ما قُلت: ربما ولكنني لست واثقًا من ذلك؛ فبلادك بعيدة جدًّا وتتطلب تكاليف لا قِبَل لي بها. قال: إذن فخذ عنواني. ربما فكَّرتَ يومًا في زيارتها، وعندئذٍ تجدني صديقًا لك في رحلتك. اشتبكَت جوزفين مع سيدتين فوق الثلاثين من العمر، والتحمنا جميعًا في الحديث. كانت هاتان السيدتان إنجليزيتَين أيضًا، أبدتا إعجابهما بإسبانيا، فسألتُهما عن عملهما. فقالت إحداهما إنها سكرتيرة، وقالت الأخرى إنها ربَّة بيت لا فائدة منها. فقلتُ لها: بل على النقيض أنتِ تُسهِمين في بناء أمة المستقبل بتربية أولادك تربيةً صالحة. قالت: ليس عندي سوى طفلٍ واحد. قُلت: اللبؤة لا تَلِد في حياتها إلا شبلًا واحدًا فحسب، والشبل يصبح أسدًا. قالت ضاحكة: ولكني أم لطفلة. قُلت: وليكن، ربما غدت أحسنَ منكِ حظًّا في إنجاب ذريةٍ صالحة. عندئذٍ أبدت جوزفين رغبتها في أن تكتب لي عنوانها عسى أن أهتم بأن أُرسل لها «كارت» به صورة الأهرام وأبو الهول، فوعدتُها بذلك.

الباب الثاني عشر

الفلامنكو الإسباني يستحق التقدير والتهاني

أشرفَت الساعة على العاشرة، فاعتذرتُ لهذه المجموعة اللطيفة، وهُرعتُ إلى مكتب شركة السياحة حيث وجدتُ السيارة وبعض المشتركين في الرحلة.

تحرَّك أوتوبيس الرحلة في الساعة العاشرة والربع تمامًا. أعلن المرشد أننا سنقوم أولًا بجولة خلال شوارع مدريد كي نرى أضواء المدينة ليلًا، ثم نقضي ساعة ونصف الساعة مع الرقص الفلامنكو، في أحدث وأرقى صالة من صالات عرضه، وبعد ذلك نتَّجه إلى كباريه «فلوريدا» المشهور لنقضي به ساعة وربع الساعة.

ما أكثر المطاعم والكافيتيريات التي أراها الآن مُضاءة في كل شارع تجري فيه السيارة الحافلة! كلها أنيقةٌ ونظيفة، ولكلٍّ منها طابعه الخاص وذوقه الخاص المختلف. وكلها تقدِّم ما يشتهيه الناس عامة، حتى الكافيتيريات الجانبية التي لا تُطِل على الشوارع الرئيسية، لا تقل جمالًا ونظافة عن الأخرى التي بالشوارع الكبرى الرئيسية. وربما كانت الأسعار متشابهة وإن كانت أغلى قليلًا في الشوارع الرئيسية.

تتلألأ في ميدان كولومبوس أكثر من نافورة مضيئة تُكسب الميدان طابعًا خاصًّا يميِّزه عن الميادين الأخرى التي سبق أن اخترقَتْها سيارتنا. وأستطيع أن أجزم بأن كل ميدان به نافورةٌ تُضاء ليلًا، ومن النادر جدًّا أن يخلو ميدان من مثل هذه النافورة. كما أن كل نافورة تُطلِق المياه بطريقةٍ خاصة بها تختلف عن طرق إطلاق المياه من النوافير الأخرى. قد تكون النافورة صغيرة، ولكن لا بد من وجودها.

يقول المرشد إن عرض الرقص لن يبدأ قبل الساعة الحادية عشرة مساءً ولا ينتهي قبل الثالثة صباحًا. وعلى حدِّ قوله، إنه عرضٌ مستمر، ولكننا لن نحظى بمشاهدته إلا

لفترةٍ محدودة، كي نستطيع بعد ذلك الذهاب إلى الملهى الليلي، لمشاهدة المزيد من حياة الليل في مدريد.

دخلنا قاعة الرقص فإذا بها فسيحةٌ مترامية الأطراف بوسطها مسرحٌ متوسط الحجم سُلِّطَت عليه الأضواء القوية. القاعة مُعدَّة لاستقبال السائحين يجلسون في مجموعات كل مجموعةٍ منها في مكانٍ مخصَّص لها. جلستُ أنا وبعض زملائي في مكانٍ ملاصق لخشبة المسرح. حاول النادل أن ينقلنا من ذلك الموضع فرفضنا في إصرار.

ها هو العرض يبدأ، وها هي الموسيقى القوية الضربات تملأ جو القاعة فتَشرئب الأعناق وتتجه الأبصار نحو المنصة.

بدأ الرقص بظهور مجموعة من الفتيات الإسبانيات المشوقات القوام جدًّا، ترتدي كل واحدةٍ منهنَّ ثوبًا من لون يختلف عن ألوان أثواب زميلاتها. الفساتين ذوات ذيولٍ واسعة عريضة متعددة الكرانيش تلفُّ مع لفَّات أجسادهن المدكوكة جدًّا. الصاجات في أيدي الراقصات يستخدمنَها مع نغمات الموسيقى المصاحبة ومع غناء الشاب الذي لا يكُف، وهو يُغني، عن التصفيق بيديه. يتجلى الذوق الرفيع في الملبس والأحذية ذات الكعوب العالية. تقوم الراقصات الآن بالدوران واللف في حركاتٍ رشيقة سريعة ليقفن في صفٍّ واحد، ثم يُطلِقن صرخةً عالية تتقنها كل راقصة من راقصات الفلامنكو.

بعد ذلك تغيَّر المنظر، فجلس عازفان وجلِست على يمينهما ثلاثُ راقصاتٍ وعلى يسارهما ثلاثُ راقصاتٍ أخريات. راحت إحدى الراقصات تصفِّق تصفيقًا شديدًا، ثم طلبَت منا، نحن النظارة، أن نُصفق معها.

شَرعَت الفتيات يصفِّقن ويغنين ويلوِّحن بأيديهن ويصرخن صرختهن المعروفة، فردَّدَها المتفرجون بنفس الحماس والشدة.

دخل مُنشد أخذ يغنِّي بينما تُصفِّق الفتيات تصفيقًا متواصلًا بطريقةٍ حلوة مقبولة.

قامت إحدى الفتيات وأمسكَت بذيل فستانها وراحت تلف وتحرِّك يدَيها وأنامل أصابعها بمهارة تستحق الإعجاب ... كان رأسها مرفوعًا سامقًا، وقوامها ممشوقًا متناسقًا، بينما سلطَت عينَيها على الأرض دون أن ترفعهما إلا لمامًا. أما شعرها فأنيق تعقده من الخلف بوردة حمراء. كانت شبيهة بالديك الرومي المُتطاوِس.

ها أنا ذا أراها الآن تدُق الأرض بحذائها بينما يُصفِّق باقي الفتيات ويصحن مشجِّعات كأنما يطلبن منها الاستمرار والإجادة. أخذَت ترقص كأنها مصارع ثيران يلفُّ

حول ثورٍ هائج تُثيره بقطعة من القماش الأحمر. توقفَت هذه الراقصة قليلًا ولكنها لم تلبث أن واصلَت الرقص بحماسٍ أشد وبصورة تجبرك على الإعجاب والاحترام.

ما إن انتهت الراقصة الأولى من رقصتها البديعة هذه حتى جلسَت فوق مقعدها، وشرعَت الفتيات الأخريات يُطلِقن من جديد صيحاتهن المجنونة العالية، ثم قامت راقصةٌ أخرى تقدِّم رقصًا مختلفًا على وقع أنغام الموسيقى. اعتمدَت هذه الراقصة على قوامها الممشوق جدًّا وحركات أردافها البديعة المتزنة.

يعتمد الرقص الفلامنكو، أساسًا، على حركات القدمَين واليدَين معًا؛ فهما مترابطان متكاتفان، فتنقل الراقصة وتُترجِم نغمات الموسيقى وتُعبِّر عنها بحركات القدمَين وضرباتها الشديدة على ساعدَيها اللذَين قد يرتفعان عاليًا في الهواء وقد يهبطان إلى الخصرَين. والراقصة الإسبانية طويلة النفس لا تكلُّ ولا تتعب من الرقص، وقد تستمر ساعاتٍ طويلة تؤدي هذه الحركات العنيفة في تنسيقٍ بديع مُلفت للأنظار ومثير للإعجاب.

انتهت الراقصة الثانية وسط عاصفةٍ من التصفيق الحاد من المشاهدين. استمر التصفيق متواصلًا مدةً طويلة.

وكفاصل، تظل الفتيات يُصفِّقن بينما يعزف الشابَّان عزفًا متقطعًا ويغني المُنشد غناءً غير جادٍّ.

قامت راقصةٌ ثالثة، أجمل ما فيها وجهها البمبي اللون. هكذا بدا لي تحت الأضواء المُسلَّطة على وجهها وعلى ثوبها البمبي وقرطها الغجري الطويل والبمبي اللون أيضًا، متدليًا من أذنَيها يُداعب الهواء مع كل حركة تقوم بها. يا له من طابع جديد جميل من الرقص الفلامنكو يتَّسم بالسرعة الفائقة مع الحدَّة الشديدة في الدوران وفي ضربات القدمين!

أما ملابس الراقصات عمومًا ففي غاية الاحتشام؛ فالأكمام طويلةٌ تُغطي الذراعَين، والفساتين طويلة الذيول تصل إلى كعوب الأحذية.

تقوم الراقصة الإسبانية أثناء تأديتها الحركات بسرعة، تقوم بحركاتٍ كثيرة متناقضة؛ فتارة تحرك رأسها وساعدها وقدمها معًا في وقتٍ واحد، ثم لا تلبث أن تُصفِّق بيديها وتُطرقِع بأناملها، وفي لمح البصر تُمسِك بذيل فستانها وترفعه لتقوم بمجموعة من الحركات السريعة البديعة، التي تنمُّ عن مهارةٍ فائقة ومرانٍ طويل.

قامت الراقصة الرابعة تتلوَّى كما يتلوى الثعبان بجسمه. إنها راقصةٌ مرحة إلى أقصى ما يكون المرح، باسمة جميلة الثغر، ترقص وتغني في وقتٍ واحد بينما يردُّ عليها باقي الفتيات مع التصفيق الهادئ المنخفض. صوت الراقصة جهوريٌّ قوي، مُبدِعة في

أدائها، متَّزنة في رقصها، متمكِّنة منه. هي أستاذة في الغناء، ولكنها سرعان ما تنقلب إلى راقصةٍ متينة وفنانةٍ مكينة، وكأن في قدمَيها مكوكًا سريعًا لا يكُفُّ عن الحركة الدقيقة المتواصلة الضربات والنقرات. تقف على خشبة المسرح كملكةٍ غير متوَّجة، تاجُها في صوتها ووقع قدمَيها الذهبيتَين.

دوَّت القاعة بالتصفيق الشديد لهذه المغنية الراقصة، أو قُل الراقصة المغنية؛ فهي ولا شك ضليعة في اللونَين معًا.

الفريق المائل أمامنا على منصة المسرح فريقٌ متكاتف يتعامل كأنه شخصٌ واحد. الكل يساعد بعضه البعض الآخر، ليس بينهن سيد ومسود.

قامت الراقصة الخامسة كالطاووس النافر، ترقص في خيلاء وكبرياء وشموخ، همُّها في حركات يدَيها اللتَين لا تستقرَّان أبدًا على حال، وفي ساقَيها اللتين تُناطِحان الأرض بلا رحمة ولا هوادة. طاووسٌ جميلٌ بديع التكوين طويل العنق، كما لو كان لها عنق نفرتيتي الجميل والذائع الصيت. أصابعها ترقص. كل إصبع تذهب في اتجاهها المعيَّن الذي رسمَته لها في براعة وإتقان. الراقصة في حالة تركيزٍ ذهنيٍّ شديد؛ فكل حركة محسوبةٌ عليها وضربات الأقدام يجب أن تتمشَّى مع أنغام الكمان العازف، ولكن الراقصة تسيطر على كل حركة. إنها أستاذةٌ تعرف ما تفعل. بدت هذه الراقصة تحت الأضواء كشعلة نارٍ ملتهبة؛ حذاؤها أحمر جميل، ورداؤها أحمر تجري فيه خطوط زرقاء صارخة. أما ذيل فستانها فأحمرُ صارخ، وربما كانت هذه الراقصة أكثر الراقصات إتقانًا وحُسنَ أداء.

إلى هنا انتهى العرض بالنسبة لنا بناءً على الزمن الذي حدَّدوه لنا في إطار الرحلة، كما رسمَتها لنا شركة السياحة خوليا.

كان المفروض أن نتناول شرابًا بالمجَّان داخل هذا المسرح، ولكن عقابًا لي ولثلاثةٍ آخرين رأينا أن نجلس إلى جوار حلبة الرقص، حُرمنا تناول هذا الشراب المجاني.

لم يفُتني، بالطبع، أن أُناقش الأمر مع المرشد الإسباني المرافق لنا، ولكنه كان يعلم بالعقوبة ويؤيدها، فكان هذا منه موقفًا لم نستلطفه؛ فالمفروض أنه معنا يرعى مصالحنا، ويدافع عنَّا، ويلتمس لنا الأعذار مهما أخطأنا؛ لأننا أجانب لا نعرف قواعد المسارح هناك، وطبعًا لا تكون أخطاؤنا مقصودة.

انطلقَت بنا السيارة بعد ذلك إلى الملهى الليلي تعود بنا مارقةً من نفس الشوارع التي مرَرْنا منها إلى مرقص الفلامنكو. تكاد تكون شوارع مدريد خالية من الناس، ومع ذلك فلا تزال المطاعم مفتوحة.

وقفَت بنا السيارة فجأة، فإذا بعددٍ كبير من الرجال والنساء يصعدون ليملئوا السيارة عن آخرها، ولم يكن بها من قبلُ أكثر من عشرة ركَّاب. لم أدرِ من أين جاء هذا العدد الضخم من الناس. وأغلب الظن أنهم من نزلاء فندقٍ معيَّن اتفق معهم على ذلك الزمان والمكان لتأتي إليهم السيارة فتُقِلهم إلى المسرح المنشود.

وصلنا بعد قليل إلى كباريه «فلوريدا بارك» فوجدناه من الداخل مبنًى ضخمًا فسيح الأرجاء.

بدأ العرض بعازفٍ يصيح صياحًا عاليًا شديدًا، يصاحبه عازفٌ آخر يضرب ضرباتٍ قوية.

جاءت الآن أربع راقصاتٍ يرقصن رقص الفلامنكو الهادئ، وهن مرتدياتٌ أثوابًا حمراء بلونٍ واحد ترتاح إليه العين. وبعد جولات ودورات ولفَّاتٍ رشيقات على أنغام المنشد ولاعب الكمان، يظهر فجأةً رجلٌ رشيق القوام جدًّا حتى لتكاد يدٌ واحدة أن تلتف حول خصره فتعصره عصرًا في سهولة ويسر. يرتدي هذا الرجل حُلَّةً رمادية اللون، ويلفُّ حول عنقه منديلًا، ويضع فوق شعره الكستنائي المشوط جيدًا، والمتدلي إلى الخلف حتى يُغطي كل العنق من الخلف؛ يضع فوقه قُبعةً رمادية اللون مسطَّحة القمة. وأستطيع بكل ثقةٍ أن أُطلق على هذه الرقصة التي أدَّاها هذا الراقص الرشيق «رقصة القبَّعة»؛ إذ كان جُلُّ همه أن يحرِّك القبعة حركاتٍ رشيقة بديعة على أنغام الموسيقى، مما يدُل على احترامه الشديد لهذه القبعة. كان يرفعها عن رأسه ويلوِّح بها في حركاتٍ تجعلكَ تُحس بأن القبَّعة تُراقص الموسيقى وتفهمها وتلتحم معها ولا تتعامل إلا مع شاعريتها الرقيقة. مضى هذا الراقص الماهر يؤدِّي حركاته هذه لمدةٍ طويلة دون أن يُكرِّر أو يُعيد حركةً واحدة مرتَين. وفجأةً قذف بالقبَّعة في الهواء لتسقط فوق أرض الحلبة. وهكذا ضاعت هيبة القبعة وبدأت هيبتُه هو كراقصٍ رشيق ممتع في حركاته. تَعجِز العين عن متابعة حركات ساقَيه وقدمَيه كأن جِنًّا قد تسلط عليها جميعًا.

استحوذ هذا الراقص على إعجاب المتفرجين، وكانوا بالألوف لا بالمئات، فراحوا يُصفقون له بلا توقف وكأنهم سُلبوا العقل والفكر والاتزان جميعًا، بينما الرجل ينحني في خفة العصفور فيزيد إعجاب الناس به، لاتصافه بخفة الروح وخفة الحركة وخفة الإحساس وخفة الوزن أيضًا.

ما إن ترك هذا الرجل خشبة المسرح حتى خرجَت لنا فتاةٌ تكاد تكون عارية تمامًا، باستثناء ورقة توت تضعها أعلى فخذَيها وورقتَين أخريَين ثبَّتَتْهما فوق نهدَيها. شرعَت

هذه المرأة الجميلة الجسم تأتي بحركاتٍ أكروباتية تُثير الإعجاب كأن جسمها من نوع جسم الرجل المطاطي إن كان لك به علم. لم تترك هذه الراقصة الفاتنة اللولبية منصة المسرح إلا بعد أن قدَّمَت لنا كل ما عندها من فنونٍ أكروباتية شَابَ لها شعر رءوسنا. وهكذا استطاعت هذه المرأة الخيزرانية أن تُثبت لنا جميعًا أن للإنسان من القدرات ما يُثير الإعجاب بحق. كانت هذه الفتاة الحسناء، بحركاتها المثيرة، أشبه بسيمفونيةٍ كاملة تُعزف بالساقَين وباليدَين وبالخصر وبالعنق وبالظهر وبالبطن. كل شيءٍ عندها جائزٌ وحاضر وقريب؛ فمثلًا يمكن لساقَيها أن تلتفَّا حول رقبتها بسرعة وبسهولة من الأمام ومن الخلف، كما تستطيع رِجْلاها وفخذاها أن تنفرج بزاوية مستقيمة ١٨٠ درجة فتلاصق أرض المنصة. وكان بوسع رأسها الجميل أن يصل إلى قدمَيها من أي اتجاه يتصوَّره خيالك أو يصعُب على خيالك أن يتصوَّره، من الأمام ومن الخلف ومن الجانبَين وفي اتجاه بين الجانبَين والأمام أو الخلف. نسيتُ أن أقول لك إن أوراق التوت التي وضعَتْها كما سبق أن ذكرتُ لك، فضيَّة اللون تتألق تحت الأضواء فتبدو مرصَّعة بفصوص من الماس البرلنتي الثمين. وأغلب الظن أنها لم تكن أوراقًا بل قطعًا من القماش البديع صُنع خصيصًا لهذه الراقصة الثعبانية الجسم.

ظهر لنا بعد ذلك راقصةٌ فارعة الطول مستقيمة الظهر منتصبة القامة مرفوعة الرأس. تبدو شامخة في أنَفَة، معتزَّة بنفسها وبجبروتها في فن الرقص الفلامنكو. صاحَبها المغني والعازف فأمتعَتْنا بحركاتٍ بدت لي في كثيرٍ منها كأنما هي تُصارِع ثورًا إسبانيًّا في حلبة مصارعة الثيران، وأنها، ولا شك، قد صرعَتْه قبل أن يصرعَها. كل حركاتها تنمُّ عن النصر والظفر والفوز والتفوُّق والتعالي، ولكنها رغم هذا؛ لم تلقَ منا سوى الإعجاب الشديد المتمثل في التصفيق الحاد المتواصل الذي أثلج صدرها وملا أذنَيها زهوًا وخُيلاء، وزادها ثقة بالنفس، وكأن ذلك التصفيق لم يكن إلا أوسمةً نُلصِقها بأيدينا فوق كل جزء من جسمها اللدن المتمرس في فن الرقص الراقي البعيد عن الفُحش والتفاهة والمشاعر الحيوانية.

تَلَت ذلك نمرةٌ أخرى طلع بها علينا شابٌّ إسباني في حوالي الثلاثين من عمره. كانت حركاته إعلانًا صارخًا على ما يتمتع به هذا اللاعب الماهر من قدرةٍ عجيبة قلَّما تُوجد لدى غيره، في فن التحكم والتركيز؛ فمثلًا يستطيع هذا الشاب أن يحمل أكثر من صينية، وفوق كل صينيةٍ مجموعةٌ كبيرة من الكئوس الزجاجية المملوءة بالنبيذ الأحمر. كان يرفع كل هذا الحِمل الغريب فوق سن خنجر يمسك به من مقبضه بين فكَّيه. كان

يرفع تلك الصواني بما عليها من كئوس فوق ساقٍ حديدية مستديرة، يرفعها إلى ارتفاع يزيد على خمسة أمتار بينما يرتكز أسفل الساق على نصل الخنجر المسنون واللاعب يُسيطر على الصواني سيطرةً تامة فلا تنقلب أو تهتز، بل تبقى معلَّقة في الهواء.

والأدهى من ذلك أن هذا اللاعب صَعِد بكل ذلك الحِمل المثبَّت على لا شيء فوق درجات سُلمٍ أحضره أمامنا وثبَّتَه على قضيبٍ رفيع، وراح يصعد الدرجات بخفة العصفور. ويا ليتَه اكتفى بذلك فيكون قد استحق إعجابنا وتقديرنا، ولكنه ارتمى بظهره فوق السلم نائمًا جاعلًا رأسه إلى أسفل وقدَمَيه إلى أعلى بينما تتحرك يداه في الفضاء كأجنحة الطير. كل هذا والحِمل المُعلَّق فوق لا شيء والمرفوع عاليًا يقف في الفضاء ثابتًا راسخًا دون أي اهتزازٍ فوق حدِّ الخنجر الموضوع داخل فمه؛ شيءٌ بديع حقًّا وخارقٌ للعادة والمألوف وبراعةٌ نادرة تمثِّل قدرة الإنسان الغريبة على منتهى التحكم والإعجاز. والتصفيق المدوِّي من ألوف النظارة يخترق أذني إعجابًا بهذا العمل الخارق الذي قام به هذا اللاعب المثير ذو الأعصاب الفولاذية والكفاءة النادرة في قوة التحكم.

خرج هذا اللاعب وسط عاصفة التصفيق، وجاءت مجموعةٌ من راقصات الفلامنكو، كلهن يرتدين أثوابًا متشابهة في اللون والشكل عدا راقصة واحدة ترتدي فستانًا من لونٍ مختلف. كانت هذه الأخيرة هي التي استمتعنا بحركاتها الجريئة.

حقًّا، إن الرقص الفلامنكو يخلق من الفتاة إنسانةً تتصف بالشجاعة التامة، شجاعة الرجل وجرأة الرجل وجسارته. وانقلب المُغنِّي في هذه الرقصة بالذات إلى مجرد حنجرةٍ جبارةٍ تستحق التأمل والإعجاب. كان بحنجرته أقوى من الراقصة بحركات قدمَيها وساقَيها وذراعَيها وعنقها. كان هو المسيطر المتحكم، يسرق عدسة الكاميرا من الراقصة. اتجهَت أُذناي إلى إنشاده الجَهْوَري القوي وإلى صوته الصافي العميق الجميل الصادق، أثار هذا المُغنِّي إعجابي بصورة جعلَتْني أصفِّق له كالمجنون.

في نهاية العرض ظهر على المنصة جميع الراقصات والراقصين واللاعبين وكل من أسهَم في تقديم هذا العرض الشيق السريع «الشيك». ظهروا جميعًا لكي يحظَوا بالتحية الصادقة من المعجَبين والمشدُوهين من المتفرِّجين القادمين من شتى بلاد الدنيا.

انتهى العرض إلى هذا القَدْر فعلًا. لم يستغرق أكثر من ساعةٍ واحدة.

وبمناسبة هذا العرض الشيق، يُسعدني أن أصفَ لك عَرضًا مماثلًا شاهدتُه في بودابست عاصمة المجر. ولما كان ذلك العرض يستحقُّ الذكر فها أنا ذا أنقلُ إليك يا قارئي العزيز تفاصيلَ ما رأيتُ، بقَدْر من الدقة والأمانة.

«ذهبتُ في رحلة إلى أوروبا أزور فيها المجر والنمسا وفرنسا وإنجلترا. بدأت الرحلة مع اثنَين وثلاثين شخصًا إلى المجر أولًا. وفي أول ليلةٍ لنا في بودابست رأت المشرفة أن نشاهد عرضًا يقدِّمه ملهًى ليلي. ولَّما كان ثمَن تذكرة الدخول ٢٠٠ فورنت؛ أي حوالي ٦٤٠ قرشًا مصريًّا، فلم يذهب منا لمشاهدته سوى القليل، وكنتُ أنا واحدًا منهم.

ذهبنا إلى ذلك الملهى في حوالي الساعة التاسعة والنصف مساءً وهي ما تُقابل الساعة الثامنة والنصف عندنا في مصر. كان الملهى في الطابق الثالث تحت الأرض من مبنًى ضخم يضُم عددًا من المتاجر والمكاتب. وارتفاع هذا المبنى فوق الأرض عشرة طوابق. أما تحت الأرض فلا أدري غيرَ أننا نزلنا إلى الطابق الثالث وربما كان تحته طوابقُ أخرى. في الساعة العاشرة تمامًا بدأَت الموسيقى الهادئة تعزف. الملهى مكانٌ غير فسيح به حلبةٌ نصفُ دائرية يبلغ طولها حوالي ثلاثين مترًا ونحن نجلس حولها من الخارج. عدد المتفرِّجين لا يزيد على مائتَي شخص. بمجرد أن شَرعَت الموسيقى في العزف جاء النُّدُل يوزِّعون علينا الآيس كريم. كانت كل قطعة من الآيس كريم بشكل تورتةٍ مزخرفة من أعلاها وجوانبها كالتورتة تمامًا، وتكفي أربعة أشخاص لا شخصًا واحدًا. كان بعض هذه التورتات بلونٍ أبيض والبعض الآخر بلون الشيكولاتة، فوزَّع النادل الآيس كريم الأبيض على السيدات والشيكولاتة على الرجال، ولكني أعطيتُ جارتي نصف تورتتي وأخذتُ نصفَ ما في طبقها لتذوُّق الصنفَين كلَيهما. بعد حوالي خمس دقائقَ دخلَت ست راقصات نصفهن بفساتين من لون لبني زاهٍ جميل والنصف الآخر بفساتين من لونٍ ليمونيٍّ زاهٍ جدًّا. أخذَت الراقصات يقدِّمن رقصًا بديع الحركات أشبه ما يكون بالحركات العسكرية، ويزيد عليه في تمايُل أجسام الراقصات وانثناءاتها، ودورانهن أثناء السير على حلبة المسرح بصورةٍ بديعةٍ مثيرة وسرعةٍ غريبة، ثم دخلَت راقصةٌ ترتدي فستانًا أحمر بلونِ زهر الرُّمَّان، وقدَّمَت رقصاتٍ مثيرة الحركات والراقصاتُ الست يَسِرن حولها. كانت رقصاتُها أشبه ما تكون برقصات الباليه.

بعد ذلك خرجَت الراقصات ودخل لاعبٌ ومعه مُهرج (بلياتشو). أمسَكَ اللاعب بطَوقٍ كبيرٍ وضع فوق حافته من الداخل كوبًا كبيرًا مملوءًا بسائلٍ أحمر ربما كان شراب الورد، وأخذ يلفُّ الطَّوق ويُديره في الهواء بسرعةٍ مذهلة، دون أن تنسكب من الكوب قطرةٌ واحدة أو يقع الكوب نفسه، مما أثار إعجابنا، فأخذنا نُصفِّق له بشدة. ولما انتهى من إدارة الطوق صاح المهرِّج باللغة المجرية التي لا تُشبه الإنجليزية ولا الفرنسية ولكنها تُشبه الألمانية بعض الشيء، فلم نفهم ما قاله، بالطبع، ولكن الظاهر

أنه قال: وماذا فعلتَ؟ هل فعلتَ شيئًا خارقًا؟ أنا أَلْفُّ الطَّوق بالكوب أسرع منك. فناولَه اللاعب الطوق والكوب، فما كان من المهرِّج إلا أن شرب ما في الكوب ووضَعه هو والطَّوق على نضدٍ بعيدٍ فوق الحلبة. أراد اللاعب القيام بلعبةٍ أخرى، فجاء بشمعدان به شمعةٌ قصيرة وأخرج عُلبة ثقاب وأشعل منها عودًا أوقد به الشمعة. وبينما اللاعب يستعد لإخراج أداةٍ أخرى، أكل المهرِّج الشمعة، فما كان من اللاعب إلا أن غضب، وأخذ يشتم المهرِّج ويضربه ويضغط على بطنه، وأخيرًا وضع يده اليسرى على بطن المهرِّج، وضغط على ظهره بيده اليمنى، وثنى الظهر إلى أسفل بحيث ترتفع أَلْيَة المهرِّج إلى أعلى وقبالة المتفرجين، فإذا بنورٍ صغيرٍ يضيء وسط منتصف أَلْيَة المهرج، كأنه قد تبرَّز الشمعة موقدة، مما أثار عاصفة من الضحك. بعد ذلك جلس اللاعب حزينًا على مقعد، فأراد المهرِّج أن يُطيِّب خاطره بأن يعزف له على الكمان، ففتح عُلبة الكمان ومسح أوتارَها بالقلفونية، وأمسك القوس ومسحَها أيضًا بالقلفونية، ووضعها إلى جانب الكمان، ثم أخرج زجاجة من عُلبة الكمان، كانت زجاجة ويسكي صغيرة ملأ منها كأسًا وشربها، ثم أخذ فوطةَ سُفرة واتجه إلى اللاعب فمسح له فمه بها، كأنه هو الذي شرب الويسكي، ثم أقفل عُلبة الكمان دون أن يعزف شيئًا. فقام اللاعب وانهال على المهرِّج ضربًا وهذا يصرُخ ويستغيث. ولما لم يجد من يهبُّ لنجدته صار يضغط بإحدى قدمَيه على الأرض فيرتفع إلى أعلى ثم يضغط بالقدم الأخرى فيرتفع أكثر، وهكذا حتى صار بارتفاع حوالي ثلاثة أمتار بمنأًى عن مُتناوَل يد اللاعب. والغريب أنه كلما ارتفع طال بنطلونه حتى صار البنطلون طويلًا جدًّا بكامل ارتفاع أرجل المهرِّج ويصل إلى قدمَيْه، فأخذ اللاعب يشتمه ويتوعَّده، فما كان من المهرِّج إلَّا أن خلع جاكتته وقذف بها اللاعب، ثم خلع صديريته وقذف بها اللاعب أيضًا، فظهَرَت تحتها صديريةٌ أخرى، فخلعها وقذف بها اللاعب. وهكذا توالت الصديريات إلى أكثر من عشرين صديرية، فجذب اللاعب طرفَ حبل في الأرض، فهبط المهرِّج شيئًا فشيئًا حتى صار في طوله العادي، فحاول اللاعب أن يركله بالشلُّوت فجرى إلى خارج الحلبة في حركاتٍ مضحكة واللاعب يُطارِده. والمتفرجون يضحكون ملء أفواههم بصوتٍ مرتفع.

دخلَت بعد ذلك ست فتياتٍ بارعات الفتنة والجمال لم ترَ عيني طول حياتي أجمل منهن. وكن عارياتٍ تمامًا فيما عدا قطعةً صغيرة من القماش الذهبي تُستُر العورة من الأمام وقطعتَين أخريَين تستران حلمة الثديَين والدائرة التي حول كل حلمة. وكانت هذه القِطَع بشكل القلب.

أخذَت الفتيات يرقصن في حركاتٍ مثيرة، فيرفعن إحدى الأرجل حتى تصير القدم إلى جانب الرأس، ثم يفترشن الأرض بسرعةٍ باسطاتٍ سيقانهن إلى الأمام في خطوطٍ متوازية بينما يقمن بحركات بالأذرُع، ثم ينهضن واقفاتٍ في خفَّةٍ غريبة ويدُرن بسرعة في دائرة وأذرع إحداهن تَرتفِع إلى أعلى بينما تنخفض ذراعا التي تليها إلى أسفل، ثم ترتفع هذه وتنخفض الأولى في تبادلٍ جميل. بعد ذلك ارتمت الفتيات على الأرض بسرعةٍ أيضًا فإذا بهن في دائرة وأقدامهن جميعًا في مركز الدائرة وسيقانهن أنصاف أقطار الدائرة. تصوَّر هذا المنظر والفتيات عاريات! وبسرعة البرق تنزلق الفتيات وترتفع أقدامهن إلى أعلى ملتقياتٍ معًا في نقطةٍ واحدة، بينما هن مرتكزاتٌ على أيديهن في شكل دائرة أيضًا، فيُخيَّل إلى الرائي أنه يرى ثمرة كمثرى آدمية. وهكذا توالت هذه الحركات وأمثالهن من الفتيات العاريات والجمهور يُصفِّق بشدة لرشاقة الحركات وخفَّتها وسرعتها وجمالها، ثم خرجَت هؤلاء الفتيات.

وعلى الفور دخل لاعب أثار إعجابنا تمامًا. كان بارعًا وخارقًا في ألعابه التي لا يُصدِّقها العقل.

عندئذٍ جاء النادل فرفع أطباق الآيس كريم الفارغة من أمامنا، ووضَع أمام كل واحدٍ منا كأسًا كبيرة من الشمبانيا وكيسًا كبيرًا من البلاستيك مملوءًا باللوز المقشور.

أخذ اللاعب نضدًا مستديرًا ذا ثلاث أرجلٍ فوقه صينيةٍ عليها إبريق للشاي وإبريق للبنِّ وسكَّرية وفنجانا شاي بطبقَيْهما. وضع أرجل النضد فوق مقابض ثلاثة خناجر، ووضع أسنَّة الخناجر الثلاثة في قطعةٍ معدنية صغيرة تُشبه «الكستبان» ثم وضَع هذه القطعة المعدنية فوق جبينه، وأخذ يرقص على أنغام الموسيقى والنضَد بما عليه من طاقم الشاي فوق الخناجر، والخناجر مرتكزة على القطعة المعدنية الصغيرة فوق جبينه؛ فلو اختلَّ توازُن النضَد لدخلَت أسنَّة الخناجر في جبينه وعينَيه، ولكنه ظل يرقص بما على جبينه مدةً طويلة. وفجأةً وقع النضَد على جانبه، فإذا باللاعب يُمسِك الخناجر الثلاثة بسرعة البرق من نصالها بإحدى يدَيه وإحدى أرجل النضَد باليد الأخرى. ذُعر المتفرجون القريبون منه وقفَزوا من أماكنهم لئلا تقع عليهم أباريق الشاي والصينية والنضَد، ولكن الأباريق والسكَّرية والفناجين وأطباقها كانت مربوطةً إلى الصينية بخيوط والصينية مربوطة إلى النضَد بخيط، وكانت هذه حركةً من هذا اللاعب ضحك لها المتفرِّجون كثيرًا حتى مَن قفزوا من أماكنهم فزعين؛ ضحكوا لَمَّا وجدوه مُمسكًا بإحدى أرجل النضَد الذي تتدلى منه الصينية والأباريق والفناجين والأطباق.

بعد ذلك جاء هذا اللاعب بكُرة تِنِس وحلقةٍ معدنية تمُرُّ منها الكرة بالضبط ولا تتسع لورقةٍ صغيرة تمُرُّ مع الكرة، فثبَّت الحلقة في حزامه من الخلف عند ظهره، وأمسك مرآة في يده، وضرب كرة التنس بقدمه إلى أعلى فارتفعَت في الهواء وسقطَت لتمرَّ من الحلقة المثبتة في حزامه من وراء ظهره. لعبة بارعة؛ ففي لعبة الباسكت بول (كرة السلة) يُمسِك اللاعب كرةً كبيرة ويقذفها أمامه بيدَيه لتسقط وتمُرَّ من حلقةٍ كبيرة، ويُخطئ الهدف مرارًا بينما هذا يقذف الكرة بقدمه، وهي كرةٌ صغيرة، فتسقط وراء ظهره، وتمُرُّ من الحلقة الصغيرة فلا يُخطئ الهدف.

بعد ذلك جاء هذا اللاعبُ بكرة قدم، وقذفها إلى المتفرجين كي يقذفوها له، فيلقفها فوق قطعةٍ صغيرة من الخشب تُشبه المسطرة، يُمسِكها بين أسنانه فلا تتحرك الكرة من فوق طرف قطعة الخشب، فيأخذها ويرميها للمتفرجين مرةً أخرى، فيلقَفُها على طرف المسطرة، وهكذا عدة مرات. وكان بعض المتفرجين يقذف الكرة عالية، فتسقط فوق طرف قطعة الخشب تمامًا وتظل ملتصقةً به. وكان بعضهم يقذفها له منخفضةً جدًّا تكاد تكون بمستوى أرض الحلبة، وعندئذٍ ينبطح اللاعب أرضًا بسرعةٍ مدهشةٍ ويلتقط الكرة فوق طرف الخشبة دون أن تُلامس أرض الحلبة، وبذا نال إعجاب المتفرجين وتصفيقهم. والغريب أن هذا اللاعب الخفيف الحركة بهذه السرعة كان بدينًا.

دخلَت الحلبة فتاةٌ وسيمة الوجه قال لنا النادل إنها زوجةُ ذلك اللاعب، فتوقفَت أمام حاجزٍ خشبيٍّ ومدَّت ذراعَيها والتصقَت بالحاجز، فأخذ اللاعب عددًا من الخناجر، فراح يُمسِك الخنجر من سِنِّه بأسنانه ويقذفه في فمه فيلتصق بالحاجز الخشبي بجانب جسم الفتاة تمامًا. وهكذا صار يقذف الخناجر بفمه حتى أحاط جسمَ زوجته وذراعَيها ورأسَها بالخناجر الحادة الأسنَّة بدليل أنها تنفُذ في الحاجز الخشبي وتلتصق به؛ فلو أخطأ هذا اللاعب الهدف مرةً واحدة لقتل زوجته، فصفَّق الجمهور له تصفيقًا حادًّا، فانحنى لنا، وخرج من الحلبة هو وزوجته.

توقَّف العرض بعد ذلك حوالي عشر دقائق، وزَّع النُّدل علينا أثناءها قِطعًا من التورتة؛ لكل واحدٍ قطعةُ تورتة كبيرة تكفي شخصَين. وكانت التورتات لا تحتوي على شيءٍ من العجين إطلاقًا، بل كلها فواكهُ وكريمة وشيكولاتة.

بعد ذلك دخلَت الحلبة فتاتان نحيلتا العود، جميلتا الطلعة، فارعتا الطول، ترتدي كلٌّ منهما ثوبًا أبيض من قطعةٍ واحدة، يلتصق بالجسم من الكتفَين حتى أطراف أصابع القدمَين، وتُمسِك كلٌّ منهما في يدها عصًا قصيرة بطرفها شريطٌ أحمر طويل جدًّا يبدو

كالسوط. وعلى نغمات الموسيقى تُحرِّك الفتاتان العصا أمامهما فيرسم الشريط دوائرَ صغيرة في الهواء، ثم دوائرَ أكبر فأكبر. والغريب أن الدوائر متساوية عند الفتاتَين في وقتٍ واحد، كأن التوقيت مرسومٌ بدقة من قبلُ. وفي وقتٍ واحد أيضًا ترسم كل فتاة دائرتَين متلامستَين تبدوان كالرقم ثمانية في اللغات الأوروبية. أهم شيء أن رقم ثمانية كان متساوي الحجم عند كلٍّ من الفتاتين. بعد ذلك وفي وقتٍ واحد أيضًا ترسم كلٌّ منهما في الهواء بشريط سوطها حرف S والحرفان متساويان أيضًا. بعد ذلك تجري الفتاتان فوق الحلبة والشريط يرسم دوائر حول كل ساقٍ تمتد إلى الأمام في نظامٍ بديع وبدقةٍ بالغة؛ إذ الدوائر متساوية والسيقان تمتدَّان معًا اليمنى مع اليمنى واليسرى مع اليسرى. وهكذا أبدعَت الفتاتان اللعب بالشريط أيما إبداع، وقامتا بحركاتٍ أخرى يقصُر المقامُ عن ذكر تفاصيلها، ثم خرجَتا.

دخل لاعبٌ آخر أثار إعجابنا أكثر مِن كل مَن سبقوه؛ إذ صَعِد فوق نضَدٍ صغير بارتفاع حوالي متر ونصف ووضع فوقه زجاجة بيرة، ووضع إصبعه السبابة فوق فوَّهة الزجاجة، وانقلب في الهواء ساقاه إلى أعلى ورأسُه إلى أسفل وهو مرتكز على الزجاجة بسبَّابته فقط. وجاءت فتاةٌ فناولَتْه طَوقَين، فوضع كل طَوقٍ في ساق، وصار يحرِّك كل طوقٍ برجله والأطواق تلفُّ بسرعة، ثم أعطته الفتاة عصًا صغيرة وطوقًا، فأمسَك العصا بأسنانه، ووضع الطوق حول العصا، وأخذ يُحرِّك الطَّوق بالعصا بفمه والطوق يدور حول العصا بسرعة، بينما يدور الطَّوقان الآخران حول ساقَيه أيضًا، ثم أعطته طوقًا آخر راح يديره حول إصبع يده الخالصة. كل هذا وهو مرتكز فوق فوَّهة الزجاجة على إصبع واحدة والأطواقُ الأربعة تدور بسرعة حول ساقَيه وحول إصبعه وحول العصا التي في فمه. وبقي على هذه الحال مدةً تقرُب من الخمس دقائق، ثم رمى الطَّوق الذي في إصبعه، فالطوق الذي في فمه، فالطَّوقين اللذَين حول ساقَيه، ثم قفز هو في الهواء ولفَّ حول نفسه في الهواء ليسقط على الأرض واقفًا على قدمَيْه فوق الحلبة وسط التصفيق الشديد الذي دوَّى بقوة لمدةٍ طويلة.

وهكذا توالت رقصاتٌ وألعابٌ أخرى لا يتسع المقام هنا لذكرها، ثم خرجنا من الملهى ونحن لا نصدِّق ما رأيناه كأننا كنا في حُلم؛ إذ كلها أعمالٌ خارقة لا يمكن أن نتصور أنها صادرةٌ من بشر …»

نعود إلى مدريد. حملَنا الأوتوبيس في رحلة العودة، وتفضَّل السائق مشكورًا بأن أوصل كل راكبٍ إلى فندقه، فوصلتُ أنا إلى فندقي في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

الباب الثالث عشر

ساعاتٌ أخيرة وتأملاتٌ قريرة

حاولتُ أن أنام ليلة الأمس فلم أستطع، وفجأةً أحسستُ بآلامٍ شديدة مُبرِّحة في المعدة. قمتُ أفتح حقائبي عسى أن أجد دواءً يشفيني من المغص، ولكنني، للأسف، لم أجد شيئًا.

كانت ليلةً شاقة جدًّا بالنسبة لي. أكاد أن أجزم بأنني لم أذُق فيها طعم النوم على الإطلاق، ولما كان عليَّ، في الغد، أن أستعدَّ للسفر إلى فرنسا مرةً أخرى، أسعفَني نادل المطعم بالفندق بشرابٍ ضد المغص، أفادني قليلًا، فنفحتُه من أجلِه مبلغًا طيبًا. لم أجد صعوبةً في العثور على تاكسي أوصلَني إلى موقف الأوتوبيس الأصفر الذي يحمل المسافرين إلى المطار. تقاضى منِّي سائق التاكسي ١٣٠ بيزيتا بينما كان أجر الأوتوبيس ٣٥ بيزيتا فحسب. وصلتُ إلى المطار في أمان، واتجهتُ إلى شركة الطيران «أيبريا»، وهي الشركة الإسبانية التي ستنقلني إلى نيس، فطلبَت مني الموظفة أجرًا عن الوزن الزائد وقَدْره ١٣ كيلو جرامًا. أصرَّت عليَّ أن أدفع، وكان لا بد من أن أدفع، فدفعتُ ١٠٢٠ بيزيتا أجرًا للوزن الزائد. ذهبتُ إلى كافيتيريا المطار لأشرب شيئًا ساخنًا يُدفِئ معدتي، وفي الوقت نفسه أكتب بعض السطور في وصف الرحلة.

بينما أنا في الكافيتيريا، إذ بالإنجليزيَّين اللذَين كانا معي في رحلة رؤية معالم المدينة، يظهران فجأة. وبمجرد رؤيتهما إيَّاي استأذنا في الجلوس معي فأذنتُ لهما، فدار بيننا حديثٌ طويل عن أمانة الشعب الإسباني، وشعورك بالأمان التام عندما تعيش وسط أهل إسبانيا، ورُحنا نتندَّر بذلك. وأعطياني عنوانَيْهما لعلني أرغب في مراسلتهما، وربما كنت ذا نفع لهما إذا ما زارا مصر في يومٍ ما. شعَرتُ بصدق الرجلَين. ولأول مرة أعرف أن كلًّا منهما يحمل لقب دكتور رغم البساطة المتناهية التي تبدو عليهما في ملابسهما. وألحَّا عليَّ في أن أشرب شيئًا عن حسابهما فأجبتُهما إلى ما طلبا. ولما حان

موعد انصراف كل واحدٍ منا إلى طائرته، لم ننسَ قُبلة الوداع، فقبَّل كلٌّ منا زميله وودَّعه في حرارة.

ركبتُ متن الطائرة الإسبانية الصغيرة «ثيودا الميديا» التي تتسع لمائة راكبٍ فحسب. جاء مقعدي إلى جوار فتاةٍ بالغة الرقة، نظرَت إليَّ مبتسمةً في حنان لمستُه يتدفق من عينَيها، فتجاذبنا أطراف الحديث، فعرفتُ أنها طالبة بالسنة النهائية بالجامعة، وأنها ستعمل مُدرِّسة بعد التخرج بمرتب يبلغ حوالي ٣٠٠٠٠ بيزيتا في الشهر الواحد. كما علمتُ أنها تركب الطائرة لأول مرة، وأنها خائفةٌ بعض الشيء، وستمكُث شهرًا عند عمتها التي تُقيم في مونت كارلو بفرنسا بالقرب من نيس. سألتُها عما إذا كانت تحب، فقالت: نعم، أحب زميلي في الجامعة منذ عامَين. وسألتُها عما إذا كانت ستتزوج ذلك الشاب الذي تُحبه، فقالت: هذا ما لا أستطيع أن أجزم به. فقُلت: وهل تنتظرين من زوج المستقبل أن يُسهِم في تأثيث بيت الزوجية؟ قالت: هذا هو المفروض. كما أن والدي سيساعد كذلك في تأثيث ذلك البيت. لا بد أن نُسهم جميعًا في إنجاح ذلك الأمر.

علمتُ منها أن لها أختًا واحدة أصغر منها وليس لها إخوة، وسألتُها عما إذا كانت تُحب أن تزور بلاد الشرق ولا سيما مصر، فأجابت: أحب هذا كثيرًا لأنني أقرأ الكثير عن مصر وآثارها وتاريخها العريق القديم. ثم أخرجَت قطعةً من الورق كتبَت عليها اسمَها كاملًا وعنوانَها، فوعدتُها بالمراسلة، ولكني طلبتُ منها أن تغفر لي أخطائي في اللغة الفرنسية التي قد أقع فيها عندما أكتبُ إليها؛ لأنني لا أكتب باللغة الفرنسية إلا نادرًا، فقالت: وأنا أيضًا لا تخلو خطاباتي من أخطاءٍ إملائية وأخرى من ناحية الآجرومية. فضحكنا معًا؛ إذ لن يُعيِّر أحدنا الآخر.

الطائرة تستعدُّ الآن للهبوط في مطار نيس. كانت الرحلة مريحةً هادئة، والمضيفات رقيقات خدومات، قدَّمن لنا طعامًا لا بأس به، تناولناه مسرورين.

انتهت إجراءات المطار على خير دون أية مشاكل، وكأن الله أراد أن يُصلِح ذات البين بيني وبين الحمَّال الفرنسي الذي سبق أن ارتبتُ في أن تكون له يد في ضياع حقائبي بمطار نيس؛ فما كِدتُ أن أقترب من الباب المؤدِّي إلى الطريق العام حتى وجدتُه عائدًا فالتقينا وجهًا لوجه، فتركتُ حقائبي في الحال، وذهبتُ إليه معتذرًا بشدة وقبَّلتُه من خدِّه وتعانقنا. كان قد بلغه خبر عثوري على الحقائب وكيف نُقلَت خطأً، فقال: إنني ألتمس لك العذر كل العذر فيما بدر منك في ذلك اليوم. ولو أنني كنتُ مكانك لفعلتُ أكثر مما فعلتَ أنت. عندئذٍ استراح قلبي وتصافَينا وتمنى كلٌّ منا للآخر دوام الصحة والسعادة.

أقلَّني التاكسي إلى فندق «أفينيدا» حيث أقمت في المدة السابقة بنيس، وحيث كنتُ قد تركتُ حقيبة أمانة طرفهم.

دفعتُ لسائق التاكسي الثلاثين فرنكًا التي طلبها. بيد أنني عندما دخلتُ الفندق اعتذرَت الموظفة لعدم وجود أماكن، وأن الحجرة المحجوزة لي كانت بتاريخ ٢٧ من هذا الشهر، ولكنني جئتُ قبل الميعاد ودون إخطارٍ سابق، وفشلتُ في إقناع الموظفة بالظروف التي دفعَتْني إلى تقديم موعد سفري، فكان عليَّ أن أبحث عن حجرةٍ خالية بأي فندق. وكم كنتُ سعيد الحظ أنني بعد خمس دقائق تقريبًا، عثرتُ على حجرة لي بفندق لا يبعُد عن فندق «إفينيدا» سوى بضع خطوات، بسعر ٣٦ فرنكًا في الليلة مع الإفطار. كان صاحب الفندق كهلًا سمح الوجه أنيق الملبس. قال: اذهب وأحضِر حقائبك واصعَد إلى الدور الثاني. فقلتُ له: لن أغيب أكثر من خمس دقائق. وفعلًا كنتُ عند كلمتي. وجدتُه ينتظرني عند الدور الثاني أمام باب المصعد، ففتح لي الحجرة رقم ٦. وما كان أشد سروري عندما فوجئتُ بحجرةٍ فسيحة بالغة الأناقة والنظافة. وكان لها بابٌ جانبي يفتح على حمَّامٍ فسيح. كِدتُ لا أصدِّق نفسي، ودُهشتُ غاية الدهشة عندما سألَني بقوله: في أي ساعةٍ تريد إفطارك غدًا صباحًا؟ وماذا تريد أن نقدِّمه لك للإفطار؟ عندئذٍ ندمت على الفرنكات الكثيرة التي دفعتُها في الفندق السابق؛ فما دفعتُه أجرًا للنوم ليلةً واحدة بذلك الفندق، فندق أفينيدا، كان يساعدني على النوم ليلتَين ونصف ليلة في هذا الفندق الهادئ المريح. سلَّمني صاحب الفندق مفتاح الحجرة ثم سألني قائلًا: متى تعود من الخارج في هذه الليلة؟ قُلت: أنا لا أسهر بعد الثانية عشرة أبدًا. قال: نحن نغلق أبواب الفندق في الحادية عشرة مساء، ولكني سأعطيك هذا المفتاح الثاني كي تفتح به باب الفندق، ولكن يجب أن تُغلق الباب من الداخل مرةً أخرى بعد أن تدخل. وراح يؤكِّد عليَّ بشدة ضرورة إقفال الباب مرةً أخرى بعد دخولي، فطمأنتُه بما في الكفاية.

انتهت هذه المشكلة بأسرع مما كنتُ أتصور. وعلى بُعد خطواتٍ قليلة من الفندق، وجدتُ نفسي أمام المحل الذي أخبرَتْني الموظفة التي به ألا أقلق؛ فلا يمكن للحقائب الثلاث أن تضيع هكذا بسهولة، أو أن يسرقها أحد في مثل تلك الفترة الوجيزة، وطمأنَتْني. ما إن رأَتْني هذه الموظفة حتى حيَّتني وسألَتني عن سبب غيابي، فأفهمتُها بأنني كنتُ في إسبانيا ورجعت منها اليوم فقط. ولما عرفَت أنني مسافر غدًا صباحًا إلى أثينا أعطتني عنوانَها فوعدتُها بالمراسلة.

عاودني المغص بشدة. فشربتُ قدحًا من الشاي الساخن مع عصير الليمون. المغص عنيدٌ لا يريد أن يفارقني أو يتوقف. فعوَّلتُ على الذهاب إلى صيدلية لشراء دواء ضد

المغص. شرحتُ للطبيب الصيدلي حالتي فاهتَم بها وجاءني بدواء في صورة شراب. طلبت منه أن يفتح الزجاجة ويُسعفَني بقليل منه. وفعلًا جاء بكأس مدرَّجة وصبَّ فيها من الزجاجة حتى تدريجٍ معين، ثم صب فوق الدواء مقدارًا مماثلًا من الماء، ونصحني بألا آكل قبل ساعة، وألا آكل فاكهة أو لحومًا. على أنه كان لا بد لي من استشارة طبيب إذا لم يكُفَّ المغص حتى صباح الغد، فشكرتُه على إنسانيته واهتمامه بأمري تاركًا بقية الزبائن ينتظرونه إلى أن ينتهي من خدمتي. كان ثمَن الدواء مساويًا لما دفعتُه ثمنًا لقدَح الشاي الذي شربتُه في المقهى منذ لحظات.

لأول مرة في حياتي أقضي ساعتَين كاملتَين دون أن أعمل فيهما شيئًا مفيدًا. جلستُ على مقعد في مقهًى كبيرٍ معروف. راودَتْني فكرة مراقبة الناس؛ الجالسين في المقهى والمارِّين أمامه فوق الطوار. ولستُ أدري كيف احتملتُ كل هذه المدة دون سأمٍ أو مللٍ. أنسَتْني تصرُّفاتُ الناس وحركاتُهم كل شيء عن نفسي وعن الكون الممتد حولي. وقد أسعدَني كثيرًا أنني اكتشفتُ أن وجوه الناس حلوةٌ وسمحة ومقبولة. الكل راضٍ بحاله وبنصيبه، فحتى ذلك الذي يتوكَّأ على العُكاز، كان يبتسم. والعجوز التي لوى الدهر يدَها على العصا وأحنَى ظهرها، كانت تجد زوجها إلى جانبها تتكئ عليه في سيرها. وكان الطفل يمشي بين والدَيه كأنه السيد الآمر الناهي؛ إذ يحسُّ بأنه روح والدَيه وقُرَّة أعينهما. لم أجد إنسانًا واحدًا برمًا بالحياة. حتى تلك الفتاة الجميلة ذات البنطلون الممزَّق التي كانت تنفثُ النيران من فمها كي تجمع بعد ذلك ما يجود به الناس عليها من دريهمات. كانت تجد في هذا العناء لذةً وسعادة؛ إذ قد عرفَت، على الأقل، سبيلًا للكسب الحلال. إن اللعب بالنار لعبةٌ خطيرة كما يقول المثل الإنجليزي ما ترجمتُه «ليس أصدق تحت الشمس من أنك لا يمكن أن تلعب بالنار دون أن تحترق.» كانت هذه الفتاة الشجاعة تملأ فمها بالبنزين في الهواء، فيمتلئ الفضاء بالنيران المتوهجة. كانت سعادتها في أن ترى النار تنطلق من فمها وكأنها تُحدِّث الناس بأقذع الألفاظ وأشدها إيلامًا، أو قل: لعلها كانت تُذكِّر الناس باليوم العظيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، في ذلك اليوم نار لا ترحم كما فيه نعيم مُقيم. ومع ذلك كان الناس لا يعطونها إلا القليل جدًّا مكافأةً لها على هذا السبيل الشريف الذي اختارته لنفسها. قلوب الناس عامرةٌ وزاخرة بالرحمة والشفقة والمحبة؛ قلوبهم مليئة بخشية القدَر ورهبة صاحب الأقدار.

أسعدَني أن أُراقب عمل النادل الفرنسي. يا له من عملٍ شاقٍّ مرهق يعجز عن ممارسته الشخص المرفَّه. إنه رجلٌ جُبل على خدمة الناس، يجد في ذلك سعادةً بالغة، لا

يريد من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا ولا يهدف إلى البقشيش. إنه يخدمك فقط. يتلقى النادل الفرنسي عشرة طلباتٍ مختلفة في آنٍ واحد، ويعود بها جميعًا بعد لحظات دون أن ينسى طلبًا واحدًا. إنه لا يستريح أبدًا ولا يعرف ما هي الراحة. كانت المقاعد تمتلئ فيقوم بخدمة جميع شاغليها، ثم تفرَّغ منهم لتمتلئ بغيرهم وهو أسعد ما يكون حالًا. ويمتاز النادل الفرنسي بالأدب الجم والهدوء التام والطاعة ورقة الحديث، وفوق كل هذا بالحلم؛ فهو لا يغضب أبدًا، يتعامل مع شتى طبقات الناس ومختلف أجناسهم ومشاربهم وهو ثابت الجنان هادئ الطبع يُقَيِّم الناس ويحترمهم في أدبٍ ولياقة. جاءت لحظة تمنَّيتُ أن أصير مثله في الحياء والتحكم في هدوء الأعصاب ومسايرة الناس مهما تعدَّدَت طباعهم وتضاربَت ميولهم وتصرفاتهم، إنه في نظري طبيبٌ نفساني حائز على أرقى الشهادات الجامعية. لقد أثبت لي النادل الفرنسي أن الجامعات في كافة أنحاء العالم قد تعجز فلا يمكنها أن تُعلِّم الناس ما يَعلمه هو من الناس وعن الناس. لقد اتخذ النادل الفرنسي من الناس جامعةً له. كل شخصٍ منهم معلمٌ خاص له؛ فهو بذلك جامعةٌ متنقلة في معالجة النفوس البشرية، وفي إرضاء جميع الأهواء والمشارب، بلا عناء ولا تعب ولا تأفف أو امتعاض ولا ملل أو سأم أو تبرُّم.

لاحظتُ أن الراجلين أسعد حالًا من الراكبين. ينعم الراجلون بمن معهم وبمن حولهم. الراجل يرى أكثر ويتأمل أكثر ويبطئ أكثر وأكثر، فيرتاح ويسعد. أما الراكبون فمحكومٌ عليهم بالسرعة وبعدم التوقف، هم في هلع دائم من مراقبة رجل المرور، وفي خوفٍ مستمرٍّ من الحوادث التي قد يتعرَّضون لها. الراجل لا يشتهي أن يرى أكثر مما تساعده قدماه على أن يرى، وعندئذٍ يراه جيدًا وبإمعان؛ فهو سعيدٌ قانعٌ بقدمَيه شاكر لهما فضلَهما عليه. في السير صحة وشفاء، وفيه متعة وصفاء، ومزيد من الفطنة والذكاء. الراجل يتمخطر ويتبختر، وقد يهدف أو لا يهدف. إنه حرٌّ بمعنى الكلمة. قد يحلو له أن ينتقل من طوار إلى طوار، ومن مقهًى إلى آخر. وقد يروقه أن يُغمِض عينَيه دون خوفٍ ولا وجل، وينثني أو ينحني حتى يكاد رأسُه أن يصل إلى قدَمَيه كي يُحكِم رباط حذائه أو يُزيل عنه غبارًا، أو ليلتقط شيئًا من الطريق. إنه، وهو ينعم بكل ذلك، لا يبالي إن كان يحمل نقودًا أو كان خاليَ الوفاض؛ فهو لا يحتاج إلى وقود أو زيت كما تحتاج سيارة الراكب. معه من الوقود ما يكفيه إلى ما شاء؛ فمن مشى كثيرًا كثُر زاده واشتدَّت ساقه وطال عمره وعلت سقامه.

الباب الرابع عشر

إلى اليونان بقلبٍ فرحان عمران

اليوم تنتهي إقامتي في مدينة نيس. اليوم أركب الطائرة متجهًا بها إلى أثينا عاصمة اليونان. استيقظتُ مبكرًا وأعددتُ حقائبي ثم خرجتُ أشاهد مدينة نيس في صحوة الصباح. حقًّا، ما أروعَكِ أيتها المرأة الفرنسية! وجدتُها في عملها مرتديةً أجمل الثياب وأبسطها. رأيتُها وهي تمشي متجهة إلى عملها، في غاية النشاط والقوة. رأيتُها راكبة الدراجة أو الموتوسيكل تُسابق بهما الريح في صرامةٍ وجديَّة غريبتَين مذهلتَين تُثيران الإعجاب. رأيتُها تقود سيارتها في هدوءٍ وثبات. كما رأيت الرجل أيضًا يحذو حَذْوها ويسعى سعيها. الجنسان أمام العمل عبيدٌ خدم. لم أجد حُبًّا وعناقًا. لم أجد غرامًا وعواطف، وإنما رأيتُ صورةً جديدة جديرة بكل احترام. رأيتُ فرنسا العاملة رائدة الحضارة. رأيت الجِد في أمتع صوره. فرنسا في الصباح، تختلف عنها في الليل تمام الاختلاف. إنهم يُعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله. إنهم بالنهار يجعلون السيطرة للعقل والفكر، وبالليل يرتعون مع الحب والخيال والعشق والهُيام. للعمل وقتٌ وللأهواء وقتٌ آخر. الساعة الآن السابعة صباحًا. الحركة قائمةٌ على قدَمٍ وساق. والسرعة سمةٌ من سمات حياة الصباح في فرنسا. لحياة العمل قدسيتُها واحترامُها. لم أجد تلكُّؤًا ولا تباطؤًا من أحد. لا من الرجل ولا من المرأة. بهذا حُقَّ لفرنسا أن تتقدَّم وتبلُغ ما بلغَتْه من مركزٍ مرموقٍ في الحضارة والرقي والقوة بين دول العالم. ليتك، يا سيدي القارئ، كنتَ معي لتنعم بما رأته عيناي. كنت وسط هذا الخِضَم من الحركة السريعة والسعي الدائب في دنيا العمل والإنتاج.

انتهت التزاماتي قِبَل الفندق، وحملَني التاكسي بسرعة إلى المطار. كان المطار هادئًا، والحركة به ما زالت ضعيفة. وقفتُ أمام موظف الشركة. وزن الحقائب وقال: عندك عشرون كيلو زيادة في الوزن. قُلت: آسف يا سيدي. ولم أزد على هذه الجملة حرفًا

واحدًا. كان هذا الموظف مهذبًا بصورة لا تصدَّق؛ فأنا شخصيًّا كِدتُ لا أصدِّق أُذني عندما قال: يمكنك أن تسافر. لم يطلب مني أجرًا إضافيًّا. والعجيب الغريب، أن مكتب هذا الموظف المتسامح والدمِث الأخلاق بمعنى الكلمة، ملاصقٌ لمكتب تلك الموظفة التي سبق أن أصرَّت على أن أدفع أجر الوزن الزائد، وغرَّمتني ٧١ فرنكًا ضاعت مني سُدًى. سبحان الله! النقيضان متجاوران يؤديان عملًا واحدًا لشركةٍ واحدة؛ أحدهما يُنفِّرك من التعامل مع الشركة، والآخر يُحبِّبك في نفس الشركة، ويُقرِّبك إليها، أو بمعنًى أصح يقرِّبها إلى قلبك ويشجِّعك على التعامل معها. والغريب أن الخشونة صدَرَت من الجنس اللطيف بينما صدَرَت الرقة من الجنس الخشن. هذا قلبٌ صارخٌ للأوضاع. على الأقل، كان هذا شعوري في كلتا الحالتَين.

أنا الآن في قاعة الانتظار بالمطار. سألَتني عاملة النظافة إن كنتُ من الجزائر. قُلت: لا، بل من مصر. فقالت: أنا من الجزائر. فتحدَّثتُ إليها باللغة العربية، فسُرَّت كثيرًا. انضمَّت إليها زميلتُها الجزائرية أيضًا، وراحتا تتكلمان معي بضع دقائق، لا أكثر ولا أقل. وفجأة ظهَرَت رئيستهما الفرنسية، فقالت لهما: ما الخطب؟ قالتا: وجدنا رجلًا عربيًّا. قالت بصرامة، ولكن في هدوء: الكلام مع المسافرين محظور. هيَّا إلى العمل. وفي الحال تركتني العاملتان دون كلمة وداع.

أنا الآن على متن الطائرة، أو على الأصح في جوف الطائرة، التي ستطير بي على متن الريح وتهبط بي في أثينا. الطائرة كاملة العدد. كلنا متجهون إلى أثينا أرض الأبطال والآلهة القدامى والأساطير الجميلة.

مرةً أخرى أطير على متن طائرة كارافيل ذات مائة مقعد، من لونٍ بمبني جميل. كافة الركاب صامتون ما خلا مجموعةً من العرب العراقيين. لا تسمع إلا أصواتهم وأحاديثهم بلهجتهم العربية الحبيبة إلى النفس. هكذا العرب في كل مكان. لا يرضخون لقانون، ولا يُعيرون مشاعر الغير أي اهتمام. حتى المضيفات لا يتحدَّثن، وإن تحدَّثن فإنما بصوتٍ خفيض لا يسمعه إلا من يعنيه الحديث وحده. آداب الطائرات كآداب دور السينما والمسارح. من الضروري مراعاتها واحترامها والتمسك بها إلى أقصى الحدود. إننا نتصور أننا وحدنا نملك الكون، وبأموالنا نشتري حرية الناس. يحترم أهل الغرب حرية الغير ومشاعره، أولًا، ويحرصون كل الحرص على عدم الاعتداء عليها مهما كلَّفهم الأمر. والأمر لا يكلِّفهم شيئًا؛ فقد نشئوا على ذلك التقليد الحميد، وشبُّوا على هذا الخلق الكريم. غرَسَه الآباء في نفوس أولادهم، وساعدَتْهم المدرسة في غرس هذا المفهوم المشكور. لم

يكتفوا بتعليمهم، منذ نعومة أظفارهم، آداب الحديث والسلوك في الملاهي ودور السينما، بل وعلَّموهم أيضًا آداب السير في الطريق وآداب المائدة، واحترام الشارع والحديقة والنبتة والحيوان، وغير ذلك الكثير العديد.

تأخَّر قيام الطائرة عن موعدها المحدَّد، ولكن المضيفة لم يفُتها أن تُعلن لنا عن سبب التأخير قائلة: تأخَّرنا عن موعد القيام بسبب كثرة الحقائب التي ستحملها الطائرة. شحنُها في داخل الطائرة هو سبب التأخير.

أرى المضيفات يعملن بلا توقف. العمل على متن الطائرة شاقٌّ مرهق جدًّا. على المضيفة أن تخدم عشراتٍ وعشراتٍ من الركاب. عليها أن تؤدي لهم كل ما يعمل على راحتهم وكل ما يطلبونه منها. هناك واجباتٌ محدَّدة رسمتها لها الشركة، غير أن هناك طوارئ وطلبات قد تُفاجأ بها المضيفة، وعليها أن تتصرف وتبُتَّ فيها بإجراءٍ مفيدٍ مقنع.

تحرَّكَت الطائرة بعد أن تأخَّرَت نصف ساعة تقريبًا. يقف مضيف ومضيفة في الممر، ويحاولا أن يصفا لنا كيفية استخدام حُلَل النجاة في حالة تعرُّض الطائرة لخطر السقوط. هذه التعليمات لا بد منها متى ركب الإنسان طائرة. وأعتقد أن أحدًا لن يستفيد منها شيئًا؛ فلم نسمع قط أن أحدًا نجا من الموت في حادث سقوط طائرة لأنه استخدم هذه الحُلَّة. هي عادةً بلونٍ برتقالي وتنتفخُ تلقائيًّا متى جذَب الإنسان سلسلةً معيَّنة مثبَّتة بها. كما أن لها منفاخًا احتياطيًّا يمكن استخدامه بالفم عندما يتعطل المنفاخ الآلي «يا سلام على روقان البال وجمال الخيال، وجلائل الأعمال والأشغال ...» نسيتُ أن أقول لك إن هذه الحُلَّة مثبتةٌ أسفل مقعد الراكب، وعملية إخراجها شاقةٌ ومعقَّدة، فما بال باقي الخطوات والعمليات والمهام الصالحات لسلامة الروح والحياة الممتلكات؟ ومن سيُفكِّر في ذلك وقتَ الفزع والهلع والصُّراخ والعويل عند الإحساس بسقوط الطائرة واختلاط الحابل بالنابل؟ وهل إذا سقطَت الطائرة سيكون هناك متسعٌ في الوقت لإخراج الحُلَّة وارتدائها ونفخها؟ وهل سيكون كل شخص وقتئذٍ في مكانه ليقوم بذلك؟ ما هي إلا بضع ثوانٍ معدودات وترتطم الطائرة بالأرض وتشتعل فيها النيران، وسيكون الركاب مكدَّسين بعضهم فوق بعض. هذا إجراء لم يفكِّر فيه المسئولون تفكيرًا سليمًا.

قام بيني وبين راكبة فرنسية رقيقة ولطيفة المنظر والمعشر، حديثٌ خاطف سريع. فهمتُ منها أنها ستطير من نيس إلى جزيرة كورفو باليونان لقضاء يومٍ واحد لإنجاز بعض الأعمال. هكذا تُنجز الأعمال في الخارج، بالطائرات. صورةٌ أخرى من كفاح المرأة

الفرنسية العاملة التي تركب الصعب حتى ولو كان في قلب الفضاء كي تنجز الأعمال. إن هذه الرحلة، بكل تكاليفها، ستعود عليها وعلى وطنها بالمال وبالخير والرخاء.

جاءتنا المضيفاتُ بالطعام وكان لذيذًا شهيًّا، وبكميات وافرة؛ دجاج ولحوم وخضر وسلطة وجبن وزبد ومياه معدنية وقهوة. كان كل شيء مُعبَّأً بطريقةٍ جذابةٍ وفي نظافةٍ تامة.

أكلنا جميعًا بشهية، وأحسَسْنا كلنا بأن شركة إير فرانس لا تني أو تدَّخر جهدًا في تقديم أفضل ما عندها لراحة ركَّابها وسرورهم.

امتدَّ الحديث بيني وبين الراكبة اليونانية الرقيقة «كانوني فوتيني». إنها صورةٌ حية للدعة اليونانية والرقي في التعامل الإنساني. قالت: أنا الآن في الخامسة والعشرين من عمري، لا أفكِّر في الزواج، ولكنني أريد أن أعيش لنفسي، أرى الدنيا وأتعلم منها. إنني من عائلةٍ محافظة، قلما أختلط بالجنس الآخر. كنتُ في باريس أزور خالتي فمكثتُ معها شهرًا، وأنا الآن أعود إلى بيت والدي الذي يبعُد عن مدينة أثينا بمسافة خمسة عشر كيلومترًا.

تتكلم فوتيني هذه، الإنجليزية والفرنسية بمنتهى الطلاقة. قالت: سأنتهي في العام القادم من دراستي وسأعمل في التدريس، ولكني لن أدخر وسعًا في الاستزادة في العلم والمعرفة بالقراءة والرحلات. ومن يدري؟ فقد أزور مصر في إحدى رحلاتي؛ فأنا كيونانية أعرف الرباط القوي الذي يربط أرضَ مصر بأرضِ اليونان منذ قديم الزمان؛ فتاريخانا مرتبطان وعقائدنا القديمة تكاد تكون متشابهة. كانت فوتيني صادقةً في كلماتها وعباراتها، فتبادلنا العناوين ونحن سعيدان.

حان موعد الخروج من الطائرة. كانت الرحلة طيبةً هادئةً مطمئنة، فسلَّمتُ على فوتيني مُودِّعًا، كما سلَّمتُ على الفرنسية أودِّعها قبل مغادرتي الطائرة.

وعلى أرض المطار ذهب كلٌّ منا إلى حال سبيله مُتجهًا وجهتَه التي يقصدها. ومن يدري؟ ربما التقيتُ بهما أو بإحداهما بدل المرة مرات؛ فالعالم اليوم وطن الجميع. وأنا كنابليون، لا أومن بالمستحيل.

هنداوي